تاريخ المصريين ٢١

التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى

تأليف

الدكتور توفيق الطويل



الهيئة المصرية العامة للكتاب

تاريخ المصريين

٢١

الغلاف : اسامة سـعيد

الاخراج الفنى : محمد قطب

التصوف فى مصر
إبان العصر العثمانى

تأليف

الدكتور توفيق الطويل



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

تقديم

ربما كان هذا الكتاب الذى أقدمه لقارىء هذه السلسلة عن « تاريخ المصريين » أهم هذه الكتب فى تخصصه ، وأكثر من ذلك أنه فريد فى موضوعه ، فلم يسبقه أويلحقه عمل علمى يعالج تلك الفترة بمثل هذا العمق ، ويعتبر الأساس الذى بنيت عليه كل الأعمال العلميـة التى تناولت هذا الموضوع أوجانبا منه .

وقد عرفت هذا العمل العلمى حين كنت طالبا بكلية آداب القاهرة فى عام ١٩٥٤/١٩٥٥ ، عندما كان يحاضرنا فى حضارة مصر الحديثة الدكتور أحمد حسين الصاوى ، قبل أن ينتقـل بتخصصه إلى ميـدان الصحافة ، ويصبح أستاذا بالجامعة الأمريكية . وكان هذا الكتاب أحد المصادر الرئيسية التى أشار علينا الدكتور أحمد الصاوى بالاطلاع عليها، وقد عانيت مشقة كبيرة فى الحصول عليه بالشراء ، إذ كان الكتاب قد نفـد من السوق قبـل سنوات ، فقـد صدرت طبعتـه الأول فى يوليـو ١٩٤٦ ، ونفدت ، وظل مرجعا شاق الحصول عليه الى أبعد الحدود .

ومنذ ذلك الحين لايكاد يذكر اسم هذا الكتاب حتى أتذكر مشقة العثور عليه وأتساءل عن السبب الذى دفع الأستاذ الدكتور توفيق الطويل إلى عدم إعادة طبعه حتى الآن ، ليكون فى خدمة الباحثين . وقد حاولت منذ أسندت إلى رئاسة تحرير سلسلة « تاريخ المصريين » ، التى جعلت من رسالتها اعادة طبع الأعمال العلمية الهامة التى نفذت طبعاتها من السوق ، والتى حُرم القراء والباحثون من الاطلاع عليها - أن أتصل بالأستاذ الدكتور توفيق الطويل ، للحصول على إذنه بإعادة طبع كتابه الهام،ولكنى لم أوفق ، حتى حصلت مؤخرا على رقم تليفونه من صديقى الدكتور حسن حنفى ، فاتصلت به ، وأقنعته بالموافقة .

ومن هنا ، فاعتقد أننى أسعد الناس بإعادة طبع هذا الكتاب الهام الذى نفد من السوق منذ أربعين عاما ، ليسد فراغا علميا لم يملؤه أحد منذ ذلك الحين ، وليخدم الباحثين فى مادة تخصصه .

وكان من الطبيعى أن أحرص على تقديم الكتاب فى نصه دون أى تحريف أو تغيير ، ابقاء على روحه ، وحفاظا على جوهره ، وإيمانا بأن الكتاب بنصه الحالى يمثل إضافة علمية هامة ، وأن أهميته لم تقل - ان لم تزد - على طول الأعوام الأربعين السابقة .

ومن المعروف أن الأستاذ الدكتور توفيق الطويل هو أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة كما أنه عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهو علم من أعلام حياتنا العلمية ، وقيمة من قيم حياتنا الفكرية،وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية (فرع الفلسفة) فى عام ١٩٨٣ ، كما أنه عضو بالمجلس الأعلى للثقافة (الذى تشرفت مؤخرا بعضويتى فيه) كما أنه عضو بالمجلس القومى ، وله مولفات هامة منها : أسس الفلسفة ، وفلسفة الأخلاق ، والعرب

والعلم فى العصر الذهبى ، والشعرانى إمام التصوف فى عصره ، فضلا عن البحوث والدراسات الأخرى المنشورة فى المجلات المصرية والعربية ، وترجمته لعدد من الأعمال ، مثل « الفلسفة والالهيات » فى كتاب « تراث الاسلام » لألفريد جيوم . وقد صدر له مؤخرا كتاب : « فى تراثنا العربى الإسلامى » فى سلسلة عالم المعرفة فى مارس ١٩٨٥ .

ومن هنا فلعلى بإعادة طبع هذا الكتاب الهام « التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى » للأستاذ الدكتور توفيق الطويل أكون قد حققت أمنية غالية حفظتها فى صدرى قرابة ثلاثين عاما ، وأكون قد خدمت العلم وخدمت تاريخ المصريين خدمة جلى ، وقدمت للقراء والباحثين المتعة الذهنية الرفيعة المستوى ، ودفعتهم إلى التفكير .

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

فهرس الكتاب*

---

* العنوانات هنا أصح منها مسجلة فى صدر الفصول

صحيفة

مقدمة الكتاب

يقولون إن غاية التفكير الاهتداء إلى الحقيقة ، وأن الجهل بالحقائق يؤدى بالإنسان إلى متابعة النظر ومواصلة التفكير أملا فى الاهتداء إلى حقيقة الحقيقة ، وأن ذلك ينتهى بصاحبه إلى أن ينقض فى يومه ما اهتدى اليه فى أمسه ، ويثور فى غده على ما استقر عليه فى يومه ، وبذلك جعلوا التفكير عملا يقوم به الإنسان ليحقق غاية وضعها لنفسه ووطن العزم على بلوغها ، وقد يكون هذا صحيحا فى بعض حالاته ، ولكن الأصح كذلك أن يقال إنا نفكر منساقين بطبيعتنا إلى التفكير ، وبذلك يكون التفكير غاية فى نفسه — إن صح هذا التعبير — فلسنا نفكر لأنا نريد أن نفكر ، أو لأنا نريد الاهتداء بالتفكير إلى حقيقة مجهولة ، ولكنا نفكر — لأن التفكير وظيفة طبيعية للعقل ، كما نرى لأن الرؤية وظيفة طبيعية للنظر ، والإنسان لا يرى الأشياء ليكف عن رؤيتها يوما من الأيام ، ومتى كان سليم النظر دقيق الحس آثر العودة إلى رؤية الجميل منها وإطالة النظر اليه ، والاستمتاع به ، وهو لا يمل إدمان النظر إلى الشيء الجميل إلا إذا أصاب عينيه كلال أو أدرك حسه نقص ، فالفنان الذى أوتى دقة الحس يرى مناظر الطبيعة فيعجب بها ويستمتع بجمالها ، وكلما أطال النظر إليها ازداد شغفاً بها وحباً لها وإقبالا عليها ، وقد يحس فى لحظة من لحظاته أنه قد أخذ من الطبيعة زاده واستوفى حاجته ، فيفر منها ويهرب من النظر إليها ، ولكنه سرعان ما يطلب العودة إليها والاستمتاع بجمالها ، وكذلك حال التفكير عند الانسان من بعض الوجوه ، هو وظيفة طبيعية للعقل ، ولهذا فنحن لا نفكر لكى نتوقف عن التفكير فى الموضوع الذى فكرنا فيه وننصرف إلى غيره يوما من الأيام ، ومتى كان العقل سليما وموضوع التفكير ملائما له ، أحس الإنسان بالحنين إلى إدمان التفكير فيه وإطالة النظر اليه ، وقد يشعر فى

لحظة من لحظاته بأنه أخذ حاجته العقلية من موضوعه واستوفى منه زاده ، فيهرب منه إلى موضوع آخر وينصرف اليه تفكيره ، ولكنه سرعان مايحس بالحنين إلى العودة للتفكير فى موضوعه الأول ، فيبادر إليه ويتولاه بالنظر حتى يهتدى إلى نقض ما رضى به من قبل ، أو تدعيمه على أسس جديدة .

ومن هنا انقضت حياة الكثيرين من المفكرين فى تأييد فكرة أو شرح مذهب أو نقض رأى . . . وكثرت مؤلفاتهم يؤيد بعضها بعضاً أو ينقض آخرها ما جاء فى أولها .. تلك طبيعة العقل البشرى فى أداء وظيفته .

ومن هنا كان موقف الباحث من بحثه شبيها بموقف القاضى عبد الرحيم البيسانى للعماد الكاتب الأصبهانى فى اعتذاره عن كلام استدركه عليه إذ قال : « إنه وقع لى شىء ولا أدرى أوقع لك أم لا ، وهأنا أخبرك به ، وذلك أنى رأيت أنه لايكتب إنسان كتابا فى يومه إلا قال فى غده :

لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر [1] » .

ولعله ، فوق ذلك دليل على ما أسلفت الآن شرحه حين قلت إن العقل ينساق إلى التفكير بطبيعته ، وأن مواصلة النظر فى الموضوعات التى تلائمه تحلو له وتلذ كثيرا ، وأن من شأن هذا أن يكشف لصاحبه عن آفاق كان يجهلها وينتهى به إلى الندم على ما كتب . . ! !

على أنى وضعت هذا البحث منذ ثمانى سنوات ، وترددت من أجل هذا فى نشره طوال هذه الفترة ، ولكن الإنسان لايفكر لنفسه ، أو هو لايقنع إذا ارتاد مجهولا وكشف غامضا إلا بأن يشرك الأغيار فيما ظفر به واهتدى إليه ، ومن هنا كان حرصى على نشر هذا البحث بعد انقضاء هذه الأعوام الطويلة على وضعه . . وقد حرصت عند نشره على الإبقاء على أسلوبه وروحه على قدر الاستطاعة ، وإن كنت قد اضطررت إلى حذف جملة من فصوله وردت

(١) الزبيدى : اتحاف السادة المتقين ج ١ ص ٢

خلاصتها فى كتابى عن « الشعرانى إمام التصوف فى عصره » إذ كان الشعرانى روح العصر العثمانى وعملاقه علما وتصوفا ، فأثر فى توجيه آرائه ، وتحديد تياراته وطبع العصر كله بطابعه ، وقد آثرت ألا أكرر هنا ما ذكرته فى كتابى عنه ، وإن كان موضوع هذا الكتاب أعم وأشمل [١] . .

قلت إن الباحث لا يفتأ يعيد النظر فيما يكتب ، ويتناوله بالتعديل والحذف والإضافه ، وأنه قد يندم على كل ما كتب . . وإذا صح هذا فى كل بحث عقلى فهو أصح ما يكون فى بحث مثل هذا البحث الذى يعرض لموضوع بكر لم تطرقه أقلام الباحثين من قبل ، لأن التصوف الإسلامى لم يخضع للبحث العقلى إلا منذ أمد قصير ، وتكاد عنايه المستشرقين والشرقيين به ، أن تكون مقصورة على مراحله الزاهرة ، حين تحول إلى نوع من التفلسف والنظر العقلى تجاوز بأهله مجرد « العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة » وهى المظاهر الأولى للتصوف الاسلامى فيما يقول ابن خلدون ، وإذن فقد عنى الباحثون بالتصوف حين أصبح التفلسف — لا الإيمان — طريقا إلى الله ، وعندما انصرف أهله إلى مذاهب فى المعرفة والوجود ونحوهما ، فلما عاد التصوف سيرته الأولى ، وأصبح فى عصره المتأخر — كما كان فى عصره الأول — عمليا لا نظريا ، انصرف عنه أهل البحث وأهملوا دراسته .

والملحوظ أن التصوف فى هذا الدور الأخير قد دخله الدجل وتحول من ظاهرة نفسية فردية ، إلى ظاهرة اجتماعية يشارك فيها جمهرة الناس ، ومن هنا

---

(١) كان لصوفية العصر العثمانى نظرات وآراء فى مختلف نواحى الحياة : العلمية والعقلية والسياسة والخلقية والعملية ، وقد كتبنا عن كل منها فصلا مسهبا مزودا بفيض من النصوص ثم لاحظنا أن خلاصة هذه الفصول قد وردت موجزة فى كتابنا عن الشعرانى فحذفناها من كتابنا عن التصوف وهذا إلى جانب فصول أخرى يلحظها قارىء الكتابين ، ومن هنا كان كتابنا عن الشعرانى ضروريا لقارىء هذا الكتاب .

كان خطره فى حياتهم وتأثيره فى شتى مرافقها ، ويبدو هذا الدور فى أكمل صوره وأوضحها ، فى تصوف مصر أيام العثمانيين ، وهذا هو موضوع الكتاب الذى نحن الآن بصدده ، وقد كانت لفتة طيبة موفقة من أستاذنا محمد شفيق بك غربال أن يشير بدراسة هذا الموضوع ، فى العصر المظلم الذى لم يدرس بعد ، وأن يتابع اهتمامه بخطوات البحث ويحرص إبانه على تزويدى بالقيم من ملاحظاته .

وقد شجعتنى على هذه الدراسة كثرة المصادر التى وضعت فى هذا العصر ، والكثير منها ينطوى على مادة طيبة وهى خير زاد للباحث الذى يريد أن يرتاد آفاق هذا الموضوع البكر المظلم ويميل إلى الضرب فى ميادينه والسير فى مسالكه الوعرة ، وهذه المصادر — من المخطوطات خاصة — ما زالت بكرا لم تعبث بها يد ولم يتجه اليها نظر ، وفى هذا مايغرى بمتابعة التفكير ومواصلة النظر.

وقد ظننت بعد دراستى لهذا الموضوع أنى وفقت فى الاهتداء إلى كنوز كانت تنطوى عليها هذه الآفاق المجهولة التى كنت أرتادها ، والإنسان - كما قلت من قبل — لا يقنع إلا بأن يشرك الأغيار فيما ظفر به واهتدى اليه ، ومن هنا كانت رغبتى فى نشر هذا الكتاب ، وإن طال الأمد على تحقيق هذه الرغبة

ولشد ما رضيت عن هذا الموضوع بعد أن تكشفت لى الكثير من آفاقه المظلمة فقد عرفت « فجأة — وعلى غير إنذار سابق » أنه يساهم فى تحقيق أمل كنت شديد الحنين إلى تحقيقه منذ زمن طويل ، وقد اتجهت هذه المفاجأة بالموضوع — وأنا فى منتصف الطريق - اتجاها لم يطف بخاطرى من قبل ، وقبل البدء فى بيان ذلك ، يحسن بى أن أبرز وقوع « المفاجآت » فى البحث العلمى ، وضرورة الاغتباط بها متى وقعت :

يقتضى منهج البحث العلمى أن يبدأ الباحث موضوعه وهو على جهل به ، فان لم يتهيأ له هذا الجهل وجب أن يصطنعه فيتجاهل موضوعه ، ويحاول أن ينسى كل ما يعرفه بشأنه ، فلا يضع فى مستهل دراسته رأياً ويعمل طوال بحثه على تأييده أو نقضه ، فان ذلك من شأنه أن يلفت الباحث لكل مايؤيد

وجهة نظره ، ويعميه عن كل ماينقضها ، ويبعث فى عقله الشك فى أمرها . . .
وقد كان هذا منهجى فى بحث هذا الموضوع . . . جعلت غاية البحث هى البحث نفسه ، أو هى معرفة المجهول من آفاق الموضوع والقناعة بهذه المعرفة ، وذلك متفق مع ما أسلفته فى مستهل المقدمة حين قلت إنا نفكر لأن التفكير وظيفة طبيعية للعقل ، وأن الذى يفكر لأنه يريد تأييد حقيقة أو نقضها انما يتكلف مايفسد بحثه ويصطنع مايشوه تفكيره ، ومضيت فى بحثى على هذا الأساس ، فإذا بالنور الذى انبثق فى آفاق الموضوع من وراء هذه الدراسة المتواضعة يهدينى إلى اتجاهات لم تكن فى خاطرى يوم بدأت الدراسة ، وكان أعظمها خطرا هذا الاتجاه الذى وجه البحث إلى هذه الوجهة الجديده التى نتناولها الآن بشىء من الإيضاح :

حاول بعض علماء الاجتماع أن « يفلسفوا » التاريخ ، وأن يقدموا للمؤرخين تفسيرا جديدا لظواهره قائما على أحدث النظريات التى اهتدى اليها المحدثون من علماء النفس وغيرهم ، وأثارت محاولتهم ضجة كبيرة عند قرائهم ، وهيأت للنقاد منهم سبيل الهجوم على اتجاههم فى تفسير التاريخ ، ولكنها كانت محاولة ممتعة شائقة فوق أنها كانت خطوة لها خطرها العظيم فى تطور التاريخ عند أهله .

وكنت كلما طافت بخاطرى هذه المحاولة قلت إن مصر أحوج بلاد الأرض إلى هذا النوع من التأريخ ، إن تاريخها الى اليوم قائم فى الجملة على تاريخ ملوكها وحكامها ، أما شعبها فليس له حساب عند أكثر المؤرخين — حتى العدول منهم — والمؤرخ الذى يعرض لتفسير الحياة فيها لا يستطيع قط أن يفهمها على وجهها الصحيح قبل أن يتناول بالدراسة المفصلة كل مامر بأهلها من حركات دينية وحضارة إسلامية ، فإن المصرى منذ عهد الفراعنة الأقدمين رجل شديد التدين ، وآثاره التى لا تزال قائمة إلى يومنا الحاضر تشهد بصحة مانقول ، وتحول المصريين من الوثنية إلى المسيحية ومن المسيحية إلى الإسلام

لا ينقض مانقول ، وليس هنا مجال الحديث عن أسبابه ، وإنما الذى يعنينا الآن أن نقوله ، هو أن الأفكار التى تفشو عند مثل هذا الشعب متصله بالدين تتحول عنده إلى عقائد ، والعقيدة كما يقول المحدثون من علماء النفس — من شأنها أن تستبد بهوى أصحابها وتحملهم على جناحها وتوجههم فى تيارها ، ولهذا كانت كل محاولة يراد بها تفسير الحياة المصرية على غير فهم واضح لأثر الحركات الدينية فى نفوس المصريين ، إنما هى محاولة باطلة لاطائل تحتها ولا نفع من ورائها . . .

ومن هنا كان اغتباطى الشديد بالمفاجأة التى عرضت لى أثناء بحثى لهذا الموضوع ، لأنها أوحت إلىّ بأن البحث محاولة للمساهمة فى تحقيق الأمل الذى احتل خاطرى منذ زمان . . وهدتنى هذه المفاجأة إلى أن أتجه بالبحث اتجاها جديدا أحاول فيه أن أفسر الحياة المصرية — أو الكثير من ظواهرها — على ضوء التصوف . . . ففعلت ذلك . . . وأرجو أن أكون قد وفقت فيه .

ولقد كان توفيقا من الله أن أختار التصوف وفى العصر العثمانى وحده، فإن التصوف كان فى اعتبار الناس زبدة الدين وخلاصته ، وقد شاع واستفحل أمره واستشرى داؤه واستبد بعواطف المصريين ، وكان أكبر العوامل فى توجيه حياتهم فى هذا العهد وما بعده ، ولم يتهيأ لأهله هذا النفوذ الذى مكنهم من السيطرة على الحياة المصرية إلا قبيل العصر العثمانى — على ماسنعرف بعد — فكان اختيار العصر كذلك توفيقا فوق التوفيق الذى عرفنا بعض مظاهره فيما سلف .

ولقد لاحظت أن التصوف وإن كان يقدم حلولا للكثير من المعقد فى ظواهر الحياة المصرية فإنه لا يقوى وحده على تفسير بعضها ، ولهذا فان شباب الجامعة الذين يقومون باعداد الرسائل العلمية لو تعاونوا على كشف الغامض فى الحركات الدينية التى مرت المصريين ، وحاولوا بيان ما كان لهذا من سلطان على نفوسهم ، وأثر فى توجيه حياتهم ، لاستطاع الباحث فى الحياة

المصرية أن يتخذ أبحاثهم نواة لبحث قيم ، يفلسف ، به التاريخ المصرى ، مفسرا ظواهره تفسيرا جديدا لا يقوم على تاريخ حياة الملوك ولا يستند إلى تتابع الدول التى تولت الحكم فى مصر ، وإنما يدرس الملوك والحكام من خلال الشعب ومامر به من تيارات وشغل عواطفه من موجات ، ومن فعل ذلك فقد حقق الأمل الجميل الذى كنت شديد الحنين إلى تحقيقه حتى اعتبرت محاولة المساهمة فيه توفيقا يبعث الرضا فى نفسى ويشيع الاغتباط فى كيانى .

وإنها لمحاولة شاقة حقا ، ولعل أشق ما فيها أن سبل نقدها ميسرة لكل قارىء ، واتجاهات الذهن فى مثل هذه الموضوعات كثيرة متشعبة ، ولكل منها ما يؤيده ويبرر وجوده ، ولا أظن أن وجاهة اتجاه منها دليل على ضعف الاتجاه المباين له ، فقد تنصب على الموضوع الواحد وجهات نظر مختلفة أكثرها مقبول عقلا دون أن يكون فى ذلك تناقض ما . . . والعبرة بعلاج الموضوع ومنهج درسه وفهمه . . . وقد حاولت فى كتابى أن أدرس التصوف فى أرحب آفاقه مقيداً بالزمان والمكان اللذين يحملهما العنوان ، فدرست علاقة تعاليمه بالناس فى مختلف طبقاتهم وشتى هيئاتهم ، أثرياء وفقراء ، حكاما ومحكومين ، جهلة ومستنيرين ، وإن كنت قد أهملت التوسع فى دراسة علاقته بالطوائف الأخرى من أقباط ويهود ، وذلك لأن التصوف الذى قام فى مصر إبان العصر العثمانى لم يتأثر كثيراً بالمسيحية أو اليهودية التى عاصرته ، وإن وجدت وجوه شبه بينه وبين المسيحية فى كثير من الوجوه ، إذ كان التعصب شائعا إبان هذا العصر بين المسلمين وغيرهم من سائر الطوائف ، وكان من مظاهر هذا التعصب ما نراه فى بعض وثائق للسادات الوفائية من كثرة الشكاوى التى رفعها المسلمون للحكام يطلبون فيها منع اليهود من المرور بمقابر المسلمين والصالحين إلى مدافنهم ، وتعبيرهم عن ذلك بقولهم « لهم حفرة معدة لدفن الهالكين منهم » ثم قولهم « إن الأرض الموقوفة على المؤمنين لا يجوز سلوكها للكافرين بإجماع المسلمين [1] ثم ما سنعرفه

---

(١) أوراق تاريخية (مخطوطة وفيها عدة شكاوى بهذا المعنى) .

عن موقف الأزهر بين وعامة الشعب من فتوى الشبراوى التى أباح فيها للمسيحيين أن يحجوا إلى أماكنهم المقدسة ، وما كان من رجم موكبهم بالطوب والحجارة وهدم كنائسهم والإعتداء عليهم جهاراً . . . وما سنراه من موقف الناس من ابراهيم عصيفير وملامته لأنه كان يبيت عند الرهبان فى الكنائس . . وتعبير الكتاب المستنيرين فى هذا العصر عن المسيح — عليه السلام — بقولهم « المسيح الدجال » . . ثم النظر الى هدم الكنائس على أنه مفخرة لصاحبه[١] . . وإن كان ذلك لا يمنع من قبول الرأى الذى أرتآه من قبل جمهرة المستشرقين من أن التصوف الإسلامى قد تأثر بعوامل خارجية كانت المسيحية من بينها .

هذا ولم يكن فى وسعى أن أستخلص العناصر المصرية فى التصوف الذى قام أثناء هذا العصر ، فقد كانت القومية لفظا مجهول المعنى والدلالة فى العصر العثمانى ، وكان الدين هو الوحدة التى تربط الشعوب الإسلامية على اختلاف جنسياتها ، وقد كانت الرحلات — التى اعتبرها العلماء مظهرا من مظاهر العبادة ، تساعد مع وحدة الدين واللغة على إيجاد التشابه بين التصوف فى مصر وفى غيرها من الشعوب الإسلامية — وما أكثر ما صادفنا فى كتب التراجم والتاريخ والمناقب من نصوص تشهد بصحة ما نقول ، حتى لقد كانت الإجازات فى التصوف والفقه تمنح بالمراسلة . . ! بل لقد كانت مصر محط المتصوفة من أهل المغرب وتركيا وفارس والشام ، وحسبنا أن نذكر أن أبا القاسم المغربى + ٩٦٠ قد دخل مصر وفى صحبته خمسمائة فقير كما يقول مترجمو حياته[٢] .

ومن قرأ كتاب الأستاذ « كوبولانى[٣] » لا يملك إلا الدهشة من وجوه التشابه بين التصوف فى المغرب والتصوف فى مصر ، وقد أقنعنى هذا الكتاب الضخم بأن استخلاص العناصر المصرية فى موضوعى أمر عسير بل إن

(١) فى الكواكب الدرية جـ ٣ ص ١٢٩ مثال يؤيد ذلك .

(٢) السنا الباهر تكميل النور السافر ص ٧٣ (مخطوط)

Les Confreries Religieuses (٣)

التصوف فى بدايته بمصر قد قام به الغرباء ، فان الخوانق والربط والزوايا أنشئت فى بداية أمرها للواردين من البلاد الشاسعة كما سنعرف ، والتصوف كان فى هذا العصر تقاليد يرثها مشايخ الطرق جيلا بعد جيل حتى كان شيخ الطريق أو العالم إذا مات فى مصر أقيمت له صلاة الغائب فى الأقطار الإسلامية النائية . .ا[١] ولهذا دلالته ومغزاه ، وذلك فوق أن مثل هذا البحث لايقوى على الاضطلاع به إلا من تزود له بمعرفة التركية والفارسية وكان على علم واسع بالتصوف الذى قام عند الفرس والأتراك والمغاربة . . وهذا عمل حسبنا فى الدلالة على مشقته وصعوبته أن نذكر أن التصوف لم يؤرخ إلى يومنا الراهن .

ثم إن عنوان الموضوع لايتطلب هذا الجهد ، أو على الأقل لايحتمه ، وشتان بين التصوف فى مصر والتصوف المصرى ، ولقد كانت هذه الملاحظة تغنينى عن هذا الدفاع كله ، ولكن تفصيلى فى الدفاع مرده إلى نقد وجه إلى فى هذا الصدد .

وهذا الكتاب محاولة جريئة تحفها الأخطار من كل جانب ، ولهذا كان فراغى منها — أو توهمى الفراغ منها فما يفرغ الانسان من بحث يحبه — يشيع فى نفسى روحا وطمأنينة — ولقد كانت محاولة شاقة مرهقة كما قلت ، فإن مصادرها التى قلت إنها كانت تحت يدى ، وأن كثرتها كانت تحملنى على الشكوى ، لم تكن ميسورة كما يتصور القارىء لأول وهلة ، فلقد كانت طرق العثور عليها ، ووسائل الاطلاع على ماضمت بين دفتيها ، والعمل على ترك الغث منها وتخليص الطيب من مادتها ثم فهمه واستغلاله فى إقامة كيان هذا البحث . . . كان هذا كله شاقاً وعراً ، وحسبى الآن أن أقول إن دور الكتب عندنا مازالت إلى اليوم مخازن لمؤلفات الكتاب ، وأن القائمين عليها يجهلون من أمرها — فى الأغلب والأعم — مايجهله الراغبون فى استعارتها ، وأكثرهم قد اتصلت

---

(١) الكواكب السائرة ٢ ص ١٦٠ (لأبى العباس الحريثى + ٩٤٥ هـ) ص ١٩٢ لأحمد ابن عبد الحق السنباطى + ٩٥٠ ، ص ١٩٥ للفتوحى الحنبلى . . . الخ

مهنته بالكتب على غير رغبة منه أو منفعة تتطلبها مصلحة العمل ، وفهارس هذه الدور لم تنظم على وجه ييسر البحث لأهله ، والإعارة الخارجية للمخطوطات — التى اعتمدت عليها كل الاعتماد — ممنوعة منعاً باتاً ، ووسائل الإعارة الداخلية ملتوية غير منظمة تستغرق وقتا يضيق به أهل البحث ، وهذا فوق أن أظهر ما يميز المخطوطات خطها الردىء وكثرة الغث فى مادتها والمبتذل فى معانيها وغير ذلك ، وذلك كله فوق أن الموضوع بكر وعر لم تيسره أبحاث الباحثين من قبل .

ثم مشايخ الطرق الذين اتصلت بهم . . كنت أجد مشقة كبيرة فى الاهتداء إلى حقيقة عن أجدادهم الذين تناولهم كتابى ، ولئن كنت لا أملك إلا إعلان الشكر لهم على ما أمدونى به من عون وقدموه إلى من مصادر ، إلا أنى مضطر إلى أن أشير إلى الصعوبة التى كانت تصادفنى فى معرفة الحقائق عند هؤلاء الذين يرتفع إعجابهم بأجدادهم إلى مرتبة العبادة . . .

وقد هوّن علىّ متاعب هذا البحث — إلى جانب ما أسلفت الإشارة اليه من عناية الأستاذ الجليل شفيق بك غربال — الملاحظات القيمة التى أمدنى بها أساتذتى وزملائى ، وأخص بالذكر من حضراتهم معالى الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور أبو العلا عفيفى ، والأستاذ محمد فريد أبو حديد والدكتور ابراهيم مدكور والأستاذ أمين الخولى وغيرهم .

وبعد فهذا هو كتابى الذى أرجو أن يساهم فى وضع بحث «يفلسف» التاريخ المصرى ويتناول ظواهر الحياة فيه بتفسير جديد ، يقوم على فهم واسع بما مرّ بالمصريين من حركات الدين واستوعب نفوسهم من تياراته وشغل أذهانهم من أفكاره ، وقد انتهيت فيه إلى نتيجة لها خطرها ، هى أن الحياة المصرية فى جملتها ، منذ العصر العثمانى حتى يومنا الراهن ، تدين لتعاليم الصوفية أكثر مما تدين للقواعد الدينية أو للحضارة الأوربية ، وسنعرف فى الفصل الختامى كيف اتسعت فرجة الخلاف بين قواعد الدين وتعاليم الصوفية فى ذلك العصر ،

وكيف غلبت هذه التعاليم مبادىء الدين الحنيف . فأما عن الحضاره الغربيـة فقد أقبلت الى مصر فى ركاب نابليون الذى أجهز على العصر العثمانى عام ١٨٩٨ م ، واشتد بأسها فى عهد محمد على واسماعيل ، و بدأ تأثيرها غلابا فى المـدن فى عهدنا الحاضر ، ولـكن نفوذها لا يزال كسيحا فى الريف ، وهو يمثل أغلبية الشعب المصرى ، بل إن آثار هذه الحضارة فى أهل المدن ، لا تزال — فى الأغلب والأعم — بجرد مظاهر ، تخفى وراءها تقاليد قديمة العهد ، بينها وبين تعاليم صوفية العصر العثمانى صلات رحم وقربى .

الاسكندرية فى { شعبان ١٣٦٥ هـ / يوليـه ١٩٤٦ م }

توفيق الطويل

مقدمة تاريخية عن :

العصر العثمانى فى مصر

٩٢٣ — ١٢١٢ هـ = ١٥١٧ — ١٧٩٨ م

عصر السلاطين — تطلع العثمانيين لامتلاك مصر — مصر فى عهدهم — حالتها السياسية — حالتها الاقتصادية — حالتها الاجتماعية — حالتها العلمية — تطور أحوالها فى القرن الثامن عشر (فى السياسة والعلم) :

عصر السلاطين : ١٢٥٠ — ١٥١٧م ٦٤٨ — ٩٢٣ هـ

حطم التتار مدنية المشارقة فى بغداد ، واستولوا على حاضرة الإسلام سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة ، وأزعجوا المسلمين فى شتى بقاع العالم الإسلامى بما ارتكبوا من فظائع وما أذاعوا فى الناس من أهوال — أعملوا السيف فى رقاب الناس أينما نزلوا ، وألقوا فى نهر الدجلة بآثار العلماء من كتب ومصنفات ، وجدّوا فى القضاء على مظاهر الحضارة فى دول الإسلام — وكان حكم مصر يومئذ فى يد طائفة من مهرة الفرسان المدربين على فنون القتال منذ أواسط القرن الثالث عشر للميلاد ، هم « سلاطين المماليك » ، وقد عاشوا فى رخاء هيأته لهم أرباحهم من التجارة والزراعة والصناعة ، وكانت الحروب التى أثاروها بما أثر عنهم من شهامة وشجاعة ، تشغل بالهم وتملأ حياتهم وتسلم بعضهم إلى أعلى مراتب الحكم ، ولكنها كانت لا تشغلهم عن رعاية العلم والعناية بأهله ، فلاذ بمصر العلماء فى مختلف دول الإسلام فارين من وجه التتار ، ووجدوا فى رحابها خير ملاذ يقيهم أحداث الزمان ، ويمدهم بعطايا السلاطين وصلات الحكام ، ويحوطهم بمظاهر التقدير والاحترام ، وأضحت مصر فى هذا العهد مقر خلافة الإسلام وعاصمة ملكه ، ومركز

مدنيته وأبعد دولة شهرة وعظمة ، وقد اتجه إليها العالم الإسلامى منذ ردت عن الإسلام غارات التتار وحملات الصليبيين .

تطلع العثمانيين لامتلاك مصر :

واستحوذت مصر على هذه المكانة الملحوظة بين دول الإسلام طوال عصر السلاطين على وجه التقريب ، ولكن حكمهم قد شاخ فى أواخر عهدهم ، وبدأ الفساد يتمشى فى أوصاله منذ أواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، فى وقت قامت فيه دولة بنى عثمان فتية تنساب فى كيانها حيوية الشباب وقوته ، وقد تهيأ لأهلها فتح آسيا الصغرى وتوطيد سلطانهم فى رحابها ، وغزو أملاك الدولة الرومانية الشرقية من الغرب ، والاستيلاء على أمارات السلاجقة من الشرق ، وجعل القسطنطينية عاصمة ملكهم سنة ١٤٥٣ م ، فكان طبيعياً بعد هذا أن يتطلع العثمانيون إلى زعامة العالم الإسلامى بالاستيلاء على مصر ، وإخضاع أهلها وأملاكها لسلطانهم ، ونقل الخلافة الإسلامية إلى حاضرة ملكهم . . . وكان لهم ما أرادوا ، فتمكن سلطانهم « سليم الأول » من قهر المماليك بعد أن عجز عن ذلك أسلافه ، ودخول مصر بعد موقعة الريدانية ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) ، وقد أقام بها نحو ثمانية شهور عاد بعدها إلى الآستانة وفى ركابة « خليفة المسلمين » . . ! وأضحت مصر بعد ذلك إيالة تابعة للدولة العثمانية ، بعد أن فقدت فى هذا النضال استقلالها ، وخسرت زعامة الإسلام ، وزايلتها خلافة المسلمين وتلاشت شهرتها فى شتى الدول . واستمر الحكم للعثمانيين فى مصر حتى أقبلت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بعد نحو ثلاثة قرون من الزمان (١٧٩٨ م — ١٢١٢ هـ) ، وهذا البحث ينصب على دراسة التصوف أثناء هذا العصر ، ولهذا رأينا أن نمهد لهذه الدراسة بشرح بعض مظاهر الحياة فى مصر إبانه ، عسى أن يساعد هذا على فهم الجو الذى اتفق وجود التصوف فيه ، والتعرف إلى نوع التفاعل الذى قام بينهما ، وحسبنا من هذه المظاهر أربعة :

أولها — أحوال مصر السياسية :

كان فى مصر ثلاث قوى يراقب بعضها بعضاً ، ولكل منها حق الاتصال المباشر بالسلطان ، فأدى هذا النظام المفكك إلى قيام نزاع دائم بينها طوال هذا العصر ، فكان الوالى يحكم مصر باسم السلطان وليس له من رأى فى حكمه، إلا مايمليه عليـه سيده المقيم فى الآستانة ، ومراقبة تنفيذ ما يوحى إليه من أوامر . . ! وكان يعين بعقد يمتد عاماً قابلا للتجديد ، وإلى جانب الوالى تقوم سلطة الجنود ، وكانوا سبع فرق وُكل إليها حفظ الأمن العام . ومن ضباطها يتألف الديوان ووظيفته مراقبـة الوالى فى شتى تصرفاته . . ! ويمثل السلطة الثالثـة المماليك الذين قدموا للسلطان التركى طاعتهم وأعلنوا له ولاءهم ، إذ عينهم السلطان حكاماً إداريين للمديريات لحفظ التوازن بين السلطتين السالفتين[1] . . !

بهذا النظام المفكك كانت تحكم مصر ، وهو يشبه — فى كثير من الوجوه — نظام الحكم فى غير مصر من دول الإسلام إبان هذا العصر وهكذا بقيت مصر من غير حاكم قوى تتجمع السلطة فى يده ، وتخشاه سائر القوى المتنازعة ، فكان للمماليك أطماع أدت إلى وجود النزاع بينهم ، وقام بين الفرق بعضها مع البعض نزاع كان يبدو فى بعض الأحيان فى صورة حرب داخلية تستمر شهوراً ، وربما استعانت كل فرقة مقاتلة بطائفة من المماليك — كما كان الحال فى الحرب التى قامت بين فرقتى العزب والانـكشارية ، أو بين فرقتى القاسمية والغفارية ودامت ثمانين يوماً كما يروى الجبرتى ، والوالى من وراء هذا النزاع — الذى كاد يشغل العصر كله — يراقب حركات العـداء ويشرف عليهـا ، ويرفع إلى السلطان التركى أمرها ، ولـكنه لايملك القضاء عليها ، لأن القوة تعوزه والسلطان ينقصه ، ولا شك أن هذا الاضطراب كان ذا أثر فى حياة الشعب المصرى من نواح كثيرة .

(١) الرافعى : الحركة القومية جـ ١ ص ١٧

وثانيها — الحالة الاقتصادية :

أدركت الفاقة مصر فى هذا العصر — كان المصريون فى عهد السلاطين المماليك يعيشون فى فيض من الرخاء ، ولكن أحداثاً جدّت فغيرت من حالهم وبدلت من رخائهم وسلطت عليهم الضيق وأغرت بهم العوز ، كان البحر الأبيض هو الطريق الوحيد بين الهند وأوربا طوال عصر السلاطين ، فكانت التجارة الهندية ، تمر بأملاكهم (مصر والشام) فيفرضون عليها باهظ المكوس ، حتى كانت الضرائب لا تقل فى عرف جمهرة المؤرخين عن سدس الثمن الأصلى للبضائع كما يقول الأستاذ «كرون» . . ! وغاظ أوربا هذا الربح الذى كان يستحوذ عليه المصريون والبنادقة ، وساءها غلاء أسعار الحاجيات بعد نقلها وسداد مكوسها ، فأرادت الاهتداء إلى طريق أخرى توصل للهند ، وتكون أقل نفقات وأقصر مسافة وأخف متاعب ومشقات ، وقد تحقق هذا الأمل بعد بعثات كثيرة لافت الإخفاق حيناً وصادفت النجح حيناً ، فوصل أخيراً « فاسكو دى جاما » إلى رأس الزوابع — الذى سماه على سبيل التفاؤل « رأس الرجاء الحسن » — سنة ١٤٩٦ م فتحولت التجارة الهندية إلى هذه الطريق ، ووفرت أوربا على نفسها ثلث النفقات التى كانت تخسرها من قبل ، فوق ما ربحته من راحة ووقت — واستولى العثمانيون على مصر بعد هذا الحادث الجلل ببضع سنوات ، وكثر التلصص بعد ذلك فى البحر الأبيض ، فضعفت الحركة التجارية من ناحية ، وخسرت مصر به مورداً فياضاً بالمال .

هذا ما أصاب مصر فى تجارتها إبان هذا العصر ، فأما الصناعة فحسبنا أن نعلم أن السلطان التركى قد عاد بعد فتح مصر إلى الآستانة وفى صحبته نحو ألف وثمانمائة من البنائين والمهندسين والنجارين والحدادين والحجارين والمرخمين والمبلطين والخراطين[1] . . . هذا فوق ما غنمه من أموال البلد حتى

(١) ابن إياس جـ ٣ ص ١٤٩ وروى فى ص ١٢٢ أن عددهم ألف .

بلغ مانهبه فيما أشيع ألف جمل محمل بالذهب والفضة ، عدا ما حمله معه من تحف وأسلحة وأوان صينية ونحاسية ودواب من خيل وبغال . . . وذلك كله خلا ماغنمه وزراؤه وجنوده . . . حتى بطلت فى مصر خمسون صناعة وتعطل منها أصحابها كما يقول ابن إياس[١] .

وأما من حيث الزراعة فقد أهمل عصرهم الأرض وإقامة الجسور وحفر الترع والخلجان وتطهير الجداول ، ولم يكن من عمل الحكومات فى هذا العصر أن تهتم بالشعب وتعمل على توفير أسباب الرخاء له بإصلاح مرافق الحياة عنده[٢] . وكان نظام الملكية العقارية غير قائم بالمعنى الصحيح ، فان أراضى الفلاح كانت عرضة للانتزاع منه إذا عجز عن سداد مايفرضه عليه الملتزمون من ضرائب ، كان بعضها يفرض حسب أهواء الملتزمين[٣] . . !

قلت موارد المال وكثرت وجوه الإنفاق فى هذا العصر — كان سلاطين المماليك ينفقون كل ما يصل إلى أيديهم من أموال الشعب داخل البلاد ، يقيمون المبانى الشاهقة والآثار النفيسة التى لاتزال إلى اليوم قائمة تشهد بمهارتهم فى فن المعمار ، وينفقون كثيراً فى حياتهم المترفة التى حفلت بوصفها كتب الرحلات التى كتبها الأجانب فى هذا العصر ، وكانوا يعطفون على الشعب فيتصدقون على فقرائه ، ويجرون الأرزاق على طلبة العلم من أبنائه ، ويجزلون العطاء للعلماء من شيوخه ، فانتفعت البلاد بما قدمته لهم من ضرائب ومكوس ، أما فى العصر العثمانى فان موارد المال فيه قد قلت ، ووجوه الإنفاق قد كثرت ! كان السلطان التركى فى القسطنطينية ينتظر الخراج فى كل عام ، وكان الوالى والفرق العسكرية التى صاحبت الفتح التركى فى حاجة

---

(١) المصدر السالف ج ٣ ص ١٣٣ ، وأبو السرور البكرى فى النزهة الذكية فى ولاة مصر والقاهرة ص ٤١ (مخطوط) .

(٢) شفيق غربال : الجنرال يعقوب ص ٩٤ والرافعى ج ١ ص ٣٢ .

(٣) الرافعى ج ١ ص ٣٠ ، ٣١ .

إلى نفقة كبيرة لم تقم بها مصر فيما سلف من عصور[1]

وقد كثرت فى هذا العصر مناسر اللصوص وعظم نفوذ الأولياء وأرباب الطريق ، وكان على الشعب أن يكلفهم ويقوم بحاجاتهم وينظم لهم الموالد والولائم على نحو ماسنعرف بعد ، وفشت الأوبئة فى هذا العهد الذى كانت فيه مصر لاتعرف الاهتمام بصحة الأفراد ، أو العمل على وقايتهم من الأمراض . . !

تضافرت العوامل كلها على إيجاد حالة من العوز والفاقة كان لها بالغ الأثر فى نفوس المصريين .

وثالثها — الحالة الاجتماعية :

كانت الحياة الاجتماعية صدى للفاقة التى نزلت بالشعب ، والجهل الذى أدركه وعشش فى رأسه ، والاضطراب الذى لازمه من جراء النظام السياسى السالف الذكر ، فان فرق الجنود التى وكلت إليها حراسة البلد وصيانة الحريات والحرمات ، كانت شر ما لقيت مصر فى هـــذا العهد من ضروب العدوان والطغيان ، وقد بلغ من بغى الجنود فى عهد الضعاف من الولاة — وما كان أكثرهم — أن كانوا يخطفون النساء والغلمان من الشوارع ليلا ونهارا ، ويفسقون بهم على قارعات الطرق ..! وكانوا يشاطرون التجار وأصحاب الحرف مكاسبهم ...![2] وكان الفلاح معرضا لظلم جباة الضرائب

---

(١) كان الوالى يبتاع ولايته بثمن يتراوح بين أربعمائة ألف وخمسمائة ألف ريال ، ولا يوفق إلى تجديد مدة ولايته سنة أخرى إلا إذا أرسل للآستانة هدايا تزيد على مائة ألف ريال ، وكان عليه أن يرسل إليها الخراج السنوى وقدره ستمائة ألف ريال ، وأن يبعث بهدايا أخرى من السكر والبن والأرز والشراب والحلوى والغلال لاتقل قيمتها عن ٦٠٠٠٠٠ ريال ، وذلك عدا نفقات الحج والجنود فى مصر فيما يقول الرافعى ج ١ ص ٢٣ — ٢٤ — وإن تغير هذا النظام أواخر هذا العصر . وكان الوالى وحكام المديريات من أمراء المماليك يجمعون لأنفسهم فى فترات الظلم أموالا لايقرها عدل ولا يقول بها عقل — كما روى الجبرتى وابن إياس وغيرهما من مؤرخى العصر .

(٢) الجبرتى ج ٢ ص ١٢٤

وتعذبهم إن قصر فى إرضائهم ، والولاة وإن توفرت فى الكثيرين منهم « نية الخير » فقد كانوا لا يقوون على تحقيقها وإقرار الحق ونشر العدالة بين الناس ، إذ كان الوالى مسلوب السلطة على الجنود [1] ، فكان يردّ الظلم عن الشاكين ، بأن يطلب إليهم البعد عن الباغين والاختفاء عن أنظار المعتدين حتى لا يتعرضوا لما ينزلون بهم من ظلم وبغي وعدوان ...!

فساعد هذا القلق ما كان شائعا بين الناس من جهل وضنك وضيق ، وأدى بهم إلى الإيمان الساذج بالله وأهله ، وتشبث الجمهور برسوم الدين وطقوسه ، وأهملوا قواعده ولبابه ، وحملهم الضيق الذى أحرج صدورهم على التهاون فى انتشار الحشيش والخمر والبوزة بينهم ، وشيوع الشذوذ الجنسى والسعى وراء الزنا بالنساء والفسق بالغلمان على نحو ما سنعرف بعد .

ولقد عاقت الوحدة الدينية وجود رابطة وطنية تربط الناس وترسم لهم أملا قوميا واحدا ، إذ جرى العرف من قديم الزمان على أن يتولى حكم مصر وردّ الغارات عنها وحفظ الأمن فيها ، فئة من مهرة الفرسان ليس فيهم مصرى واحد ، وقامت إلى هذه الطبقة العسكرية طبقة الشعب الذى انصرف إلى العمل فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة على قدر ما تسمح ظروفه ، وسنعرف فيما يلى من فصول هذا الكتاب أثر هذا الجو الاجتماعى فى التصوف الذى خصصنا هذه الرسالة لدراسته .

ورابعها — الحالة العلمية :

ولا بأس من أن نسهب فى بيانها بعض الإسهاب ، لأنها أوثق مظاهر الحياة اتصالا بالتصوف :

اعتزلت مصر العالم الأوربى بعد كشف رأس الرجاء الحسن ، وكانت أوربا قد استيقظت من سباتها على نهضة أخذت تدب فى كيانها ، وتتناول شتى مرافق الحياة عند أهلها ، فحرمت مصر من الاتصال بهذه النهضة وتتبع

---

(١) فى ابن إياس ج ٣ ص ٨٥ وغيرها أمثلة تؤيد ذلك .

حركاتها والإفادة من ثمراتها طوال العصر العثمانى — الذى استغرق نحو قرون ثلاثة ، وكان للمصريين الذين عاشوا فى العصر الوسيط كله — لا العثمانى وحده — فهم للحياة العلمية يخالف فهمنا ، فكان المثل الأعلى للعلم فى عرفهم قائما على الدين ومايعين على فهمه من دراسات . فاتجهت إلى علوم الدين عنايتهم ، وكادوا يهملون ماعداها من ضروب العلم وألوانه — وقد بلغ من إهمالهم لدراسة العلوم العقلية أن كان يجهلها صدور العلماء فى الأزهر — أكبر معهد فى مصر يومذاك — لما جاء إلى مصر الوالى أحمد باشا خف لاستقباله أظهر العلماء فى ذلك الوقت ، وهم الشبراوى شيخ الجامع الأزهر ، وسالم النفراوى ، وسليمان المنصورى ، فدارت بينهم مناقشات علمية (أى دينية) عقب عليها الوالى بالكلام فى العلوم الرياضية ، فأحجم العلماء عن التباحث فيها معلنين جهلهم بها ، فعجب الوالى لذلك كثيرا ، ثم قال للشبراوى بعد ذلك : إن الشائع فى بلادنا أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وقد شاقنى المجىء إليها فلما جئت وجدتها كما قيل « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . » فقال الشبراوى : هى يامولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف . فقال له : أين هى وأنتم تجهلون العلوم الرياضية مع أنكم أعظم علمائها ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ، وقد نبذتم المقاصد وجهلتموها — فقال الشبراوى : لسنا أعظم علمائها بل نحن المتصدرون لخدمة أهلها وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة وأهل الحكم فيها ، وغالب أهل الأزهر لايشتغلون بشىء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث ، أماغير ذلك فمعرفته من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، ثم إن دراسة هذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات . . . وغالب أهل الأزهر فقراء ، ويعوزهم الاستعداد لدراسة هذه العلوم ، ثم أشار على الوالى بأن يتصل بعالم فذ فى معرفته بالرياضيات هو حسن الجبرتى — والد عبد الرحمن المؤرخ المعروف — فاتصل به وأخذ يستقى عنه علومها

أهملوا دراسة العلوم الرياضية وكانت فى عرفهم تشمل الهندسة والحساب والهيئة والرسم واعتبروا الفلك والميقات والزايرجة والأوفاق وما إليها من العلوم الغريبة والخارجة وكانت لاتحتل المكان الأول من اهتمامهم ، وجهلوا التفرقة بين العلوم والفنون ، بل كان العلم فى عرفهم معناه المعرفة — وبهذا ورد معناه فى القرآن الكريم ، وكانت العلوم الشائعة عندهم صنفين : العلوم النقلية ويراد بها الفقه والحديث والتفسير ونحوه ، والعلوم العقلية وهى ما نريد به العلوم اللسانية فى وقتنا الحاضر ، ويراد بها النحو [١] والبيان واللغة ... وكانت تحتل المكان الثانى من عنايتهم ، وكانت دراساتهم فى الجملة تعوزها العناية بالمعنى ويشغلها الاهتمام بالألفاظ ، وكان تأليفهم يدور حول شرح المتون والتعليق على الشروح مما يجوز لنا أن نسمى عصرهم « عصر الشروح والحواشى » [٢] .

وشاع الجهل بين الناس واستفحل أمره فى الريف والحضر ، وعششت السذاجة فى رؤوسهم وبدت فى ضعف التعليل الذى نراه فى شتى مؤلفات الأدباء ، ونصادفه عند الناس كلما عرضوا لتعليل ظاهرة من ظواهر الحياة ، فاذا أصاب البلد قحط رأينا جهود الساعين لرفعه ، تقنع بالاتجاه إلى التماس زواله عند الله بالأدعية والأوراد والصلوات ، وقد يقنع الحاكم بأن يطلب الى العلماء والناس أن يسارعوا إلى أداء هذا الواجب إن توانوا فيه ، ويلتمس ممن يرجو فيه الصلاح والخير أن يكون هو الداعى والناس من ورائه يستجيبون [٣] . وإذا نزل بالبلد عدو يريد احتلاله ، بادر العلماء وأرباب الطريق إلى المساجد والزوايا وأخذوا فى تلاوة الأوراد والأدعية حتى تزايلهم هذه الشدة ، وقد فعلوا ذلك يوم زحفت عليهم الحملة الفرنسية التى

(١) استخلصنا ما أسلفناه فى الحياة العلمية عن مصادر هذا العصر ولا سيما : الجبرتى ج ١ ص ٣٧ ، ١٩٣ — ١٩٤ و١٧ و٧٦ و ج ٢ ص ١٧ و٥٧ و٧٥ و١٠٠ وغيرها .

(٢) جرجى زيدان : آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٣) الشعرانى : لطائف المنن ج ١ ص ١٠٦ ، الجبرتى ج ١ ص ٣٠ .

قضت على العصر العثمانى فى مصر . !(١) بل كان السلطان فى تركيا إذا اشتدت حروب أعدائه له ، لاذ بعلماء مصر وأجزل لهم العطاء ، والتمس إليهم أن يقرءوا له البخارى بين الحين والحين حتى ينصره الله على أعدائه (٢) كان يحملهم على هذا إغفالهم لسنن الكون ونواميس الطبيعة ، وإيمانهم بأن الله هو العلة « المباشرة » لكل ظاهر الحياة ، فاذا اتجهوا اليه بالدعاء رفع عنهم ما نزل بهم من شر وما أصابهم من ضيق ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ...! وهذا العجز عن تعليل الظواهر هو الذى ساق الناس إلى التسليم بدعاوى الدجالين وحيل المشعوذين من أدعياء التصوف وأهل التنجيم(٣) .

أما معاهد العلم فى هذا العصر فقد كان أكبرها خطرا :

الأزهر : وقد كان طلابه من رواد الكتاتيب التى تشبه مدارس التعليم الأولى فى وقتنا الحاضر، وكان الطالب يصطفى لنفسه بين أعمدة الأزهر من شاء من شيوخه متدرجا من السهل إلى الصعب ، حتى تغزر مادته ويأنس فى نفسه الكفاية للتدريس ، فيحلق حلقة ويمضى فى تعليم الطلاب ، ونجاحه فى ذلك رهن كفاءته ، إن أحسن فى درسه سكت عنه الشيوخ(٤) ورضى به الطلاب(٥) فواصل عمله ، وإن أخفق انفض أتباعه من حوله ، وكان الإخفاق مصيره(٦) . والكثيرون من خريجى الأزهر أو ممن قضوا بين جدرانه شطرا من حياتهم ، ينطلقون إلى الأقاليم والقرى ويقيمون الكتاتيب السالفة الذكر ويتولون إرشاد الناس وهدايتهم إلى سبيل الرشاد فى المساجد وزوايا أهل الطريق ، وكان الناس يقبلون على هذه المجالس للتفقه فى شئون دينهم .

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٦

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٣٧٢ ، ج ٢ ص ١٧١ و ١٩٠

(٣) أنظر فى الجبرتى ج ١ ص ٣١٨ و٣٣٧ — ٣٣٨ و٣٨٤ أمثلة لذلك .

(٤) رفاعة الطهطاوى : خلاصة الأثر ج ٢ ص ٤١٢ فى موقف العلماء من المناوى ، والجبرتى ج ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ فى موقفهم من البيومى .

(٥) الجبرتى ج ٢ ص ٤

(٦) فى الجبرتى ج ١ ص ٢٥٧ ، ج ٢ ص ١٠٦ مايشهد بما نقول .

وقد عالج بعضهم الوعظ بنوع من القصص الديني يجمع بين دراسة الدين وفهم المثل العليا فى الحياة الدنيا [١] وكانت هذه المجالس تتجاوز المساجد والزوايا وتقام أحياناً فى البيوت والدور ويتهافت عليها الناس وينصت اليها النساء من وراء ستار [٢] .

وكانت مجالس الأدب والعلم تقام أحياناً فى منازل العلماء والخطاطين والأدباء، ويشد أزرها الحكام ، وأظهرها مجالس رضوان بك والزبيدى والجبرتى الكبير [٣] .

كما تخصص لدراسة العلوم الغريبة — من هيئة وفلك وميقات وزايرجه وأوفاق — نفر من علماء الأزهر ، واهتم غيرهم بدراسة العلوم الرياضية ، وكان هذا النوع من العلماء موصول الأسباب بالحياة العملية فيما لا علاقة له بالنهيؤ للآخرة ، ويشهد بذلك موقف الشيخ حسن الجبرتى من اختلال الموازين واختلاف المقادير فى عهده عام ١١٧٢ [٤] .

وقد شاع فى الريف — على الأخص — نوع من الأدب الشعبى تمثله لنا قصص أبى زيد الهلال وسيف بن ذى يزن وعنترة وألف ليلة ونحوها ، وقد شجعت على انتشاره ما أسلفناه من ظروف سياسية وأحوال اقتصادية واجتماعية .

وقد نهضت زوايا الصوفية بنشر العلوم الدينية ، وإن انصرف اهتمام أهلها إلى مزاولة الشعائر الدينية وممارسة الحياة الصوفية — صادقين كانوا أو كاذبين .

---

(١) محمد فريد أبو حديد : سيرة السيد عمر مكرم ص ٢٣ — ٢٤ .
(٢) الجبرتى ج ٢ ص ٢١٢ .
(٣) صورها عن الجبرتى الأستاذ محمد فريد أبو حديد فى صورة طريفة نشرت بالرسالة فى عدديها (٨٣ ، ٨٤ الصادرين فى ٤ ، ١١ فبراير سنة ١٩٣٥) وانظر الجبرتى ج ٢ ص ٢١٢ وفى غيرها من صفحات .
(٤) الجبرتى ج ١ ص ٤٠٣ .

وينبغى أن نشير الآن إلى أن أهل العلم وحواريه كانوا حريصين على حيازة المكاتب وجمع الكتب النادر منها والمتداول ، يبتاعونها من سوق الكتبيين حيناً ومن الأفراد والبلاد النائية حينا آخر ، وغلب عليهم الميل إلى التهاون فى إعارتها وعدم التشديد فى استعادتها ، رغبة منهم فى نشر ما تنطوى عليه من ألوان العلم وضروبه ، فقامت مكاتبهم مقام دور الكتب العامة فى عصرنا الراهن [١].

على أن هذا كله كان ضعيف الأثر فى تبديد الظلام الذى استوعب هذا العصر واحتوى أهله ، ومؤرخو الأدب المصرى يقررون — والأسى ملء قلوبهم — أن الفتح التركى كان ويلا على العلم وأهله ، لأن المغول حين اكتسحوا فارس وخراسان والعراق وحطموا بغداد وعفوا على مدنية الإسلام ، انتقلت مراكز العلم من بغداد وبخارا ونيسابور وقرطبة وغيرها من مدائن العلم فى العصر العباسى ، إلى القاهرة والإسكندرية والفيوم وحلب وغيرها من مدائن مصر والشام [٢] . وكان السلاطين الذين يملكون هذين القطرين يجرون على العلماء الأرزاق ويجزلون لهم العطاء ، فنشأت فى مصر نهضة علمية ظهرت ثمارها فى أواخر عصر السلاطين ، ونشأ فيها منذ القرن السابع للهجرة ميل نحو « التعليم العام » فنرى لأول مرة فى التاريخ الإسلامى مؤلفا « كالنويرى » سنة ١٣٣٢ يحاول أن يشرح شتى المعارف التى عرفت فى عصره من أدبية وعلمية وتاريخية وجغرافية فى موسوعة ذات عشرين (أو ثلاثين) مجلدا ، وأخذ هذا الميل يتقدم فى مصر — لا فى المعارف العامة وحدها — بل اتجه نحو التخصص فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة ، فنرى نوعا من دائرة معارف جغرافية فى كتاب ذى اثنين وثلاثين مجلدا يضعه العمرى (١٣٠١ — ١٣٤٨) فى الجغرافيا العامة ، ونرى مؤلفا آخر وضعه القلقشندى عن الأنظمة المختلفة

---

(١) فى الجبرتى ج ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ (مكتبة العرابى) ، ص ٤٠١ مكتبة الجبرتى الكبير .

(٢) جورجى زيدان ج ٣ ص ١١٢

فى العالم الإسلامى يقع فى ثلاثة عشر (١٤) مجلدا ، ونرى مايشبه هذا فى غير هذين الكتابين [١]

فلما استولى الأتراك على مصر جعلوها إيالة عثمانية ، وفرضوا على أهلها أن تكون التركية لغة المخاطبات والمحادثات الرسمية ، وقلت عنايتهم بالعلماء ، وساعد الجو السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى عصرهم على وقف هذا التيار العلمى السائر نحو النضج والكمال ، ولولا الأتراك لكان الذهن المصرى متمشيا من تلقاء نفسه مع الأذهان الأوربية فى العصور الحديثة . ا ولاستطاع أن ينال بل أن يقوم بنصيبه من الرقى العام للحضارة [٢]

وقد استحالت هذه الموسوعات فى العصر العثمانى إلى حواش وتعليقات وشروح . ا والرأى عندنا أن العثمانيين قد أوقفوا الحركة العلمية فى مصر نحو قرنين من الزمان ، فان الفترة الأخيرة من عهدهم – فيما يلوح لى – قد دب فيها نوع من التطور شمل أكثر مرافق الحياة عند أهلها ، وإن قال المؤرخ الثقة : الأستاذ غربال ، أما مماليك مصر فكانوا فى عام ١٧٩٨ م كما كانوا فى عام ١٢٥٠ فى الحرب والتفكير ، أو كانو على حال أسوأ بفقدان استقلال دولتهم ، وما كانوا يجبونه من مكوس مفروضة على تجارة الشرق المارة فى أرضهم ، كذلك أهل مصر لم يصلهم عن انقلابات الغرب إلا أضعف الأنباء ، وظلوا فى كل مقومات الحياة الوطنية حيث كان آباؤهم [٣] . ولا بأس من أن نحاول الآن تأييد ما نزعمه :

التطور فى السياسة : أصاب الضعف تركيا فى القرن الثامن عشر ، وتوالت عليها انتصارات النمسا ثم الروسيا فى ساحة الوغى ، واختلت شئون الدولة الداخلية وفسد نظام الحكم وساء حال الجيش وكثر تغيير الولاة على مصر ، واندمجت الفرق العسكرية فى الشعب وأصبحت الأملاك يتولى أمرها المماليك ،

(١) طه حسين : ابن خلدون ص ٥٧
(٢) المصدر السالف ص ١٦٤ — ١٦٥
(٣) شفيق غربال : الجنرال يعقوب ص ٥

فأضحى الجنود أتباعا لهؤلاء الأمراء الذين كانوا جادين فى تقوية أنفسهم بابتياع المماليك والإكثار من الأتباع ، وقد حاولوا أن يوحدوا كلمتهم باختيار زعيم لهم جعلوه « شيخا للبلد » نافذ الرأى فى كل شئونها ، حتى أصبح الوالى الذى ترسله تركيا سجينا فى القلعة لا يملك الخروج منها إلا باذنه . . ! ولو امتاز واحد من هؤلاء الأمراء بالنسب فوق ما تهيأ له من شجاعة وفروسية ، لاستكان له زملاؤه وساروا فى ركابه ، وعاونوه فى الاستقلال بمصر وطرد الأتراك من أرضها ، ولعل هذا هو السبب الذى أدى إلى فشل الدعوة للاستقلال الذى حققه على بك الكبير سنة ١٧٦٩ فترة من الزمان .

وكما تهيأ لأمراء المماليك هذا النفوذ تهيأ للشعب نوع من النضج بدا واضحا فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر[١] فقد سمعنا فى هذه الفترة سلسلة من الحوادث تقوم على دفع الظلم ومقاومة أهله ، ورأينا اهتمام الحكام بالرأى العام وزعامته ، وعرفنا موقف العلماء فى فتنة الأزهر وفى فتنة الوقف[٢] ورأينا العالم الذى يقول للحاكم فى وجهه : لعنك الله ولعن اليسرجى ، الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً . . ! والعالم الذى يقول للعامة وهم يستنصرونه لدفع الظلم الذى يوقعه الحكام بهم : « فى غد نجمع أهالى الحارات والأطراف وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم وننهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم »[٣] وغير هذه الحوادث كثير لم نكن نسمع به فى القرنين الأولين من العصر العثمانى .

وقد شبه بعض المؤرخين نفوذ العلماء فى هذه الفترة بنفوذ البابوات فى

---

(١) رأى الأستاذ المؤرخ محمد فريد أبو حديد أن هذا النضج السياسى قد ظهرت بوادره فى مستهل القرن الثامن عشر وكان أول دليل عليه عام ١٧٠٢ م (ص ٢٢ من سيرة السيد عمر مكرم) وقد ناقشت رأيه على صفحات مجلة الرسالة فى العدد ٢١٧ الصادر فى ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٧) .

(٢) الجبرتى ج ٢ ص ٥٦ و١١٨ .

(٣) المصدر السالف ص ١٩ و ١١٠ .

أوربا إبان العصر الوسيط ، وهو تشبيه مقبول من حيث السلطان الذى توافر لهم عند حكام البلاد ، ولكنه يبدو على خطأ من حيث صلتهم بالشعب من بعض النواحى ، فان اليقظة كانت قد دبت فى نفوس الناس حتى كانوا إذا ناروا تحركوا للثورة من غير قائد يتولى زعامتهم ، ثم يطالبون زعماءهم من العلماء بقيادتهم ، فإن قصروا نالهم من الشعب الأذى ، وما كان لأوربا فى العصر الوسيط مثل هذا الرأى العام الذى ظهر فى مصر قبل القرن التاسع عشر على غير ما يرى بعض المؤرخين (١)

التطور فى العلم : تطورت الحركة العلمية إلى الكمال فى أواخر العصر العثمانى ، وظهر هذا النضج فى الزبيدى الذى وضع « تاج العروس » فى عشرة أجزاء كبار ، وشرح إحياء علوم الدين للغزالى فى عشرة مجلدات كبار ، وفى الوالى راغب باشا سنة ١١٧٦ الذى وضع موسوعة فى الأدب واللغة والعلم والطبيعة والطب والحديث والرياضيات والمنطق ، سماها سفينة الراغب ودفينة الطالب (٢) والجبرتى الذى لا خلاف بين المحدثين من المؤرخين فى دقته ومهارته فى استقصاء الحوادث وقدرته على فهم الظواهر ومما جعل تاريخه عن القرن الثانى عشر للهجرة معدوم النظير فى عرفهم ، والصبان ١٢٠٦ هـ صاحب الحاشية المعروفة إلى يومنا الحاضر (٣) وظهرت مجالس الأدب والعلم عند الزبيدى والجبرتى ورضوان بك ، وغير هؤلاء من كبار العلماء والذين كانت حلقات دروسهم تزدحم حتى تبلغ المئات عداً ، فالحفناوى سنة ١١٨١ بلغ عدد الحاضرين فى حلقته نحو الخمسمائة مستمع ، وكان يوجد فى حلقة محمد بن ابراهيم العوفى ١١٩١ أكثر من ثلاثمائة طالب رغم أنه كان ماجناخليعا (٤) — والأمثلة على ذلك كثيرة .

---

(١) كجورجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٧٦

(٢) طبع بمصر سنة ١٢٥٥ كما يقول جرجى زيدان فى المصدر السالف ج ٤ ص ٣٢٦ .

(٣) الجبرتى ج ٢ ص ٢٤١

(٤) الجبرتى ج ٢ ص ١٦

وقد كان طبيعيا أن يؤدى هذا التطور الذى أشرنا إلى ناحيتين من نواحيه ، إلى تغيير علاقات مصر بالدولة التركية وظهور هذا التغير فى ميادين الاقتصاد والاجتماع وغيرهما من مظاهر الحياة فى مصر

وقد سار هذا التطور فى مجراه حتى أقبلت الحملة الفرنسية فوجهت مصر فى تيار جديد ، كان بداية العصر الحديث فيها ، ولا نريد أن نتعرض للحكم على مدى ما أفادته أو خسرته مصر من جراء هذا الاتجاه الجديد ، فانه لا يزال موضع جدال بين المحدثين من المؤرخين .

هـذه بعض مظاهر روح العصر العثمانى فى مصر عرضناها موجزين ، عسى أن تساعد على فهم التصوف الذى اتفق وجوده مع هـذه المظاهر ، وكان بينه وبينها نوع من التفاعل سنعرض له فى حينه ، والآن ما المراد بالتصوف فى هذا العصر ..؟ ذلك ما نعرفه فى الكتاب التالى .

الكتابُ الأوَّلُ

فى الطريق

تمهيد في صلة الكتاب الأول بما بعده

إذا كان التصوف فى أصله ظاهرة وجدانية فردية ، فقد كان تصوف العصر العثمانى ظاهرة اجتماعية تتطور مع الزمان وتتغير باختلاف المكان ، كغيرها من ظواهر الحياة الاجتماعية ، ولهذا آثرنا أن نتناول فى الكتاب الأول عرض المعالم التى ميزت هذا التصوف ، فنلم بما انتشر فى أرض مصر من زوايا أرباب الطريق ، ومعيشة الذين أقاموا فى رحابها ، وانقطعوا لعبادة الله بين جدرانها ، وحتى نعرف شيئا عن الطرق الصوفية ومميزاتها ، والسلطان الذى تهيأ لشيوخها ، والتجارب التى عاشها أتباعها . . . وغير ذلك مما تلزم معرفته فى مستهل هذا البحث ، فإذا تهيأ لنا تأريخ هذا الجانب من تصوف ذلك العصر ، عقبنا عليه — فى الكتاب الثانى — ببيان السلطان الذى تهيأ لأهله أحياء وأمواتا ، لنبين — فى الكتاب الثالث — عن أثر تعاليمهم فى توجيه الحياة المصرية فى ذلك العصر وما تلاه من عصور

ولما كان تصوف العصر العثمانى امتداداً طبيعيا للتصوف الذى شاع أواخر عصر السلاطين ، كان من الخير أن نمهد لدراسته فى العصر العثمانى بفصل نتناول فيه نشأته بمصر وتطوره إلى هذا العهد ، وتأريخ التصوف فى مصر على هذا النحو مجازفة غير مأمونة الزلل ، لأسباب أكبرها خطراً قلة المصادر التى تيسر البحث فى هذا الميدان ، بيد أن هذه المجازفة ضرورية لفهم التصوف فى العصر العثمانى على أكمل الوجوه ، فلنأخذ حيطتنا على قدر ما تسع طاقتنا ، ولنمض إلى اقتحامها مستسلمين بعد ذلك لأخطارها :

الفصل الأول

أظهر معالم التصوف فى مصر

قبل العصر العثمانى

التصوف فى مصر قبل العصر العثمانى — أنواع المعابد فى مصر — الحياة فى رحاب الخوانق والربط والزوايا فى مصر — نشأة التصوف فى مصر وتطوره حتى مطلع العصر العثمانى — بعض مظاهر نفوذهم قبيل العصر العثمانى .

التصوف قبل العصر العثمانى :

عرفت مصر الزهد والتنسك من قديم الزمان ، فشاعت فيها الدعوة إلى عبادة الآلهة والاستخفاف بمباهج الحياة والحرص على نعيم الأخرى منذ عهد الفراعنة الأقدمين ، وأكثر الصور التى خلفوها منقوشة على معابدهم وآثارهم تنطق بصدق ما نقول ، وقد كثر وجود الزهدة والعباد فى مصر حتى أقبل الإسلام على أهلها يحمل الدعوة إلى الدنيا والآخرة معا ، ولكن حديثه عن الأخرى كان مثار الافتتان عند معتنقيه ، فاستمر التيار القديم فى جريانه ، وعكف البعض على العبادة وانقطعوا إلى الله وأعرضوا عن زخرف الدنيا وزينتها ، وزهدوا فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، وانفردوا عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وقد كان هذا هو أصل التصوف — فيما يقول ابن خلدون — وقد كان هذا عاما فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى للهجرة وما بعده ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة[1] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٨ .

وقد اتجه التصوف بعد هذا إلى العناية بالأبحاث العقلية ، وأخذت تظهر عند أهله النظريات الفلسفية فى المعرفة والوجود ، فتنكر لها أهل السلف وتصدى الأشاعرة لدحضها ، وانتصر لهم الغزالى وطالب بجعل الأيمان لا التفلسف — طريقاً إلى الله ، وسرعان ما رجحت كفة العمل على كفة النظر ، وتغلب التعبد على التأمل ، وبدا الاهتمام بالسلوك وما يقتضيه من وجوه الطاعة وتربية النفس والزهد والتقشف والحرمان والزلفى إلى الله ، وكاد ينطفىء الجانب النظرى فى التصوف الإسلامى قبل مجىء العصر العثمانى بنحو ثلاثة قرون . . ! وبهذا عاد التصوف فى مرحلته الأخيرة ، إلى ما كان عليه فى مرحلته الأولى[1] ، ولسنا نريد أن نؤرخ هذا النوع من التصوف ، بل يعنينا أن نعرض لبيان ظاهرة كانت أكبر ما يميز التصوف فى العصر العثمانى ، ذلك أن المتصوفة كانوا يقيمون جماعات تحت إدارة شيوخهم ، فى معابد أطلقوا عليها اسم الزوايا ، طاعمين كاسين على نفقة المحسنين من الأثرياء والأمراء ، متجردين لعبادة الله منقطعين لذكره ، زاهدين فى طلب الدنيا ، معرضين عن لذاتها ، قانعين فى بعض الأحيان بادعاء هذا السلوك ، مهملين السعى فى طلب القوت ، محتقرين العمل على اكتساب العلم والدين — وهذا التصوف الجمعى لم ينشأ فى مصر قبل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى . وقد سجل المقريزى تاريخ نشأته بعام ٥٦٩ للهجرة[2] وذكر على باشا مبارك أنه نشأ بهذا المعنى « فى زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة تسع وخمسين وستمائة »[3] ورأى المقريزى أدنى إلى الصواب فيما نعلم ، فان صلاح الدين قد مات سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة (١١٩٣ م) . وقد عرفت مصر منذ هذا التاريخ ثلاثة أنواع من المعابد شاعت فيها أيام الأيوبيين وسلاطين المماليك ، وكانت نواة للزوايا التى حفل بها العصر العثمانى ،

(١) أنظر كتابنا : الشعرانى إمام التصوف فى عصره ص ٧ — ٨ و ١٠٧ — ١٠٨ طبعة أولى (سلسلة أعلام الإسلام)

(٢) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٣) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٩٠ .

ومعنى هذا أن التصوف الذى يبدو فى أصله ظاهرة نفسية فردية ، قد تحول فى مصر إلى ظاهرة اجتماعية ، وأصبح الصوفى الذى يعتكف فى عزلة عن الناس ، تستغرقه رياضاته ومجاهداته ، وتستوعبه مشاهداته ومكاشفاته ، ويحتويه العمل على تصفية نفسه وتجريدها من علائق الجسم ، قد تحول هذا الصوفى إلى رجل شديد الحرص على الاجتماع بمريديه وأتباعه ، والاتصال بسائر الناس — فقراء كانوا أو أغنياء ، ورعايا أو حكاما ، يتفاعل مع البيئة التى يعيش فيها ، يتأثر بها حينا ويؤثر فيها أحيانا . . كان التصوف ظاهرة فردية فتحول إلى ظاهرة اجتماعية . . فما هذه المعابد التى استقر فيها هؤلاء الشيوخ مع المريدين والأتباع . . ؟

أنواع المعابد فى مصر :

هى الخوانق والربط والزوايا — ويكاد الباحث أن يضل سبيل الاهتداء إلى وجوه التفرقة بينها . قال على مبارك : إن الخانقاه كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، وقد اندثر هذا الاسم بمرور الزمن وأطلق عليها اسم « التكية » والتكايا أماكن لإقامة الدراويش من الأعاجم[1] ، ولا يكاد يخرج هذا عما قاله المقريزى الذى يقرر أنها حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة للهجرة[2] وجعلت ليختلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى[3] .

أما الربط فهى فيما يرى المقريزى وعلى مبارك دور أعدت لإقامة الصوفية ، وخصص بعضها للنساء المنقطعات أو المهجورات أو المطلقات أو العجائز الأرامل من العابدات ، وكان لها الجرايات والمقامات المشهورة من مجالس الوعظ — وقد انقطع ذلك منذ زمان مديد[4] . وقد كان رباط البغدادية الذى

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) يروى نشأتها سنة ١٥٠ أو سنة ٢٠٠

(٣) خطط المقريزى جـ ٤ ص ٢٧١ ، قطف الأزهار ١٨٤ .

(٤) الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٨٩ . وخطط المقريزى جـ ٤ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ ، أبو السرور البكرى قطف الأزهار من الخطط والآثار (مخطوط) ١٨٤ .

كان موقوفاً على النساء الخيرات بيتاً للصوفية من النساء ، وكانت شيختهن فقيهة وافرة العلم زاهدة قانعة باليسير عابدة واعظة حريصة على النفع والتذكير ، وكان النساء المقيمات بهذا الرباط مقيمات على وظائف العبادات حريصات على التفقه فى شئون الدين[1] ولا نظن أن التصوف فى هذا العصر كان يعدو هذه المظاهر الثلاثة : الفقه والزهد والعبادة ؟

أما الزوايا فقد كانت تعد من قديم الزمان لإقامة بعض الصالحين للتعبد بين جدرانها ، ولم تكن تقام فيها الجمعة ، أول أمرها ، ثم تغير الحال وأقيمت الجمعة فى أكثرها[2] . ويشير المقريزى فى حديثه عن الزوايا إلى أنها كانت دوراً لعبادة الصالحين من الصوفية[3] وفقراء العجم[4] والخدام من الحبش والأبناء[5] وغيرهم من أهل الصلاح والورع[6] .

الحياة فى رحاب الخوانق والربط والزوايا :

ومن دلائل الصعوبة فى التفرقة بين هذه الأنواع من المعابد ، اشتراك الخوانق والربط فى سبعة أمور وعدم انفراد أحد النوعين بخاصة تميزه عن النوع الآخر ، أما وجوه الشبه بينهما فهى :

(١) أن الخوانق كالربط كانت بيوتاً يشيدها الأمراء والملوك والأثرياء ليقيم فيها أهل التصوف ليلا ونهاراً متفرغين إلى عبادة الله[7] .

(٢) أنها كانت معاهد ثقافة يدرس فيها العلم الشائع يومذاك ، فكان

---

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ .

(٣) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٤) ج ٤ ص ٣٠٠ ، ٣٠٢ .

(٥) ج ٤ ص ٣٠٠   (٦) ج ٤ ص ٣٠٣

(٧) اعتمدنا فى تصوير الحيـاة فى رحاب الخوانق والربط والزوايا فى هذه الفترة على خطط المقريزى (ج ٤) فى الصفحات الآتى بيانها مرتبة حسب ترتيب الهوامش فى صلب الكلام :

فى رباط الآثار مثلا درس لفقهاء الشافعية يتولاه مدرس بطلبة يعيشون لطلب العلم فى هذا الرباط كما ضم بين جدرانه خزانة كتب تعين على دراسة العلم[١] ، وكان فى الرباط العلائى قراء وعشرة من الفقهاء عليهم أن يحضروا يوماً فى كل أسبوع[٢] ، وقد أشرنا إلى دراسة الدين فى رباط البغدادية المعد للنساء . وأما الخوانق فحسبنا أن نسوق المثال بثلاث منها : خانقاه شيخو التى رتبت فيها مدة من الزمان دروس منها أربعة لطوائف الأئمة الأربعة ، ودرس للحديث النبوى وآخر لإقراء القرآن بالروايات السبع ، وكان لكل درس مدرس يتولاه وطلبة اشترط فيهم ألا يتغيبوا عن حضوره وحضور وظيفة التصوف ، وخانقاه الجيغا المظفرى التى اشترط فى فقرائها أن يحضروا وظيفة التصوف ، وكان بجانبها كتاب يقرأ فيه الأيتام من أطفال المسلمين كتاب الله ويتعلمون فيه الخط[٣] ، وخانقاه ركن الدين بيبرس وقد نظم فيها درس للحديث النبوى له مدرس يتولى تدريسه ، وعنده عدة من المحدثين ، وضمت قراءا يتناوبون القراءة ليلا ونهاراً حتى اكتفى أهلها بالعلم الذى توفر بين جدرانها ، فحرموا على الفقهاء أن ينزلوا ساحتها[٤] . . !

(٣) إن الجمعة كانت لاتقام فى أكثر هذه الخوانق والربط ، روى المقريزى فى حديثه عن خانقاه سعيد السعداء — وهى من أكبر الخوانق التى عرفتها مصر — أن الصوفية بها كانوا يتوجهون إلى الجامع الحاكمى كل أسبوع لصلاة الجمعة فى موكب جميل كان الناس يقبلون لرؤيته من مصر إلى القاهرة تيمناً ببركة أهله[٥] وأن خانقاه سرياقوس التى انطوت على مائة خلوة لمائة صوفى كان بجانبها مسجد تقام فيه الجمعة[٦] ، ولكن المقريزى يقول عن خانقاه البندقدارية إنها كانت خانقاه ومسجداً لله[٧] .

---

(١) ص ٢٩٦ (٢) ص ٢٩٧ (٣) ص ٢٨٣
(٤) ص ٢٧٦ — ٢٧٧ (٥) ص ٢٧٤ (٦) ص ٢٨٥
(٧) ص ٢٨٣

وكذلك الحال فى الربط ، لم يرد ذكر لإقامة الجمعة فى غير اثنين منها (مع أن عددها عند المقريزى قد بلغ السبعة عشر رباطاً) وهما رباط الست كليلة الذى كان رباطاً ومسجداً لله[١] ورباط الآفرم الذى ضم صوفية وشيخاً وإماماً ومنبراً يخطب عليه للجمعة وللعيدين[٢] .

(٤) أن منشئيها كانوا يحبسون عليها الأوقاف ويجرون على أهلها الأرزاق ويجزلون لهم العطاء ، كان لصوفية سعيد السعداء فى كل يوم طعام ولحم وخبز[٣] ، وكان فى خانقاه ركن الدين بيبرس أربعمائة صوفى وفى الرباط المجاور له مائة من الجنـــد وأبناء العجزة ، فكان فيها مطبخ يوزع منه على المجاورين اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر ، وتفرق الحلوى على كل فقير من فقرائها ، وإن كان هذا المقرر يتناسب مع حال النيل ورخاء العيش فى مصر[٤] وكان هذا هو الحال فى خانقاه بشتاك[٥] ، ورتب للطلبة فى خانقاه شيخو طعـام ولحم وخبز فى كل يوم وحلوى وزيت وصابون فى كل شهر وكان لها أوقاف جليلة[٦] ، وكان لفقراء خانقاه سرياقوص ثمن كسوة كل سنة وتوسعة فى كل رمضان والعيدين والمواسم ، فوق ما كان لهم من طعام شهى وخبز نقى ، وما كان يوزع عليهم من الحلوى وزيت الزيتون والصابون وثمن الفواكه عند ظهورها ، وفوق ما كانت تضم الخانقاه من السكر وألوان الشراب وأنواع الأدوية[٧] وهكذا نرى الأرزاق والمعاليم والأوقاف فى خوانق بكتمر[٨] وقوصون[٩] وأم أنوك[١٠] والخروبية وطيبرس[١١] .

وكذلك الحال فى الربط وإن كانت الأوقاف التى حبست عليها والمعاليم التى كانت توزع على سكانها والأرزاق التى كانت تصيب أهليها ، أقل بكثير

---

(١) ص ٢٩٤ (٢) ص ٢٩٧
(٣) ص ٢٨٣ (٤) ص ٢٧٦ — ٢٧٧ (٥) ص ٢٧٩
(٦) ص ٢٨٣ (٧) ص ٢٨٥ — ٢٨٦ (٨) ص ٢٩٧
(٩) ص ٢٨٩ (١٠) ص ٢٩٠ (١١) ص ٢٩٢

منها فى الخوانق — كما نرى فى رباط الآثار ورباط الأقرم[١] والرباط العلائى[٢] . وأكثر الربط لم يذكر شىء بشأن أرزاقه وأوقافه .

(٥) ولما كان الغرض من هذه الأرزاق والأحباس تهيئة الجو الصالح لتفرغ المجاورين لعبادة الله ، فقد زودت بعض الخوانق والربط بالحمامات والمطابخ والمدافن ، ومدت بالفرش وآلات النحاس والكتب والقناديل من النحاس المكفت أو الزجاج المذهب وغير ذلك من الأمتعة والنفائس التى لا ترى فى غير قصور الملوك والأثرياء كما نرى فى خانقاه بكتمر وطغاى النجمى والرباط العلائى[٣] وإن لم يتوفر هذا النعيم فى الكثير من الخوانق والربط .

(٦) والظاهر أن بعض الخوانق قد ضم نساء ، فقد نص المقريزى على أن خانقاه سرياقوس كان بها حمام للرجال وآخر للنساء ، وأما فى الربط فقد عرفنا أن النساء كان لهن رباط خاص بهن هو رباط البغدادية .

(٧) كان بأكثر الخوانق والربط قراء وأئمة ومؤذنون وبوابون . . . فوق من ضمت من فقراء وشيوخ[٤] .

أما الزوايا فمن الراجح أنها كانت فى عصرى الأيوبيين وسلاطين المماليك صغيرة الحجم قليلة الخطر ، يقيم فيها نفر ضئيل من العباد قد يبلغ العشرة كما نرى فى زاوية الحصى[٥] وقد تكون مكانا يتعبد فيه رجل واحد كما يتضح من كلام المقريزى عن بيبرس إذ يقول إنه بنى للشيخ خضر زاوية فى جبل المزة وأخرى بظاهر بعلبك وثالثة بحماه ورابعة بحمص وخامسة خارج القاهرة[٦] وأوضح من هذا قوله إن الأمير سيف الدين طغاى قد عمر زاوية

---

(١) ص ٢٩٥ — ٢٩٧ (٢) ص ٢٨٧

(٣) ص ٢٨٩ — ٢٩٠ و٢٩٧ و٢٨٦ .

(٤) ص ٢٧٧ ، ٢٨٢—٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ وغيرها من الصفحات .

(٥) ص ٣٠٣ (٦) ص ٢٩٨

ابراهيم الصائغ وأنزل فيها فقيراً عجمياً من فقراء الشيخ تقى الدين[1] وقوله فى زاوية أبى السعود إن الشيخ أيوب السعودى قد انقطع بها وتبرك الناس به . . . ولعل هذا الظن غير بعيد الاحتمال ، فان الزاوية كان يراد بها فى العالم الإسلامى المكان الذى يختلى فيه العابد ، قال ابن العربى : من شرط الشيخ أن تكون له زاوية تخصه لايمكن أحداً من أولاده من دخولها إلا من كان خصيصا عنده ، وزاوية تخصه ينفرد بها وزاوية لاجتماعه بأصحابه ، ومن شرطه أن يجعل لكل مريد زاوية تخصه ينفرد بها وحده ، ولا يدخل فيها أحد غيره أبداً ، وينبغى للشيخ إذا قعد المريد فى زاويته أى خلوته أن يدخلها الشيخ قبله و . . .[2] .

وقال السهروردى إن الصوفية قد آثروا الاجتماع على العزلة لقوة علمهم وصحة حالهم فرأوا الاجتماع فى بيوت الجماعة على السجادة فسجادة كل واحد زاويته[3] .

والظاهر أن الزوايا فى هذين العصرين (الأيوبيين والمماليك) كانت لاتعنى بدراسة العلم (أى الدين) ولم يقم بها نساء ولم تجر العادة بأن تقام فيها جمعة ، وقد أدت بساطتها وصغر حجمها وقلة مجاوريها إلى ضآلة الأحباس والأرزاق ، وأغناها هذا عن وجود المطابخ والطواحين والحمامات والمدافن بها كما كان الحال فى الربط والخوانق .

نشأة التصوف فى مصر وتطوره حتى مطلع العصر العثمانى :

والآن نعود إلى ما بدأنا الكلام فيه ، متى نشأ التصوف فى مصر بهذا المعنى . . ؟ ثم كيف تطور حتى صار إلى ما كان عليه أيام العثمانيين . . ؟ قال المقريزى عند الكلام على خانقاه سعيد السعداء « . . . لما استبد الناصر

---

(١) ص ٣٠٢ .

(٢) محمد السيادى : البهجة السنية فى آداب الطريقة العلية النقشبندية ص ٣٦ .

(٣) عوارف المعارف ص ٦١ (على هامش الإحياء جـ ٢) .

صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد وغير رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولة الأكراد، عمل هذه الدار (سعيد السعداء) برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم فى سنة تسع وستين وخمسمائة . . . فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر وعرفت بدويرة الصوفية . . »[1] وقد أشرنا من قبل إلى خطأ على مبارك فى تحديد هذا التاريخ .

ثم نشأت بعد ذلك خوانق وربط وزوايا أخرى عاش فى أكثرها هؤلاء المتصوفة ، وقلّ من هذه المعابد بأنواعها الثلاثة ما لم ينشأ بين النصف الثانى من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن للهجرة ، والظاهر أنها بدأت تتلاشى فى أواخر هذا القرن عندما دب الضعف فى حكم سلاطين المماليك البحرية ، خصوصاً إذا لاحظنا انحطاط النيل سنة ٧٧٦ ثم سنة ٧٩٦ ، وأثر ذلك فى بعض الخوانق كخانقاة ركن الدين بيبرس[2] ويسجل المقريزى سنة ست وثمانمائة للهجرة بداية لتاريخ المحن التى أصابت شتى مرافق الحياة فى مصر ، وهو العام الذى انتهت فيه دولة المماليك البحرية وتولت دولة المماليك الشراكسة ، فمنذ هذا التاريخ أخذ يتلاشى الكثير من الخوانق والربط والزوايا ، فمن ذلك خانقاه شيخو التى أخذت أحوالها فى التناقص بعد هذا التاريخ ، حتى صار المعلوم يتأخر صرفه لأرباب الوظائف فيها عدة أشهر[3] وكذلك نقول فى خانقاه بكتمر التى بطل الطعام والخبز فيها بعد هذا التاريخ ، وانتقل سكانها إلى القاهرة وامتد التخريب إلى حمامها وبستانها وصار يصرف لأرباب وظائفها مبلغ ضئيل من المال ، وأقام بها حارس يتولى حراستها وتمزق ما كان فيها من الفرش والكتب وضاعت آلات النحاس والقناديل ..

---

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٧٣ ، قطف الأزهار ص ٢٨٤ .

(٢) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٣) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٨٣ .

وغير ذلك مما أسلفنا الاشارة إليه[1] وذلك ما أصاب خانقاه قوصون وخانقاه سرياقوس[2] .

ونقول مثل هذا فى بعض الربط ، فرباط الآثار قد قلّ تردد الناس إليه بعد تاريخ المحن ورباط البغدادية تلاشت أموره بعد هذا التاريخ[3] ويقال مثل هذا فى زوايا الظاهرى والطراطرية والمغربل[4] .

ومما يشهد بصحة هذا الفرض الذى رجحنا وقوعه ، أن مصر لم ينشأ فيها بعد هذا التاريخ من الخوانق والربط والزوايا التى ذكرها المقريزى سوى خانقاه الخروبية التى أنشأها السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة ، وثوى فيها عشرة من الفقراء[5] ، ولهذا كله دلالته ومغزاه .

وما حانت نهاية القرن التاسع واقتربت بداية العاشر حتى كان هذا التصوف الجمعى قدشاع وانتشر ، اعتنقه العوام والدجالون واتخذوه وسيلة للعيش وأداة لتضليل الناس وخداعهم ، وكانت الأسباب التى مهدت لذلك قريبة الشبه ببعض الأسباب - التى سنبسطها فى الباب التالى لنشرح بها انتشار التصوف فى العصر العثمانى ، لأن حكم السلاطين عندما دب فيه الفساد وأدركه الاضمحلال (فى أواخر أيامه) كان قريب الشبه بحكم العثمانيين فى مصر ، والنتائج التى ترتبت على هذا الفساد فى الحالين توشك أن تكون واحدة فيما يتصل بالتصوف .

وقد استحالت الخوانق إلى تكايا يقيم فيها دراويش الأعاجم — كما أشرنا من قبل — ثم تطور الحال بالتكايا حتى أضحت أخيراً ملاجىء لإيواء المرضى ومن قعدت بهم الشيخوخة عن اكتساب القوت . . بقيت الربط والزوايا ، فأما الأولى فيظهر أنها لبثت قائمة فى مصر حتى نهاية عصر السلاطين ،

---

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٧٧ .

(٢) ص ٢٨٩ و٢٨٦ .

(٣) ص ٢٩٥ — ٢٩٦ و ٢٩٤ .

(٤) ص ٢٩٩ و٣٠١ .

(٥) ص ٢٩٢ .

فالمناوى يقول إن رباط بركات الخياط قائم فى الدرب الأحمر[١] وبركات هذا قد توفى فى العام الذى دخل فيه العثمانيون مصر (٩٢٣ هـ)[٢] ولكنا لا نعثر على اسم الروابط فى مثل هذا الوقت إلا لماماً ، مما يرجح الظن عندنا بأن اسمها قد أخذ يتلاشى فى فترة الاضمحلال التى سبقت العصر العثمانى .

أما الزوايا فلا يبعد أن يكون الكثير منها قد ظل قائماً لأنها أقدر على البقاء فى مثل هذه الظروف من الربط والخوانق ، إذ أنها صغيرة لا تحتاج إلى مال طائل ، ولا يبعد كذلك أن يكون اسم الزوايا قد أطلق على كثير من الربط لأن الرباط فى أصله لا يكاد يختلف عن الزاوية التى عرفت فى العصر العثمانى ، قال السهروردى والمقريزى إن المقيم فى الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد[٣] وشرائط سكان الرباط قطع المعاملة مع الخلق وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات ، ومواصلة الليل والنهار بالعبادة متعوضاً بها عن كل عادة ، والاشتغال بحفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات[٤] . ولعل هذا أظهر ما فى دعوة المتصوفة الذين عاشوا فى العصر العثمانى كما سنعرف بعد — وترجيح تحول الربط إلى زوايا غير بعيد ، فقد بلغ من أمر التشابه بينهما أن اختلط الحال على مؤرخ حديث عهد بها ، فلم يستطع أن يميز بين الربط والزوايا..![٥] ومثل هذا يمكن أن يقال فى بعض الخوانق ، فكثيراً ما يصادفنا فى مصادرنا النص على أن زاوية . . (المهمندار مثلا) كانت فى الأصل خانقاه ثم تحولت إلى زاوية . . ! ولما فشت الدروشة فى العصر العثمانى ، وافتتن بها الناس ، علا

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ٧ .

(٢) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٢٥ .

(٣) عوارف المعارف ص ٥٤ ، خطط المقريزى جـ ٤ ص ٢٩٢ .

(٤) عوارف المعارف ص ٥٧ — ٥٨ ، خطط المقريزى جـ ٤ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٥) هو صاحب الخطط التوفيقية (أنظر جـ ١ ص ٨٩) .

شأن الزوايا ، فاتسع نطاقها وكثر المجاورون بها حتى بلغ عديدهم المئات . [illegible]
ولانت حياتهم حتى أصبحت رفاهية عيشهم في رحابها مثار افتتان الناس بها[١].

ولئن كان التصوف في مصر قد أخذ في الاضمحلال منذ أوائل القرن التاسع الهجرى (أو قبل ذلك بقليل) فان من الراجح أن يكون قد عظم خطره وتمشي الفساد في أوصاله ، وتهيأ لأهله سلطان واسع النطاق ممدود الرحاب فى أواخر هذا القرن وبداية القرن العاشر ، عند اضمحلال دولة السلاطين وبداية عصر العثمانيين ، لأسباب سنعرض لها بعد ، ولا بأس من أن نبسط فى إيجاز شيئا عن نفوذ الصوفية فى هذه الفترة — أى قبل مطلع العصر العثمانى فى مصر .

نفوذ المتصوفة قبيل العصر العثمانى :

لعل ما أسلفناه يبرر القول بأن التصوف فى مصر كان فى جملته — إلى هذا العهد — مقترناً بمعرفة الدين والعمل بأوامره ونواهيه ، واتصف أهله بالصلاح والورع وسعة العلم بشئون الدين ، وكانت لهم مكانة ممتازة بفضل انقطاعهم لعبادة الله وتجردهم لذكره ، وبفضل هذا آمن الناس بهم واعتقد الكثيرون فى كراماتهم وأحسن بعض الحكام الظن بولايتهم ، وكان الاعوجاج فى سلوكهم أو التهافت على طلب الدنيا عندهم يصادف عند جمهرة الناس استنكاراً واستياء ، ولكن الحال قد تطور فى أواخر القرن التاسع وبداية العاشر الهجرى ، فانساق التصوف تحت تأثير الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى التدهور والاضمحلال ، ودخله العوام واعتنقه الوصوليون والأدعياء ، وظهر فى كبار رجاله الجهلة الأميون حتى تتلمذ الشعرانى — وهو علاق عصره — على سبعين شيخاً لايعرف أحدهم علم النحو .[٢] بل كان

(١) أنظر وصف الزوايا وبيان العيش الرغيد فيها وموازنة هذا بحياة الضنك عند الفلاحين والتجار ومن اليهم خارجها فى كتابنا : الشعرانى إمام التصوف فى عصره ص ١١ — ١٤ و ٢٦ — ٣٦ .

(٢) الشعرانى : البحر المورود ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

بعضهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون . . ! ولم يستهينوا بدراسة العلوم الشائعة في عصرهم وحدها ، بل أهمل بعضهم التمسك بأعظم مظاهر التصوف خطراً وهو الزهد ، فتهافت هؤلاء البعض على الدنيا وتسابقوا إلى الظفر منها بأوفى نصيب ، وأهملوا القيام بفروض الدين ، وتوخوا التمرد على أوامره ، وثاروا على أبسط نواهيه على ملأ من الناس ، واطمأنوا بعد هذا إلى سمعتهم عند الشعب — حكامه وعلمائه على السواء . . !

وكان كبار متصوفة هذا العهد لا يقيمون الصلاة أبدا . . ! مدعين أنهم يقومون بأدائها في الأماكن المقدسة . . ! وكان في طليعة هؤلاء عبد القادر الدشطوطي وابراهيم المتبولي وعلي الخواص[1] وغيرهم من أصحاب الضرائح والمزارات ممن يوليهم العامة في مصر أبلغ آيات التقديس وأسمى مظاهر التقدير . !

وقد بلغ من نفوذ هؤلاء أن كانوا آثر عند الحكام وطبقات الشعب من كبار الفقهاء والعلماء المعاصرين ، فقد روى المؤرخون أن العثمانيين عندما ملكوا الشام وهموا بالزحف على مصر كان الأمراء المصريون قد تحققوا موت السلطان الغوري فاختاروا من بينهم « طومان باي » ليخلفه في السلطنة ، فامتنع امتناعاً شديدا لأن خزائن بيت المسلمين كانت خاوية ولا ينتظر أن يمتثل الأمراء لرأيه في مقاتلة العثمانيين دون أن يمدهم بالمال ، فذهب الأمراء إلى أبي السعود الجارحي واستعانوا به فأحضر مصحفاً وطلب إلى الأمراء مجتمعين أن يقسموا عليه بطاعة طومان باي ، ففعلوا جميعاً وبهذا تولى السلطنة طومان باي[2] . ولهذا الحادث دلالته من حيث إيثار الجارحي على شيخ الإسلام ومفتي الديار وفقهاء المذاهب وسائر العلماء . . ! وكثيرا ما كانت الشكاوى ترفع إليه في هذا العهد وكان الأمراء يقفون بين يديه فلا يأذن لهم

---

(١) الشعراني : اليواقيت والجواهر ص ١٢٥ ج ١ ، درر الغواص ص ٥٥ — ٥٦ ، الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٥ وفيها أن الدشطوطي سافر للحج ولكنه لم يدخل الحرم . . !

(٢) ابن إياس ج ٣ ص ٦٩ .

بالجلوس ، وقد حملوا الطوب والتراب فى بناء زاويته[1] . . !

وقد ضاق السلطان الغورى بشمس الدين الديروطى + ٩٢١ لأنه يتهمه بالتقصير فى شأن الجهاد ، وتسامع الديروطى بذلك فمضى اليه حتى إذا حياه ، استقبل السلطان تحيته بالصمت ، فقال الشيخ إن لم ترد السلام فسقت وعزلت فقال السلطان وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال علام تحط علينا بين الناس فى ترك الجهاد ، وليس لنا مراكب نجاهد فيها ، فقال الشيخ عندك المال الذى تعمروها به . ثم طال بينهما الجدال فقال الشيخ للسلطان قد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان ، أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك من يد إلى يد ، ثم منّ الله عليك بالحرية والإسلام ، ورقاك إلى أن صرت سلطانا على الخلق ، عما قريب يصيبك المرض الذى لا ينجح معه طب ، ثم تموت وتكفن ويحفرون لك قبرا مظلما ثم يدسون أنفك هذا فى التراب ، ثم تبعث عاريا عطشانا جائعا ثم تقف بين يدى الحكم العدل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، ثم ينادى المنادى من كان له حق أو مظلمة على الغورى فليحضر ، فيحضر خلائق لا يعلم حصرها إلى الله . ! !

وأرسل السلطان فى طلب الشيخ يترضاه ويتألف قلبه ويستميله بالمال والشيخ يعرض عن ماله ويحقر من شأنه ، فما رؤى أعز من الشيخ ولا أذل من السلطان فى ذلك المجلس[2] .

ومثل هذا يقال فى موقف شمس الدين الحنفى + ٨٤٧ مع السلطان فرج ابن برقوق[3] ، ومع غيره من الملوك والأمراء[4] وهذا شبيه بما كان يقع لغيره من رجال الطريق مع هؤلاء الأكابر . . !

(١) مناقب العلماء والصوفية ٢٠٦ (مخطوط للشعرانى) والطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٣ ، الكواكب الدرية ص ٤٧٨ .

(٢) الشعرانى : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨١ ، بيت الصديق ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٢ ، بيت الصديق ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

فلنتصور ما كان لهؤلاء القوم من نفوذ على الأتباع والمريدين بعد أن تهيأ لهم هذا السلطان كله عند حكام البلاد من سلاطين وأمراء — وكم ألف خضعوا لكل ولى من هؤلاء واستكانوا له وآمنوا بدجله، واستسلموا لسلطانه واستحالوا أداة فى يده، يعوزها العقل وينقصها الحس . . . كان الشيخ على وحيش +٩١٧ كلما رأى رجلا يركب حمارة، أنزله من فوقها، وقال له امسك رأسها حتى أفعل فيها الفاحشة . . ! فان أبى الرجل تسمر فى مكانه لا يستطيع حراكا — أو هكذا خيل اليه من فرط اعتقاده فى ولاية الشيخ . . ! وان استجاب لطلبه أدركه الحياء من سوء ما يفعل الشيخ على قارعة الطريق . . ![1] بل لقد سخر الشيوخ أتباعهم حتى فى الانتقام ممن يندد بهم ويتعرض بالنقد لتصرفاتهم فيطلق عليه أتباعهم يوسعونه ضربا ويثخنونه طعنا ويردونه إلى السكوت عن نقدهم كارها . ! كان السيوطى شيخ خانقاه سعيد السعداء، فرأى أهلها ينعمون فى أوقافها ولا يهتمون بتكاليفها، فوق أنهم غير معوزين، لأنهم يقتنون البغال والسوارى ويحرزون الأموال، فقال لهم إن شرط الواقف ألا يمنح خبز الخانقاه وجامكيتها لغير الفقراء المحتاجين الذين توفرت فيهم شروط الصوفية المذكورة فى رسالة القشيرى وغيرها، فثاروا عليه وأوسعوه ضربا وألقوه فى الميضأة بثيابه وفاخر بعضهم بأنه ضربه « بالقبقاب » على كتفيه . ! ![2]

وذلك فوق ما كان لهم من نفوذ روحى عند العلماء، وقد كان بركات الخياط +٩٢٣ هـ موفور الثقة عند علماء الأزهر وحكام البلاد معا - وقد طلب اليه مفتى الجامع مع فئة من العلماء أن يصحبهم إلى صلاة الجمعة، فاعتذر بأنه لم يتعود إقامتها . . ! ! ثم استجاب لالحافهم وتحرّى أن يتطهر بماء قذر نجس، فلما ضاقوا به انهال عليهم سبا وطعنا . . !، وضاق به الوالى مرة فضربه بعصاه، فغضب الشيخ لهذا وأقام ببابه وهو يقول « والله يا زربون ما أفارق هذه العتبة حتى أعزلك ! »

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٢) الشعرانى : العهود المحمدية ١٨٠ — ١٨١ .

وتقول الرواية وسرعان ما أقبل الفرمان من قبل السلطان يحمل نبأ عزله .ا[١] واستطارت شهرته من جراء هذا العزل الذى كان وقوعه فى مثل هذا العصر القاق المضطرب أمرا طبيعيا مألوفا . .

ومثل هذا يقال فى موت علماء الأزهر على ابراهيم المواهى المتوفى سنة نيف وعشرين وتسعمائة ، لأنه كان يقرر قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم » بحجة أنه يتحدث فى الماهية .. ا ولما أقبل على مجلسهم أحد اخوانه فى الطريق « محمد المغربى » أمسكوا عن الكلام عند ما رأوه ، فقال لهم : تكلموا حتى أتكلم معكم ، فلم يجرؤ أحد منهم على الكلام .. فقال لهم : نحن أحق بتنزيه الحق منكم معاشر الفقهاء ، ومن طلب أيضاح ذلك فليتقدم إلىّ أتكلم معه ، فسكتوا جميعا . . فأخذ بيد ابراهيم ومضيا فلم يتبعهما أحد من العلماء . . . ا ثم عادوا فلحقوا بالمغربى وأخذوا يترضونه ، وهو ينهرهم غاضبا قائلا لهم إن الطريق ليست بمجرد كلام كطريقكم ، إنما هى طريق ذوق فمن أراد منكم الذوق فليأت أخليه وأجوعه حتى أقطع قلبه ، وأرقيه حتى يذوق ، وإلا فليكف عن هذه الطائفة فان لحومهم سم قاتل [٢] وفى ذلك ما يشير إلى مدى نجاحهم فى النزاع الذى كان يقوم بينهم وبين الفقهاء .

أشرفت مصر على العصر العثمانى وهى على هذه الحال ، فماذا كان أمر المتصوفة فيها إبانه ... ؟ ذلك ما نعرفه فى الفصل التالى :

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٢٥ .

(٢) المصدر السالف جـ ٢ ص ١٠١ .

الفصل الثانى

أظهر معالم الطريق فى مصر إبان العصر العثمانى

اتصال العصرين : المملوكى والعثمانى — حقيقة التصوف فى هذا العصر موقف المتصوفة من دراسة العلم (الدين) — موقفهم من العمل مبلغ إخلاصهم فى دعاويهم — وسائل اكتساب المشيخة — وصف الزوايا — احصائية بأهم الزوايا — العبادة فى رحاب الزوايا — الذكر سندهم فى ذكر الله — قيمة الذكر فى عرفهم — طريقة الذكر آداب الذكر — الخلوة — التزامات الخلوة — ثمرات الخلوة — آية الخلوة الصادقة — أركان الطريق — تلقين الذكر — ادخال الخلوة — ارخاء العذبة — الباس الخرقة .

* * *

تمهيد : اتصال العصرين

يكاد ينعقد الإجماع بين المؤرخين على أن المماليك كانوا على عكس العثمانيين إذا وفدوا إلى مصر « تأقلموا » ، واستعاروا من أهلها ما كان لهم من عادات وتقاليد ونحوها، مما أدى إلى وجود الفوارق البينة بين حكمهم وحكم العثمانيين ويرى المخضرمون من أهل التصوف أن بين هذين العصرين هوة سحيقة القرار فالتصوف فى العصر المملوكى يتسم بالصدق فى عبادة الله والتجرد لذكره والزهد فى طلب الدنيا والإعراض عن مباهجها ، أما تصوف العصر العثمانى فأنه يتصف بالدجل والخداع والشعوذة ، ويكاد شيخ هؤلاء الكتاب المخضرمين — وهو الشعرانى ٨٩٨ - ٩٧٣ هـ — أن يحدد الساعة بل الدقيقة التى انحل فيها الطريق ودب فيه الفساد وأعوزه الصدق والإخلاص ، وقد بدا ذلك فى رأيه عندما

مات أستاذه (المرصفى) ٩٣١ هـ [1] بقية الخلف الصالح من أهل العصر المملوكى - وإن كان قد عاد — على عادته من مناقضة نفسه إلى تحديد هذا التاريخ بموت أبي العباس الحريثى ١٩٤٥ مرة وبموت طائفة من المتصوفة الصادقين من أهل القرن العاشر مرة أخرى .

والرأى عندنا أن التصوف فى حكم العثمانيين ، كان امتدادا للتصوف الذى عرف فى أواخر عصر السلاطين وإن اختلفت تياراته فى العهدين قوة وضعفا ومردّ الخطأ فى حكم الشعرانى ومن جرى مجراه ، إلى أن طبيعة الزهد من شأنها أن تحمل أهلها على احتقار الحياة والانصراف عن متاعها والنظر إلى مباهجها بمنظار أسود ، ومن شأن هذا كله أن يؤدى بصاحبه إلى تقديس الماضى على حساب الحاضر — أما غير الزهدة من الكتاب المخضرمين الذين ذهبوا إلى هذا الرأى فقد كانوا يعيشون فى جو يحمل على التبرم بالحاضر ويدفع إلى الحنين للماضى وبهذا زعم هؤلاء الكتاب أن بين التصوف فى حاضرهم والتصوف فى ماضيهم فرقا جوهريا كما قلنا من قبل ، فاذا أردنا أن ،نتقى الزلل ونأمن وجه الشطط فى أحكامنا ، وجب أن نكتفى بأخذ البيانات ومعرفة الحوادث من كتب هؤلاء الكتاب دون أن نعول على أحكامهم عليها كثيرا ولا قليلا ، فاذا التزمنا هذا المنهج فى دراستنا عرفنا أن تصوف العصر المملوكى لا يختلف عن العصر العثمانى فى نوعه وأن ظهر فارق قليل الخطر فى قوة التيار أو ضعفه ، ولا بأس من أن نسوق شاهدا واحدا ندلل به على منشأ الخطأ عند هؤلاء الكتاب المخضرمين :

يعرضون إلى المتصوفة الذين تحرروا من أوامر الدين ونواهيه فى العصرين ، فيقولون فى عصر المماليك إن الخواص والمتبولى والدشطوطى كانوا لا يقيمون الصلاة أبدا وأن غيرهم كان يفعل الفاحشة على

---

(١) كما ورد فى تكميل النور السافر ص ٢٩٦ وذكر الشعرانى وفاته فى عام نيف وثلاثين وتسعمائة (الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٣)

ملأ من الناس . ! ثم يقولون فى عصر العثمانيين إن فرق الأحمدية والبرهامية والقادرية وما إليها كانت لا تلتزم أوامر الدين ونواهيه ، فتهمل الصلاة وترتكب الفاحشة .. الخ فتصوير موقف الفريقين من الدين فى العصرين يوشك أن يكون واحدا ، فإذا تركنا رواية هذه الظاهرة إلى الحكم عليها عند هؤلاء الكتاب ، لاحظنا أنهم يقولون إن متصوفة العصر المملوكى كانوا يقومون بالصلاة فى خفاء عن الناس فى الأماكن المقدسة البعيدة ، وأن طى الأرض فى لمح البصر كان جزءا من كراماتهم وأنهم كانوا يوهمون الناس بأنهم يرتكبون الفاحشة دون أن يقدموا على فعلها . . ! ! فإن عرضوا للحكم على فرق العصر العثمانى وسموها بالدجل والشعوذة ، وقالوا إن طريق الله لا يبيح لأهله الخروج على كتابه والتمرد على سنة رسوله .. ! وبهذا كانت طريقتهم فى التأويل منشأ الخطأ فى أحكامهم . ومثل هذا يقال فى تأويل الخلاف فى أحكامهم مع الاتفاق فى موضوعها

حقيقة التصوف فى العصر العثمانى :

كان التصوف فى العصر العثمانى لا يكاد يعدو الأغراض العملية التى أدت إلى وجوده ، وهى العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والتجرد لذكره ، والزهد فى طلب الدنيا ومجاهدة النفس ورياضتها ونحو هذا مما أشرنا إليه من قبل ، فهو سلوك عملى لا نظر عقلى ، وقلما كان هذا السلوك ينتهى بحال من أحوال الجذب والمحو والسكر والفناء ونحوه مما تجرى الكلام فيها أهل التصوف من قبل ، ومن هنا كان الطريق فى هذا العصر أقرب إلى الدروشة منه إلى التصوف الصحيح ، لأن التصوف نزعة فلسفية والدروشة أساليب خاصة فى الذكر والعبادة ، ولم يكن روح العصر الذى عاشوا فيه ليلائم وجود مفكرين يحسنون النظر ويجيدون الفهم بالحدس والذوق ، وقد كان عصرا تستعبده الجهالة ويسيطر الاضمحلال على شتى نواحى الحياة فيه ، ولئن كانت عصور

الاضمحلال عند الشعوب لاتخلو من أفذاذ يسبقون زمانهم ، فان متصوفة العصر العثمانى قد وضعوا آدابا ألزموا بها كل من سلك على يدهم ، وكان بعضها يقضى بمحبة الجهل وعدم التعلم على يد مدرس أو كتاب وتجنب التفكير فيما يعرض له من ظواهر أو يساور رأسه من خواطر وآراء ، فقضوا بذلك على الحياة العلمية عند أهل الطريق وقتلوا حيوية التفكير فى أذهانهم ، وادعوا بأن الزهد فى طلب الدنيا والاستهانة بملاذها والإعراض عن شهواتها ، إذا صحبه الانقطاع للعبادة والتجرد للذكر والتهجد والعمل بما يرضى الله، تكفل بأن يسلم صاحبه إلى حضرته ، ومتى اتصل الفقير بربه ، أخذ عنه العلم والحكمة والدين والثراء وكافة ما يشاء من مطالب الدنيا رأسا من غير وساطة،واستمد منه — تعالى — القوة التى ترفعه عن كافة البشر وتجعل فى مقدوره إتيان الخوارق والكرامات ، ولما كان ادعاء هذا النوع من التصوف أمرا ميسورا لكل إنسان ، وكان روح العصر يكفل لمدعى التدين والتصوف وافر الاحترام وبالغ التقدير ويقبل بفضل ما انتشر فيه من مدقع الجهل كل مظاهر الدجل والشعوذة ، فقد كثر مدعوا الطريق فى هذا العصر ، وتهيأ لهم سلطان واسع النطاق ، وتغلغل نفوذهم فى شتى الطبقات ومختلف الهيئات ، وأضحى لهم من المريدين والأتباع كثرة يستعبدها سلطان الشيوخ استعبادا فادحا وكلهم يدعون القدرة على فعل الكرامات وإتيان خوارق العادات ، والناس يستسلمون لهذه الظواهر سراعا ، ويقبلون على أهلها خفافا، فان عالجوا تعليلها اشتطوا فى أمرها،وعزوها إلى قدرة مستمدة من قوة الله فى سمائه وقدكان إيمان الحكام الأثرياء بهؤلاء الدجالين يحملهم على مساعدتهم بالمال الذى يكفل لهم العيش الهنىء المترف، ويحيطهم بالعطف الذى يهيء لهم أسباب الاطمئنان فى الحياة الدنيا ، ووجد هؤلاء الأدعياء أن سذاجة الناس قد اغنتهم عن التزود بدراسة العلوم والتبحر فى شئون الدين والسعى لاكتساب القوت وتحمل المشاق فى ميادين العمل ، بل أغنتهم عن التزام الصدق فى عبادة الله والزهد

فى طلب الدنيا (١)

وبهذا كاد الدجل أن يطمس آية التصوف الصادق ويطفىء نوره . .

وقد كان من أظهر مميزات التصوف فى هذا العصر ، تحوله من ظاهرة وجدانية فردية إلى ظاهرة اجتماعية تتمثل فى حياة أتباعه فى رحاب الزوايا تحت إرشاد شيوخهم ممن مكنتهم شخصيتهم من اجتذاب المريدين ، ويسرت لهم ثقة المحسنين من الأمراء والأثرياء ، الذين تكفلوا بكل ما تتطلبه حياة هؤلاء المجاورين المنقطعين لعبادة الله فى زواياهم ، إذ كانوا يعيشون مع زوجاتهم من فيض الأوقاف التى تحبس عليهم والارزاق التى تجرى من أجلهم ، وكانت هذه العطايا من الكثرة بحيث أحالت زهدهم رخاء وتقشفهم ترفا ، وأبدت حياة الشعب — من الفلاحين والتجار — حرمانا بالقياس إلى النعيم الذى عاش فيه هؤلاء المجاورون . وقد ملأوا حياتهم بذكر الله وواصلوا عبادته أفرادا وجماعات ليلا ونهارا وشغلوا وقتهم بالتهجد وقراءة الأوراد وتلاوة القرآن واقامة الصلاة ونحوها من شعائر الدين — وإن كثر بينهم من كان يعوزه الأخلاص فى مزاولة هذه العبادات ، والكثير من هذه الزوايا كان حريصا على طلب العلم بقواعد التصوف وعقائد الدين فى أمهات الكتب المعروفة (٢)

أما اتجاهات هذا التصوف ومذاهب أهله فى مجال الحياة العلمية والعقلية والعملية والخلقية والسياسية فقد أبنا عنها فى كتابنا عن الشعرانى — ممثل هذا العصر — وسنشير إلى أعظمها أثرا فى توجيه الحياة المصرية ، عند ما نعرض لبيان هذا بعد .

وقد حفلت مصر بزوايا هؤلاء الشيوخ ، وكانت تتمشى فى نموها وسعتها

---

(١) توضح هذه الفكرة الأساليب التى يتبعها أهل الطريق فى الظفر بالمشيخة وقد شرحنا هذا فى كتابنا عن الشعراء ص ٧٠ — ٧١

(٢) انظر فى وصف الزوايا وتفصيل حياة المجاورين بها كتابنا عن « الشعرانى » ص ١١ — ١٤ و ٢٦ — ٣٦

ووفرة الرزق بها ، طرديا مع نفوذ أصحابها وقدرتهم على إغراء المريدين بالانقياد لهم واجتذاب أهل اليسار إليهم . وقد كادت هذه الظاهرة أن تنقرض فى مصر — بل فى العالم الإسلامى كله — ولهذا آثرنا أن نسجل أسماء أظهر الزوايا التى عرضت لذكرها مصادر هذا العصر ، عسى أن يساعدنا هذا على تفهم الجو الصوفى الذى استغرق المصريين فى ذلك الحين ، وييسر لنا تقدير الأثر الذى ينتظر أن يكون له فى حياتهم .

أهم الزوايا فى هذا العصر :

زاوية ابن النقيب (وتعرف بزاوية بدر الدين المقدس) أنشأها السيد على ثم حولها أخوه بدر الدين ابن النقيب إلى جامع سنة ١٢٠٥ وكانت قائمة فى شارع القصاصين حارة البير قدار — زاويه أبى الحمايل (محمد السرو) سنة ٩٣٢ بين الصورين — زاوية أبى خوده (على) بالحسينية بالقرب من جامع الأمير شرف الدين الكردى — زاوية أبى السعود الجارحى المتوفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة بالكوم الخارج بقرب جامع عمرو — زاوية الست آمنه زوجة البيومى سنة ١١٨٣ بحارة زوجها وبها معبده وضريحها — زاوية ابراهيم (أخى الدمرداش فى الطريق) سنة ٩٤٠ خارج باب زويله — زاوية البكتاشية خارج القاهرة — زاويتا البكرية : الأولى ببركة الرطلى والأخرى بجوار الأمام الشافعى — زاوية البيومى سنة ١٨٨٣ بالحسينية وقد شادها مصطفى باشا — زاوية تفكشان بحارة قنطرة عمر شاه جهة درب الجامِز أنشأها الأمير محمد تفكشان سنة ١١٤٢ وكما يؤخذ من الأبيات المنقوشة على بابها ، كان فوقها مكتب لتعليم الأطفال — زاوية جلال الدين البكرى سنة ١٠١٨ هـ أنشأها سنة ٩٩٦ بشارع الأزهر على مقربة من الجامع وقد كانت صغيرة ليس لها ميضاه ولا بئر ، بها حوض يملأ بالقربة بجوارها صهريج — زاوية الحبيبى جددها محمد الحبيبى شيخ طريقة الحبيبية سنة ١٢٤٧ هـ تقابل زاوية عز الدين الدمياطى التى ذكرها

المقريزى بشارع السيدة زينب وليست هى كما يتصور العامة — زاويةالحريثى أنشأها عبدالرحمن الحريثى سنة ١١٨٧ —زاوية الحلوجى أسسها الشيخمبارك سنة ٦٨٨ كما قال المقريزى ودفن فيها عبيدالبلقينى سنة ٩٣٠والحلوجى، وكانت تعرف به ، بين المشهد الحسينى والجامع الأزهر (انظر زاويةعبيد البلقينى) — زاوية الحنفى بكوم الخارج بالقرب من جامع عمرو ، زارها عبد الغنى النابلسى سنة ١١٠٠ — زاوية الخضيرى سنة ٩٦٥ (خلف مسجد طولون بشارع الخضيرى) — زاوية الخلوتى (محمد كريم الدين سنة ٩٨٦) بشارع الجدرية حارة الجدرية — زاويةالخواص (على) بالحسينية — زاوية خوند على كثب من ضريح الشعرانى بباب الشعرية على بابها إلى اليوم حجرمنقوش عليه اسم فاطمه خوند تعبد فيها الشعرانى فترة من الزمن — زاوية الدردير (العدوى) بخط الكعكيين بجوار ضريح يحيى بن عقب وبها عدة ضرائح— زاوية الدمرداش المحمدى سنة ٩٣٩ وقد دفن بها محمد بن عثمان دمرداش سنة ١١٩٤هـ — زاوية الديروطى بدمياط وقد دفن بها أبو العباس الحريثى ٩٤٥— زاوية الذاكر (تاج الدين) سنة نيف وعشرين وتسعمائة بجوار حمام الدود خارج باب زويلة شارع السيوفية — زوايا رضوان : اثنتان من إنشائه ، أنشأهما ١٠٦٠ إحداهما بشارع القربية والأخرى بشارع قصبة رضوان والخيمية والمغربلين جددها عبدالرحمن كتخدا والثالثة بها لوح من الرخام منقوش عليه أن الأمير رضوان أحياها بعد الاندثار سنة ١٢٠٦ بشارع سويقة اللالا (يبدأ عند انتهاء شارع الحنفى وينتهى بشارع الدرب الجديد) — زاويةالزاهد (أحمد) بجوار زاوية المناوى بخط المقسم —زاوية السحيمى(أحمد) بقلعة الجبل— زاوية السقاف (على العربى الفامى)سنة ١١٨٣ على كثب من الفحامين وتسمى أيضا زاوية ابن العربى — زاوية الصفيحة (أحمد)سنة ٩٤٢بشبرا قبالة القربية —زاويةسعودى المجذوب سنة ٩٤١ بسويقة العزى بقرب مدرسة السلطان حسن وبها قبره — زاوية السادات (الوفائية) بها عدة ضرائح كمحمد سنة ١١٧٦ وعبد الرحمن العريشى والزيات بحارة السادات الوفائية بجوار سراى

المرحوم مصطفى باشا أخى الخديوى اسماعيل باشا عن يمين السالك من رأس الحارة إلى بركة الفيل — زاوية شاهين (الخلوتى) بسفح المقطم شارع دير النحاس مصر العتيقة — زاوية الشامية أنشأتها الست الشامية سنة ٩٩٤ ﻫ بشارع الجدرية بقرب الفحامين — زاوية الشربينى (عبد الوهاب) سنة ١١٨١ — زاوية الشناوى (محمد) سنة ٩٣٢ بمحلة روح وله زاوية أخرى بخط بين الصورين وقد دفن بالأولى — زاوية الشعرانى (عبد الوهاب) سنة ٩٧٣ بباب الشعرية — زاوية الشمعة (أو الصارم أو عانوس) أنشأها الأمير شمعة أول القرن الثالث عشر الهجرى بشارع البيومى تجاه عطفة الخواص — زاوية الشنبكى (أحمد) أنشئت سنة ٩٢٣ شارع بين الحارات جهة باب الشعرية — زاوية عابدين أنشأها الأمير عابدين سنة ١٠٨٤ بشارع جامع أصلان بالتبانة — زاوية عبد الرحمن المجذوب سنة ٩٤٤ بالحسينية قرب جامع الملك الظاهر — زاوية عبيد البلقينى ، مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة بقرب الجامع الأزهر بالحلاوية (هى زاوية الحلوجى) — زاوية عصفور (ابراهيم عصيفير) سنة ٩٤٢ بخط بين الصورين تجاه زاوية أبى الحمايل — زاويه العجمى (بسفح الجبل) — الزاوية القادرية فى السكة الجديدة دفن فيها أحمد الجوهرى سنة ١١٨٧ وهى بدرب شمس الدولة شارع الوراقين — زاوية الكليبانى (أبى الخير) أنشئت سنة ٩٢٧ — زاوية الكلشنية — زاوية المتبولى (ابراهيم) شارع درب السماكين شارع كلوت بك وبها ضريحه وله زاوية أخرى بالحسينية على يسار الخارج منها إلى جنينة الشماشرجى المعروفة بجنينة السبع والضبع ولا صحة لزعم الناس القائل بأن فيها ضريحه ، فان قبره باسدود بأرض الشام — زاوية مدين الأشمونى كانت موجودة سنة ٩٥٢ كما قال المناوى بجوار زاويتى الزاهد والمناوى — زاوية مرشد + ٩٤٠ شارع جامع أصلان — زاوية المرصفى (على) سنة نيف وثلاثين وتسعمائة بقنطرة الأمير حسن بمصر — زاوية مصطفى أغا وكيل دار السعادة بشارع درب الجماميز سنة ١٢٠٧ — زاوية المناوى (عبد الرءوف) سنة ١٠٣١ بخط المقسم زاويتا أحمد الزاهد ومدين الأشمونى — زاوية المنزلاوى (محمد ابن داود) بالسمية

قرية فى بلاد المنزلة — زاوية المنزلاوى (عبد الحليم) مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة — زاوية المنير (أحمد) المعروف بأبى طقية سنة ٩٣١ بخط المقسم بجوار زاوية الشيخ مدين — زاوية المنير أنشأها محمد بن حسن السمنودى المعروف بالمنير آخر القرن الثانى عشر بداخلها ضريح منشئها شارع اللبودية حارة مكسر الحطب بالقرب من قنطرة الموسكى على يسار الذاهب من السكة الجديدة إلى الحمزاوى — زاوية المجذوب (على المصرى) سنة ٩٦١ داخل باب الشعرية — زاوية المهمندار أنشئت كما يقول المقريزى مدرسة وخانقاه سنة ٧٢٥ ثم جددها سليمان أغا الفازوغلى وجعل بها منارة ومنبراً بخط البرادعية من الدرب الأحمر — زاوية الموافى السندوبى ودفن بها ابن أخيه سنة ١١٤٠ كانت فى مؤخر الجامع الكبير بالمنصورة — زاوية النشيلى (شهاب الطويل) مات سنة نيف وأربعين وتسعمائة بمصر العتيقة — زاوية نور الدين بن العظمة المجذوب عمرت له بشارع سويقة السباعين — زاوية يوسف بك شارع الحوض المرصود بجوار مدرسة السلاح وأنشأها الأمير يوسف بك وأقام بجوارها سبيلا وحوضا لشرب الدواب سنة ١٠٤٤

هذا بعض ما صادفنا من أسماء الزوايا إبان هذا العصر ، أما عن حياة المجاورين فى ظلها ، فقد تشابهت فى أصولها وإن تفاوتت فى مظاهرها وسعتها وعدد مجاوريها وألوان العيش بها ، وما من شك فى أن الثبت الذى عرضناه بأسمائها ناقص ، وليس أدل على هذا من أن جميع الطرق التى هدتنا المصادفة إلى أسمائها قد تجاوزت الثمانين .. !

فلنعرض موجزين طرفا من العبادات التى زاولوها فى رحاب هذه الزوايا :

العبادة فى رحاب الزوايا :

وقد كان أكبر ما يشغلهم من أمر هذه العبادات ، الانقطاع للتهجد وذكر الله وإقامة الصلاة ، وقراءة الأوراد ، وتلاوة القرآن . ويلى هذا الاطلاع على

كتب التصوف والعلوم الدينية إجمالا ، فلنعرض طرفا من رأيهم فى ذكر الله ، وهو أكبر هذه العبادات خطرا ، ملتزمين فى هذا العرض تصوير الجو الروحى الذى عاشوا فيه كما توهموه هم ، لا بالقياس إلى هذا الجو فى غير عصرهم :

الذكر :

كلمة تطلق على جميع العبادات التى يقوم بها المرء بلسانه بل بأفعاله[١]، وذكر الله المندوب اليه فى الكتاب والسنة هو التوجه لله تعالى بكليته سواء نطق باسمه الكريم أولم ينطق « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين » وسواء كان فى ذلك قائما أوجالسا أو نائما «فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم»[٢] ولا يراد بالذكر تنزيه الله فان لله الكمال المطلق ، وما ثم شىء ينبغى أن ينزه عنه ، ومتى قصد الذاكر تنزيهه فقد ألحق به القبح بوهمه — تعالى الله عن ذلك — وليس يراد به طلب الحق فالله موجود أبدا والمفقود هو الذى يطلب « هو معكم أينما كنتم »[٣] وانما يراد بذكر الله أن يشهد الذاكر ليلا ونهارا أنه بين يديه ، وأنه يرانا ويطلع على أعمالنا وأقوالنا وخواطرنا[٤] وكل ما خلا ذلك من أطماع الذاكرين فهو سوء أدب[٥] ولهذا أريد بالإكثار من الذكر حصول الأنس للمريد حتى لا يغفل قلبه ويشهد الله دواما فيراه بقلبه أو يرى نفسه فى حضرته تعالى وكلا الحالين إذا دام منع صاحبه من الوقوع فى المعاصى

---

(١) الرسالة المنصورية ٤٤٨ والغزالى يقصره على العبادات باللسان .

(٢) التعليم والارشاد ص ٦٤ وبيت الصديق ص ٢١

(٣) الشعرانى : ردع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى ص ٢٦

(٤) « العهود المحمدية ص ٣١٤

(٥) ردع الفقراء ص ٢٧

وكفاه مواطن الزلل [١] والذكر عمدة الطريق كما سنعرف — والغرض من الطريق هو القرب من حضرة الله الخالصة ومجالسته فيها من غير حجاب [٢] لأن المتصوف يحب الله لذاته لا لإحسانه [٣] ولهذا وجب على الذاكر أن يجعل ذكره للتعبد لا لطلب المقام [٤].

سندهم فى ذكر الله :

مرد سندهم فى هذا إلى رسول الله ، الذى قيل إنه لقن صحابته ذكر الله جماعات وأفرادا ، وقد حفلت المصادر ببيان هذا وتفصيل الطريقة التى اتبعها فى الحالين [٥]

قيمة الذكر عندهم :

كان الذكر آثر العبادات عند أهل التصوف جميعا إبان هذا العصر — وإذا كان الغزالى يقول إن تلاوة كتاب الله ليس بعدها عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله ، ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إليه تعالى [٦] فقد قام النزاع فى العصر العثمانى بين أهل التصوف بسبب المفاضلة بين ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز فقال قائلهم إن الذكر آثر للمريد ، أما تلاوة القرآن فأفضل للكامل الذى عرف عظمة ربه [٧] ولا عبرة بما يراه البعض من إيثار تلاوة القرآن لأهل التصوف جميعا ، واتفقوا جميعا على أن ذكر الله والاشتغال

---

(١) الشعرانى : العهود المحمدية ص ١١٣
(٢) « : قواعد الصوفية ص ١١٤
(٣) « : الجواهر والدرر ص ٢١٠
(٤) « : درر الغواص ص ٨٢
(٥) قواعد الصوفية ص ٨ و ٩ وآداب النقشبندية ص ١ ٤ ودلالة السائرين للسمنودى ص ٤ و ٥
(٦) الأحياء للغزالى ج ١ ص ٦٤
(٧) قواعد الصوفية ص ٢٥

برياضة النفس أفضل من الاشتغال بالعلم (بالدين)[1]. على أن عمدة الطريق الإكثار من ذكر الله حتى لا يكون المريد شغل إلا بربه ، وقالوا إن الذكر منشور الولاية أى أنه « مرسوم يصدره الله لعبده بالولاية كما تصدر ملوك الدنيا « مرسومات » بالحاق كبار الموظفين فى الوظائف الشاغرة ، ومصادر التصوف فى هذا العصر حافلة ببيان قيمته واللجاجة فى تقديره وتقديسه »[2].

ولم تكن هذه اللجاجة غريبة على من يرون أن الذاكر جليس الله وليس يصلح لمجالسة الله غير أكابر أهل الحضرة وحدهم ، وإذا كان ملوك الدنيا لا يأذنون لكل إنسان بالمثول بين يديهم ، وإن اشتهى ذلك ، فأحر بالخالق أن يكون جلساؤه من صنف ممتاز يقف حياته لذكر الله .

ومن هنا اشتدوا فى حساب من يتغيب عن مجالس الذكر ، ولو اعتذر بالانصراف إلى دراسة الدين ، ومن ارتكب ذلك وجب أن يؤنب نفسه أمام إخوانه ، وترك الأعتذار استهانة بمجالس الله [3].

طريقة الذكر :

كان ميل السواد الأعظم إلى الجهر ما وسع الذاكر ذلك ، حتى لقد حدد البعض طريقة الاهتزاز أثناء الذكر ، والجهة التى يميل فيها عند نطق كل كلمة .[4] وإن صرح البعض بأن هزة الرأس والذقن فى الذكر ليست كل شىء فأهم منها احتراس القلب من الاسترسال فى خواطره ومزيد مراقبته للحق فى باطنه

---

(١) العهود المحمدية ص ١١١ والبحر المورود ص ١٠٣

(٢) أنظر مثلا قواعد الصوفية ص ١٤ — ١٥ والبحر المورود ص ٢٧٤ — ٢٧٥ وردع الفقراء ص ٢٧ وقواعد الصوفية ص ٢٠٦

(٣) قواعد الصوفية ص ١٦٤ — ١٦٥ — ١٦٦

(٤) قواعد الصوفية ص ١٧ ودلالة السائرين ص ٢٨ والسير إلى الله لمحمد البكرى ص ١٩٠ وفى دلالة السائرين ص ١٤٤ شرح آخر لطريقة الذكر والنطق .

وظاهره[١] وكلامه لاينفى اهتمامهم بعنف الحركات وجهورية الصوت . وقد شاعت الدعوة إلى هذا واستجاب لها الذاكرون كما سنعرف بعد قليل، وكانت حجتهم فى رفع الصوت جمع شتات القلب وتجنب الحياء من الناس فى ذكر الله [٢] .

ويلاحظ أن الجهر بالذكر كان غير محبب إلى الكثيرين من العلماء وحملة الشريعة ، فاستنكروه ورموا أهله بالكفر والزندقة والعبث باسم الله ، ولهذا كثرت الرسائل التى وضعها العلماء فى ذلك – وسنعرف شيئا منها فيما بعد . وعنى بعض المتصوفة باستفتاء الفقهاء الذين يبيحون الجهر بالذكر وحملوا إلى الناس فتاويهم يبررون بها طريقتهم [٣] ولدينا الكثير من الفتاوى بهذا الصدد وقد ثار العلماء يوما على البيومى وجماعته لأسباب منها رفع أصواتهم فى الذكر . واتصلوا ببعض الأمراء وكادوا أن يمنعوا الشيخ وجماعته من إقامة الذكر بالمشهد الحسينى كما اعتاد ذلك كل ثلاثاء ، ولولا أن الشيخ الشبراوى تدخل لنصرتهم ورفع البيومى عند الباشا لتم لخصومه ما أرادوا [٤].

ولم يكن العلماء وحدهم الذين يكرهون الجهر بالذكر فى المساجد ، فقد وجد بين المتصوفة من لا يبيحونه إذا نشأ منه تشويش على الذين يقيمون الصلاة أو يستمعون إلى حديث الوعاظ ، بل حرموه إن كان فيه إقلاق لراحة نائم[٥] وقد صرح بهذا (الشعرانى) وإن كان قد حتم على من أراد منع الجهر بالذكر التزام الحكمة فى طلبه ، وسياسة الذاكرين بالحنكة وحسن المعاملة ، واستشهد

---

(١) الرسالة المنصورية ص ٤٤٨

(٢) قواعد الصوفية ص ١١٢

(٣) عبد الغنى النابلسى : رحلة النابلسى ١٣٣ الى سنة ١٣٧

(٤) الجبرتى ج ١ ص ٣٣٩

(٥) البحر المورود ص ٢٢٧ — ٢٢٨

بالجنيد حين وقع له مع الإمام أحمد بن صريح جدال بهذا الصـــدد انتهى بانتصار شيخ الطريقة (١) والظاهر أن الشعرانى قد انساق إلى هـذا التحذير من فرط ما ناله من الوعاظ الذين ساءهم جهره بالذكر مع جماعته كما سنعرف بعد(٢) .

على أن الجهر بالذكر كان فى الجملة أحب لى أهل التصوف وفاء بحق الملائكة الكاتبين، فانهم رسل الله إلينا يكتبون أقوالنا وأفعالنا فنجهر بذكر الله رغبة فى إشاعة السرور فى قلوبهم ، لأن الملائكة تتفاخر بأعمـال أصحابها كما يقول الشعرانى (٣) ثم إن الذكر سراً قد يؤذى صاحبه ويشوى كبده ويحرق بطنه ..! وقد وقع ذلك لجماعة الشيخ عمر ببلاد العجم — وهـو شيخ الشيخ دمرداش بمصر — حرم كبير المفتين على جماعتـه الجهر بالذكر وكانوا يبلغون الخمسة آلاف عدا ، فلما فرغوا من مجلس الذكر الذى التزموا فيه السرية حملوا منه فى ذلك اليوم نحو نصف ألف أدركهم المرض واحترقت أكباد نحو أربعة عشر نفساً وخرجت من جنوبهم.. !! وقد زعم راوى الحكاية للشعرانى أنه حسس بيده على أكبادهم فتبين أنها مشوية محروقة كالكبد المشوى على الجمر ..!! (٤) وقد سارت البكرية على الجهر بالذكر من قديم الزمان فهى اليوم تبيحه للفرق ، وقديما كان الحنفى + ٨٤٧ يأمر أصحابه برفع أصواتهم بالذكر فى الأسواق والشوارع والمواضع الخربة المهجورة حتى تشهد للذاكرين يوم الدين (٥) .

وقد كانت مجالس الذكر إذا أقيمت فى هذا العصر ، بدأ المنشدون ينشدون الأشعار ليلهبوا بها حماسة الذاكرين وإن كان بعض الصوفية الذين زاروا

---

(١) العهود المحمدية ص ١١٢
(٢) المناقب الكبرى ص ١٤١ انظر كتابنا عن الشعرانى
(٣) البحر المورود ص ٢٣٣
(٤) العهود المحمدية ص ١١٢
(٥) الشعرانى : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٧

مصر فى العصر العثمانى وكانت لهم مكانة ملحوظة عند أهل التصوف، يرون أن إنشاد أشعار العارفين — من ابن العربى والتلسانى وغيرهما من السادة الصوفية — لا يجوز لغير القادرين على فهمها الذين لا تلهيهم بالطرب النفسانى وإلا كانت بمجرد لهو وبطالة[1] ويقول (عبد الغنى النابلسى) إن الصعق والزعق والصياح والاضطراب والتواجد عند سماع المغنين فى مجالس الذكر جهل من أصحابها، إلا إذا قام الذاكر للتواجد قومة المضطر الذى استفزته المعانى الإلهية الواردة على قلبه وخاطره فى ذلك الوقت — والكمال دوما فى السكون[2] والظاهر أن هذا الرأى لم يكن شائعاً بين الذاكرين فى مصر، فقد وصف النابلسى فى كتاب آخر مجالس الذكر فى جامع عمرو بن الفارض فذكر الصعق والوجد والبكاء والنحيب وإلقاء العمائم ونزع الثياب والزحام ونحو ذلك[3].

وكان يملأ الكثير من هذه المجالس الطبول والنايات والأعلام والرايات، وقد رأى النابلسى أنها لهو وجهل وبطالة لا ينبغى للشيخ المرشد أن يقر عليها أصحابه[4].

آداب الذكر :

وضعوا للذكر كثيرا من الآداب يسبق بعضها الذكر ويصحبه بعضها ويعقبه بعضها الآخر، فأولاها التوبة والتطهر والصلاة ونحوها، وثانيها يحدد طريقة الجلوس والجو الذى يختار لذلك، وحالة القلب والخاطر واختيار صيغة الذكر ونحو ذلك، وثالثها التهيؤ لاستقبال الوارد مع العزوف عنه، وشرب الماء البارد[5]... الخ

(١) النابلسى : كشف النور ص ٩٢ (٢) كشف النور ص ٩١

(٣) رحلة النابلسى ص ١٤٠ — ١٤١ (٤) كشف النور ص ٩١

(٥) قواعد الصوفية ص ١٥ (وكل نص لم يذكر مصدره فى آداب الذكر فهو مأخوذ عن هذا الكتاب ص ١٥ — ١٨ وقد نقل صاحب كتاب (آداب النقشبندية) هذه الآداب ص ٤٩ وما بعدها وكذلك فعل صاحب دلالة السائرين ص ٢٤ وما بعدها السير إلى الله ١٩ ه وتحفة السالك ٥٩ ه والوجه المقابل لصفحة ٩ ه (فى المخطوط)

ثمرات الذكر :

يؤدي الذكر إلى التزام الطاعات وتجنب المعاصي، بل يسلم الذاكر إلى حضرة الله ، فيضحى الحق سمعه وبصره وكل قواه، فينبثق العلم في نفسه، ويزايله الشك في أمره ، ويصبح باتصاله بالله قويا بعد ضعف آمنا بعد خوف ، بل تتسع قدرته حتى تتجاوز قوانين الكون ونواميس الطبيعة ومنطق العقل ..!

هذه أوهام تمثلت في خواطر هؤلاء العجزة ، الذين أعوزهم العيش على ما يحبون، وجهلوا «الاتصال العلي» الذي يربط بين المعلولات وعللها، فصوروا نواميس الكون على الوجه الذي يشتهون ..!

الخلوة :

كان المراد بالخلوة اعتزال المريد للناس للتفرغ لذكر الله والانقطاع لعبادته، ولهذا كثرت الخلوات بين جدران الزوايا وخارج جدرانها ، روى النابلسي في رحلته إلى مصر أنه لما زار زاوية الدمرداش رأى خارج ضريحه ، نحو خمسين أو ستين خلوة ذات أسوار وأنوار ، وهي التي تسمى مساجد الأنوار يختلي بها المريدون ، وصعد إلى سطح هذا القصر العالي (الزاوية) فوجد هناك رواقا كبيرا يتلألأ نوره وفيه كذلك كثير من الخلوات[١] .

ولعل انتشار الزوايا في أرض مصر يساعد على تصور كثرة الخلوات التي عرفها أهل التصوف أيام العثمانيين ، بل لم تكن الزوايا وحدها مقر الخلوات، فقد وجد بين المتصوفة من أخلص العبادة لله أو لمنفعة نفسه دون أن تكون له زاوية يقيم فيها مع مريديه . وقد أقام بعض هؤلاء «مغاور» يختلون بها للتعبد والذكر . وكان بعض هذه المغاور رحباً ملحوظ التناسق . فكانت مغارة الشريف أبي عبد الله المغاوري «منقوشة في الجبل مستوية مهندمة طولها داخل الجبل نحو خمسة وستين ومائة قدم وعرضها

---

(١) رحلة النابلسي ص ١٣٩

أكثر من عشرة أذرع،[١] وكانت الخلوات تقام أحيانا فى المنازل وتزدان جدرانها بالكلمات المأثورة وقدكانت خلوة جلال الدين البكرى بداره قاعة صغيرة جدا بإيوانين متقابلين وهى «لطيفة البناء ظريفة الفناء بها النور الساطع والسر اللامع القاطع ، وعلى جدرانها اثنان وعشرون بيتا من الشعر نظمت بتاريخ عام ٩٧٩ هـ [٢] .

التزامات الخلوة :

وللخلوة التزامات لاتستقيم بدونها ،كأن يعود المريد نفسه قبل دخولها ندرة الكلام وقلة الأكل حتى يتيسر له بعد ذلك أن يصوم فى خلوته ، لأن الجوع يحلل من جسمه الأجزاء الترابية والمائية . أما الشبع والارتواء فيجلبان النوم ويصرفان عن ذكر الله. ومن الأدب تيقظ القلب فى حضرة الله ومن لم يلتزم ذلك الشرط فقد أساء الأدب . يقول عمر بن الفارض :

إذا ما بدت ليـلى فكلى أعين وإن هى ناجتنى فكلى مسامع[٣]

ومن آدابها صفاء النية والرغبة فى الكف عن أذى الناس وإراحتهم من شره [٤] وانقطاع المريد عن زوجه وولده وعشيرته وسائر الناس[٥] ، وإدامة تفكيره فى شيخه ، مع الاعتقاد بأن خلوته مقبرته التى لن يبرحها إلى يوم الدين كما يقول الشعرانى والمنير [٦] وإن تفاوت أهل التصوف فى ذلك [٧]،

---

(١) رحلة النابلسى ص ١٤٠

(٢) رحلة النابلسى ص ٢٣٠ وبيت الصديق للسيد توفيق البكرى ص ٦٢ — ٦٣

(٣) العهود المحمدية ص ٢٧٩ — ٢٨٠

(٤) على البيومى : خواص سورة الفاتحة ص ١٣ و ١٤ ودلالة السائرين ص ٦٠

(٥) على البيومى : خواص سورة الفاتحة ص ١٤ (مخطوط)

(٦) دلالة السائرين ص ٧٠ .

(٧) انظر خواص سورة الفاتحة ص ١٣ والطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٢٧ و ص ٧٩ والكواكب الدرية ودلالة السائرين ص ٦٩

هذا بالاضافة إلى آداب المريد نحو الصور والأشباح التى تتراءى له، وعلى المريد ألا يكتم عن شيخه ما يراه فى أثناء خلوته[1] مما ينشأ عن الجو المعنوى الذى يحيط به نفسه، وهذا فوق شروط الخلوة[2] ونحوها.

ثمرات الخلوة:

إذا صحت الخلوة أفلحت الرياضة وأتت من الثمرات فوق ما يتصوره العقل، منها أن يكشف المريد عالم الغيب المحجب، ويدرك أسرار الحيـــوانات والحشرات ويعطى القدرة على فعل الكرامات وإتيان الخوارق والتصرف فى الكون بالهمة فيمشى على الماء ويطير فى الهواء ويقتحم النيران ويفعل كل مالا يقوى عليه سائر البشر[3] أقام المنزلاوى فى خلوته نحو عام يقرأ فى الليل ختما وفى النهار ختما ثم خرج ينفق من الغيب ويسد نفقات المريدين الذين كانوا يقيمون فى زاويته وقد بلغوا المائة عداً ويتعهد بالانفاق وجوه البر والخير من تعمير المساجد وبناء المارستانات ومد الأسمطة وغير ذلك[4] وغير هذا من ثمرات توهمها هؤلاء العجزة الذين أعوزتهم القدرة على الضرب فى زحمة الحياة، والظفر من الدنيا بأوفى نصيب، فالتمسوا فى عالم الخيال تحقيق ما يشتهون ..!

أركان الطريق:

قالوا إن العصر العثمانى قد أقبل وللطريق فى مصر أركان أربعة لا يستقيم بغيرها، ولا يتولى المشيخة واحد من أهله إلا إذا توفرت فيه خصائص هذه الأركان — التى تهيأت لأرباب الطريق قبل العصر العثمانى فى عرف الداعين إليها — وهذه الأركان هى: تلقين الذكر، إدخال الخلوة، إرخاء العذبة[5]

(١) أنظر عبد القادر العيدروسى: تكميل النور السافر ص ٢٣٨ والجبرتى ج ١ ص ٣٤٠

(٢) دلالة السائرين ص ٦٢

(٣) كتب الطبقات والمناقب حافلة بهذا النوع من الكرامات.

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٧

(٥) الشعرانى: الجوهر المصون ص ١ (مخطوط)

ــ وهى الزيادة المدلاة من العمامة ــ وإلباس الخرقة . وهى عرقية وجبة ورداء[١] ، أو طاقية من القطن[٢] ، أوهى الأثر قميصا أو رداء أو جبة أو عمامة . . ! ! وللشيخ الذى يقوم بهذه المهام الأربعة شروط تخرجه فى عرف المنطق عن نطاق البشر[٣] . . ! !

* * *

هذه هى الأركان الأربعة التى هيأها الوهم لأرباب الطريق ، وفى الحق لقد كان لهذا الوهم ما يبرره ، فقد فشى الدجل واستشرى داؤه وكثر أدعياء التصوف واستفحل أمرهم ، وقد بلغ عديد الطوائف التى هدتنا المصادفة الى معرفة أسمائها نحو الثمانين طائفة . ! لكل منها معسكرات فى القرى والأقاليم ، وهذا خلا الذين ادعوا التصوف مستقلين عن الفرق وشيوخها . ! ومن الخير الآن أن نبسط الحديث فى هذه الطوائف وليكن ذلك فى الفصل التالى :

---

(١) انظر قواعد الصوفية ص ٢٠ و٢٣٦ — ٧ والجوهر المصون ص ٣ و ٤ ودرر الغواص ص ٧٢

(٢) المناقب الكبرى لمحمد المليجى ص ٢٧

(٣) المناقب الكبرى ص ٦٥ — ٦٦

الفصل الثالث

فى الطرق الصوفية

نشأة الطرق الصوفية — حال الطرق فى وقتنا الحاضر —
الطرق أيام الثمانيين . احصائية ببعض أسمائها —
مميزات الفرق — تلاشى الفروق بين الطوائف

نشأة الطرق الصوفية :

يرى الأستاذ ماكدونالد أن المسلمين قد أثقلهم الجزع من الله الذى تخيلوه فى صورة المنتقم الجبار ، وضاقوا بالحياة لأن الفناء يدركها والشر يملأها ، وتصوروا الخير الأبدى فى الآخرة وحدها فمالوا إلى الزهد فى طلب الدنيا والإعراض عن مباهجها ، مخافة أن ينزل بهم غضب الله ، وانطلق بعضهم هائما على وجهه لا يعرف لنفسه مقصدا ولا لحياته غاية ، وكان هذا أظهر آيات الصوفى الصادق يومذاك ، ثم استسلم الصغار لقيادة من يكبرونهم سنا وخبرة ، فتألفت جماعات صغيرة تضم تلامذة يلتفون حول شيخهم الموقر ، وبذلك ظهر نظام الإخوان فى الإسلام وأنشئت الخوانق — فى غير مصر — منذ القرن الثانى للهجرة [1]. وكان كبار الناسكين والأولياء يجمعون حولهم طوائف من الأتباع (الدراويش) يحملون اسمهم ، ومن أقدم هذه الفرق : القادرية التى أسسها عبد القادر الجيلانى سنة ٥٦١ والرفاعية التى أنشأها أحمد

---

(١) وقيل فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة (انظر ص ١٠٨ فى كتاب الحياة الروحية فى الاسلام لزميلنا الدكتور محمد مصطفى حلمى)

الرفاعى + ٥٧٦ والشاذلية التى نسبت إلى الشاذلى + ٦٥٦ والأحمدية التى أنشأها أحمد البدوى + ٦٧٥ والنقشبندية التى أنشأها محمد النقشبندى +٧٩١ والمولوية التى أسسها الشاعر الفارسى المعروف جلال الدين الرومى +٦٧٣ هـ. ولا تزال هذه الطوائف وغيرها من الفرق التى نشأت بعدها قائمة إلى يومنا الحاضر. وثمة فرق اندثرت بعد أن قامت بفترة من الزمن، فابن سبعين كان له أتباع يحملون اسمه بعد مماته ولكن الزمان قد عفى عليهم فيما يلوح.

وكما ادعى المتصوفة أنهم ينحدرون من سلالة أتقياء المسلمين — ولاسيما العشرة الذين بشرهم النبي بدخول الجنة — فقد وجد من يدعون أنهم ينتسبون إلى الخلفاء الأول، وفى مصر من هؤلاء سلالة أبى بكر الصديق ولها نفوذ على شتى الطرق الأخرى كما أشار ماكدونالد[١].

وقال على مبارك إن أغلب الطرق منسوب إلى أربعة من كبار الأولياء: عبدالقادر الجيلانى وأحمد الرفاعى وأحمد البدوى وإبراهيم الدسوقى، فان لكل منهم طريقة واحدة خاصة ثم تعددت الطرق بتعدد من أخذها عنهم مباشرة أو بالوساطة ونسبت إلى الآخذين عنهم لتفرعها عن الأصل — أحدالسادة الأقطاب الأربعة — وتعددت الفروع حتى بلغت الأحمدية ستة عشر فرعا وفى البرهامية فرعين. «وقامت طرق أخرى مستقلة عن الأقطاب الأربعة كالسعدية والنقشبندية والشاذلية التى تفرعت إلى أربعة عشر فرعا تفرع أحدها مرة أخرى (الخلوتية) إلى أربعة فروع[٢] ولكن الأستاذ «لين» يذكر السعدية على أنها فرع من فروع الرفاعية[٣].

وفى طبقات الشرنوبى +٩٩٤ أحد متصوفة العصر العثمانى قصة خيالية طريفة أوضح فيها كيف اقتسم هؤلاء الأقطاب الأربعة الأرض فيما بينهم فكان لكل قطب ربعها، وقد صور فى القصة النزاع الذى قام بينهم عند اقتسام الأرض

---

(١) 1. D. B. Macdonald : Muslim Theology (1903) page 177

(٢) الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ١٢٩ — ١٣٠ (٣) لين Lane ص ٢٤٨

وتدخل الله وملائكته ورسوله وأوليائه للفصل فى قضيتهم ، ثم كيف ارتدوا جميعا بعد النزاع أصدقاء واخوانا [1]

ولعل ماأسلفناه فى هذا الفصل وما قبله يبرر الظن بأن تأسيس الطرق كان أمراً مردّه إلى شخصية الشيوخ ومهارتهم ، فقد ينتسب الشيخ إلى إحدى الطرق الأربعة أو غيرها فيجذب إليه كثرة من الأتباع والمريدين يحملون اسمه فى حياته ، فاذا مات خلفه ابنه أو أحد مريديه أو أقاربه كما عرفنا من قبل ، وتسلست الخلافة واستقلت طريقته ، وحمل أهلها اسمه بعد مماته ، وقد تتفرع عن طريقته فيما بعد طرق أخرى بأسماء جديدة ـ كما أشار على مبارك وكما سنعرف بعد قليل .

ولسنا نعرف التاريخ الذى قامت فيه الطرق الصوفية فى مصر على وجه التحقيق ، والراجح عندنا أنها نشأت بعد قيام الخوانق والربط والزوايا التى أسلفنا الحديث عنها فى الفصل الأول ، ويؤيد هذا ماعرفناه الآن من أن نشأة الفرق فى الاسلام كانت فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى، وفى هذا التاريخ نشأت الخوانق فى مصر كما عرفنا من قبل ، وأكبر الظن عندنا أن مصر لم تكد تشرف على العصر العثمانى ، حتى كانت تضم كثرة من الطوائف الصوفية نرى أسماءها تتردد كثيرا فى كتب المخضرمين من كتاب العصر، وفى طليعتهم الشعرانى .

حال الطرق فى وقتنا الحاضر :

والآن نحاول تأريخ بعض الجوانب فى الطرق الصوفية التى كانت قائمة فى مصر إبان العصر العثمانى فنحصى أسماءها ونحدد مميزاتها ونكشف عن علاقة شيوخها بالبلاد النائية عن مقرهم ، ولما كان ميدان هذا الحديث مظلما حالك الظلام ، وكان الكثير من الأمور تراثا يرثه الخلف عن السلف

(١) طبقات العزنوبى لمحمد البلقينى من ص ٣٩ إلى ٤٧

فقد آثرت الاستعانة على توضيحه بذكر تمهيد موجز يبين حال الطريق في يومنا الحاضر :

الطرق الصوفية القائمة اليوم في مصر خمس وأربعون طريقة[1] لكل منها شيخ له نواب في المراكز التي يستحوذ فيها على كثرة من المريدين والأتباع ، ثم خلفاء في البلدان والقرى [2] لكل منهم مريدون يسلكون على طريقة الشيخ ، ويدبر الشيخ أمر الخلفاء والنواب ويعينهم وفق ما يقتضيه هواه ، كما يدبر الخلفاء أمر المريدين من حيث العمل على إرشادهم ومراقبة تربيتهم على أكمل وجه يقتضيه الشرع[3].

قد هداني اتصالي ببعض كبار شيوخ الطرق في وقتنا الحاضر إلى أن الفوارق التي تميز الفرق بعضها عن بعض غير واضحة المعالم عندهم ، فهم يرون أن الطرق كلها واحدة وأن أعظم الفوارق بينها قائم في أشخاص شيوخها . سألت صاحب السماحة السيد عبدالحميد البكري شيخ مشايخ الطرق السالف في مصر : لماذا كثرت الطرق ولم يقتصر شيوخها على طريقة واحدة .. ؟ فقال ولماذا كثرت في الدين المذاهب ولم يقتصر شيوخه على مذهب واحد .. ؟ قلت إن الفقهاء في كثير من المسائل على خلاف جوهري أدى إلى وجود المذاهب المختلفة ، قال لعل أكبر الفوارق بين الطرق أن بعض شيوخها قد آثر العزلة عن الناس والابتعاد عن مشاغلهم مختليا بنفسه لينصرف إلى العبادة ويتفرغ إلى ذكر الله — وهؤلاء هم الخلوتية ومن سار سيرتهم . وآثر البعض الآخر ألا يقنع بعبادة الله بل يتصل بالناس ليتولاهم بالنصح والإرشاد

---

(١) من احصائية أمدني بها صاحب السماحة المرحوم السيد عبد الحميد البكري شيخ المشايخ السابق .

(٢) المادة التاسعة من الباب الثاني من لائحة الاجراءات الداخلية ص ١٣

(٣) وضع سماحة السيد توفيق البكري شيخ المشايخ السابق مع فريق من رجال التصوف كتابا دينيا أسماه « التعليم والارشاد » ليستعين به مشايخ الطرق وخلفاؤهم على ارشاد المريدين .

ويرفع عنهم ما هم فيه من غي وضلال ، وأولئـــك هم الشاذلية ومن سار سيرتهم .

وإني لأذكر عند كتابة هذا شيخ الطريقة الحفنية (الحفناوى) + ١٨٨١ وأذكر ما رواه عنه الجبرتى من أنه أخذ الطريقة الخلوتية عن السيد مصطفى البكرى ومع ذلك فقد كان قطب رحى الديار المصرية ولا يتم شيء فى الدولة إلا بإذنه .. ![١]

والمطلع على لائحة الطرق الصوفية فى وقتنا الحاضر يتبين من موادها أنها ألغت أكثر الفروق التى كانت تميز الفرق بعضها عن بعض منذ القدم كما سنعرف بعد قليل . هذا حال الطرق فى وقتنا الحاضر فماذا كان حالها أيام العثمانيين ؟

احصائية بالطرق أيام العثمانيين [٢] :

هدتنا المصادفة الى العثور على أسماء طرق كادت تبلغ الثمانين عداً ، فقد روى صاحب المناقب فى معرض الحديث عن الشعرانى أنه أخذ الطرق « كلها » عن مشايخه وهي ست وعشرون طريقة هي طرق الرفاعية والقادرية والأحمدية والبرهانية والشاذلية والسهروردية والنقشبندية والحسينية والوفائية والكشيرية والمدينية والفردوسية والخلوتية والهمدانية والطيفورية والشطارية والخضرية والأحمدية والعزيزية والسعودية والمصالحة والطيلسان والرداء والمئزر وإرخاء العذبة [٣].

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٣٠٥

(٢) وازن بين هذه الاحصائية وما يذكره الأستاذ « لين » Lane فى كتابه السالف الذكر من طرق صوفية فى مصر ، وما يورده الأستاذ ماسينيون فى مادة Tarika فى دائرة معارف الدين والأخلاق Encyclopedia of Religion & Ethics عن الطرق الصوفية فى الاسلام .

(٣) المناقب الكبرى ص ٦٦

والظاهر أن هذه الطرق لم تكن كل ما قام فى مصر إبان العصر الذى عاش فيه الشعرانى ، فان فى الكثير من كتبه ذكر طرق أخرى لم تذكر فى هذا الثبت، نذكر منها الآن ما لم يذكر فى ثبت المناقب السالف . ذكر الشعرانى فى أكثر من موضع فى لطائف المنن فرقا منها : المطاوعة بالشرقية والصعيد (١) وفى قواعد التصوف يذكر طوائف البسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية (ولعلها البرهامية) والملامنية والحيدرية . (٢)

وفى العصر العثمانى وجدت فرق تصادفنا اسماؤها فى غير كتب الشعرانى منها ما رواه الجبرتى عن أصحاب البدع كجماعات العفيفى والسمان والعربى والعيسوية (٣) وأخرى رواها فى مواضع أخرى مع بعض ما أسلفناه منها فرقة السعيدية (٤) والشعيبية (٥) ثم الشاوية (٦) والشعرانية (٧) والمولوية (٨) ثم البراهمية والقدرية (٩). وذكر عبدالغنى النابلسى فى رحلته إلى مصر فرقا

---

(١) الشعرانى : لطائف المنن جـ ١ ص ١٢ و ٢٣٤

(٢) « : قواعد التصوف ص ١٧٥ — ١٧٦

(٣) الجبرتى جـ ٣ ص ٤١

(٤) الجبرتى جـ ٣ ص ٦

(٥) الجبرتى جـ ٤ ص ٢٠٣ وبيت الوفائية للسيد توفيق البكرى ص ١٩

(٦) الجبرتى جـ ١ ص ٢٨٩ والنابلسى فى رحلته ١٣٣ و «لين» ص ٢٤٩

(٧) الجبرتى جـ ٢ ص ٢٢٦ (ترجمة لشيخ سجادتها الشيخ عبد الرحمن الشعرانى سنة ١٢٠٠ هـ وذكرها الأستاذ لين ص ٢٤٩

(٨) الجبرتى جـ ١ ص ٣٦٦

(٩) (والراجح أن المراد بالأولى « البرهامية » وقد كثر تحريفها واختلف المؤرخون فى اسمها فالسيد توفيق البكرى (٢٧٣ من بيت الصديق) والسيد عبد الحميد (فى الاحصائية السابقة الذكر) والشعرانى أحيانا (١٢ و ٢٣٤ جـ ١ لطائف) يذكرونها « البرهامية » وصاحب المناقب الكبرى يذكرها البرهانية (ص ٦٦) . أما الجبرتى (جـ ٣ ص ٦) وعلى مبارك (الخطط جـ ٣ ص ١٣٠) والشعرانى (العهود المحمدية ص ٢٨١) فيذكرونها البراهيمية والأصح فيما نعلم « البرهامية » والراجح أن الجبرتى يريد بالقدرية طائفة القادرية المعروفة .

أسلفنا بعضها ويضيف فرقة الدمرداشية [١] والبكتاشية [٢] والكلشنية [٣] وتشير طبقات الشاذلية إلى طوائف أخرى منها العفيفية [٤] (ولعلها جماعة العفيفي التي ذكرها الجبرتي من قبل).

وذكر علي مبارك أن الفرقة الأحمدية قد تفرعت إلى ست عشرة طريقة هي: المرازقة والكناسية والأنبابية والمنايفة والحمودية والسلامية والحلبية والزاهدية والعشيبية (وقد ذكرناها من قبل) والبيومية والتسفيانية والشناوية والعربية (ولعلها جماعة العربي السالفة الذكر) والسطوحية والبندارية والمسلمية ويذكر الأستاذ « لين » طائفة أولاد نوح من فروع الأحمدية [٥].

وقال إن الرفاعية لا فروع لها وإن كان لها ثلاث بيوت هي البازية والملكية والحبيبية. والفرق بين الفروع والبيوت أن لكل فرع شيخا أما البيوت فيجمعها شيخ واحد، وأما القادرية فلا فروع لها ولا بيوت [٦]. وأما البراهمة (أي البرهامية) فلها فرعان هما الشهاوية والشرانية (ولعله يريد الشرنوبية المنسوبة إلى أحمد عثمان الشرنوبي صاحب الطبقات المعروفة والمتوفى سنة ٩٩٤٠ هـ) وقال إن الشاذلية قد تفرع عنها أربع عشرة طريقة هي الجوهرية والقاسمية والمدنية (ولعلها المدينية التي رواها صاحب المناقب) والمكية والهاشمية والفروسية والتهامية والخندوشية والإدريسية والقاووقجية، ثم طرق أخرى سلف ذكرها (هي

---

(١) رحلة النابلسي ١٣٣ و « لين » ص ١٤٩ (٢) رحلة النابلسي ص ١٠٣

(٣) رحلة النابلسي ١٠٦ ويرى علي مبارك (في خططه جـ ٣ ص ١٤٠) أنها تنسب الى ابراهيم سنة ٩٤٠ هـ

(٤) طبقات الشاذلية ص ١٥٨ (٥) الأستاذ « لين » ص ٢٤٩

(٦) الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ١٣٠ . وقد ذكر السيد توفيق في « بيت الصديق » ص ٢٧٣ فرعين لهذه الطائفة هما الفارضية والقاسمية وذكر الأستاذ « لين » أن السعدية فرع من فروع الرفاعية كما قلنا منذ حين .

السمانية والعفيفية والعيسوية والخلوتية المنسوبة إلى السيد مصطفى البكرى[1] وقد تفرع عنها أربع طرق هى الحفنية (المنسوبة الى الحفناوى + ١١٨١ هـ) والسباعية والصاوية والضيفية[2] .

والظاهر أن الدمرداشية قد تفرعت كذلك عن الخلوتية (المتفرعة عن الشاذلية) فان عبد الغنى النابلسى يقول إن الشيخ شاهين قد اتهم بمعالجته الكيمياء فنفر عنه أكثر أتباعه ومريديه وانتقلت شهرته العظيمة للشيخ دمرداش حتى استقر شيخا للخلوتية فى الديار المصرية[3] . وينص صاحب تكميل النور السافر على أن محمد كريم الدين الخلوتى قد تلقى الخلوتية عن دمرداش المحمدى + ٩٣٣ هـ[4] . ولا ينبغى أن ننسى البكرية التى تزعمت الطريق فيما بعد .

وقد حاول السيد توفيق البكرى أن يؤرخ الطرق الصوفية القائمة فى العالم الإسلامى كله ، ولكن صعوبة الاهتداء إلى أصلها وتسلسلها ومعرفة تاريخ نشأتها كانت تحمله على الاكتفاء فى تأريخ أكثرها بأن يقول « منسوبة الى فلان ، أو موجودة بمصر الآن[5] وقد صادفتنا هذه الصعوبة عندما حاولنا الاهتداء إلى نشأة هذه الفروع التى تحدث عنها على مبارك وإن كان الراجح على الظن أن أكثرها كان قائما فى العصر العثمانى ، فقد كتبت الخطط التوفيقية بعد هذا العصر بأقل من قرن كان سلطان الصوفية فيه قد أخذ يضمحل — وإن كان ذلك لا يبرر القول بأن الطوائف قد قل عديدها باضمحلال السلطان

---

(١) هذا رأى على مبارك والراجح أنه غير صحيح فالطريقة الخلوتية كانت قائمة فى مصر قبل مصطفى البكرى وكان زعيمها فى مستهل العصر العثمانى دمرداش المحمدى وتلاه تلميذه محمد كريم الدين الخلوتى .

(٢) الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ١٢٩ — ١٣٠

(٣) رحلة النابلسى ص ١٣٩

(٤) تكميل النور السافر ص ٧٠٣ (ويروى صاحب طبقات الشاذلية ص ١٣٦ أنه مات سنة ٩٣٩ هـ) ولعل الأول أصح .

(٥) بيت الصديق ص ٣٧٤ — ٣٨٦

الذى كان لأهلها فان عددها فى السنوات الأخيرة يزداد كما يبدو من احصائيتين. نراهما فى مكتبة مشيخة المشايخ مع أن سطوة أهل الطريق آخذة فى الزوال بمرور الزمان.

مميزات الفرق :

الخصائص التى تميز هذه الفرق بعضها عن بعض قليلة لاتكاد تذكر، وأولها ما يختص بالزى وثانيها ما يتعلق بطريقة الذكر والعبادة ؛ فأما عن الأول فقد عرفت الأحمدية بالزى الأحمر والبرهامية بالزى الأخضر والرفاعية بالزى الأسمر كما يقول على مبارك « والأستاذ لين » [1] أو الأسمر والأبيض كما يقول السيد توفيق ، وعرفت القادرية بالزى الأخضر وإن قال الأستاذ لين أن بيارقهم وعمائمهم بيضاء[2] وعرفت بالزى الأخضر كذلك السعدية [3] ويقول على مبارك إن اعلام الشاذلية مختلفة الألوان وليس للخلوتية علم وزيهم الذى يميزهم هو الفاروق ، كما أن الأولياء الذين تنسب إليهم الأحزاب المعتاد قراءتها ليس لها علم وزيهم الخاص هو التاج [4] وكان التاج من مميزات الخلوتية كما يشير صاحب السنا الباهر [5]

ومن هذا نرى أن الزى وحده غير كفيل بتمييزهم ، فان الزى الأخضر مثلا تتفق فيه القادرية والسعدية والبرهامية ـ بفرعيها وكذلك نقول فى الأحمدية والشاذلية وغيرها من الطوائف المتعددة الفروع . وكان أولاد

---

(١) « لين فى كتابه ص ٢٤٨ يقول أن رايات الرفاعية سمراء وعماماتها سمراء أو اللون الأزرق القاتم

(٢) « لين » ص ٢٤٩

(٣) بيت الصديق ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٩ و ٣٨٨ — الخطط التوفيقية ج٣ ص ١٣٠ و « لين » ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٤) الخطط التوفيقية ج ٣ ١٣٠ .

(٥) تكميل النور السافر ص ٧٥٣ .

نوح صغارا يرتدون جميعا طراطير تزينها من القمة خصل من الخرق ذات الألوان المختلفة ، ويتقلدون سيوفا من الخشب ويمسكون سوطا يسمونه « فرقله » (١)

فأما وجه الخلاف بينها فى طريقة العبادة والذكر فنذكر ما عثرنا عليه بين ثنايا السطور مما ذهب أشتاتا فى بطون كتبهم ، إذ لم نهتد إلى مصدر عرض لوجوه الخلاف بينها بإسهاب ولا ايجاز .

والظاهر أن أكبر مايميز الطوائف وردها — كما يقول « لين » فلكل طائفة ورد أو حزب أنشأه شيخها وحرص عليه أتباعه فى حياته وبعد مماته، يرددونه فى الأوقات التى حددها لهم ويتلونه جماعة دون أن يتغيب عن تلاوته أحد منهم ، لأن مدد الشيخ فى ورده كما يقول الشعرانى . ولهذا كان من أعظم ما يقع فيه المريد من سوء الأدب مع شيخه تغيبه عن تلاوة الورد الذى رتبه صباحا ومساء ، وقد حتموا على المريد إذا اضطره للتغيب ظرف قاهر أن ينبىء شيخه ليناقشه فيه الحساب ، فان كان تغيبه من غير عذر وجب أن يؤنب نفسه أمام إخوانه والاشتغال بالعلم ودراسة الدين لا يصلح قط أن يكون عذرا يحتمى به من قصر فى حضور مجالس الورد (٢) بل لقد اعتبر بعضهم التغيب عن مثل هذه المجالس سببا يبرر طرد الشيخ للمريد الذى يقدم عليه (٣) ، وقد جرت العادة بأن يعتز الشيخ بورده ، فلا يأذن لأحد ممن يسلكون على يده أن يقرأ ورد غيره ، فمن ذلك أن الشيخ محمود الكردى قد سلك على طريقة القصيرى ولكنه رأى الحفناوى + ١١٨١ هـ فى رؤيا وقيل له هذا شيخك ، فعلق به قلبه وأخذ عنه طريق الخلوتية ، وسلك على يديه وإن أقام على قراءة

---

(١) « لين » ص ٢٤٩ .

(٢) قواعد الصوفية ص ١٦٤ — ١٦٦ .

(٣) دلالة السائرين ص ١٢٦ .

أوراد شيخه «القصيرى» . فعاتبه فى هذا شيخ شيخه «السيد مصطفى البكرى» وكان الكردى قد كبر وعظم شأنه وأجيز وأذن له بارشاد المريدين وتربيتهم ، فاعتذر عن مسلكه بالخوف من شيخه القصيرى ، فطلب اليه البكرى أن يستخير الله ، ولما استجاب لمطلبه رأى فى منامه رسول الله وقد وقف القصيرى عن يمينه والبكرى عن يساره ، وقال القصيرى للرسول : أليست طريقتى على طريقتك ، وأليست أورادى مقتبسة من أنوارك .؟ فلماذا يأمر السيد البكرى بترك أورادى . . ؟ فقال البكرى : يارسول الله ، رجل سلك على أيدينا وتولينا تربيته ، أيجوز له أن يهجر أورادنا ويقرأ أوراد غيرنا . . ؟ ويقول الراوى إن رسول الله قد أبى أن يفصل فى أمرهم وأشار عليهم بعمل القرعة . . !! ورأى الكردى فى رؤيا وقعت له فى الليلة التالية . أن أبا بكر الصديق يشير عليه باتباع السيد البكرى ، ورأى بين السماء والأرض ورده وقد كتب بحروف مجسمة من النور ، فانشرح صدره وهجر القصيرى بعد ذلك.![1]

على أن الأحزاب فيما نرى لايميزها الا اختلاف واضعيها لأنها أدعية يتوجهون فيها إلى الله ، وصيغ مختلفة للصلاة على نبيه ، وهى فى الجملة حافلة بآيات من القرآن الكريم ، والكثير من فقراتها يتكرر مرات يختلف عددها حتى ليبلغ الثمانين — كما فى نرى حزب الشناوى[2] أو الثلاثين كما نرى فى حزب الشعرانى[3] أو الثلاث مرات كما فى حزب الجارحى وغيره[4] بل لقد هدتنا المصادفة الى أن حزب أبى السعود الجارحى مأخوذ كله — ماعدا خاتمته — من حزب الخصوصية للسادة الوفائية[5] أو لعل الجزء الأول من الحزب الثانى هو المأخوذ من حزب الجارحى ، فما ندرى التاريخ الذى وضع فيه حزب

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٦٥ — ٦٦ ومن الواضح أن القصة مردها إلى حالة الكردى النفسية أثناء يقظته ، فى إعجابه بالحفناوى وتخاوفه من القصيرى واعتقاده فى البكرية ... الخ

(٢) مجموعة الأحزاب ص + ٣٤ (مخطوط)

(٣) مجموعة لأحزاب ص + ٢٨

(٤) مجموعة الأحزاب ص + ٣٣

(٥) مجموعة الأحزاب ص + ٣٣ ثم ص + ١٧٨ — ١٨٠

الوفائية هذا — ونلاحظ كذلك أن لبعض المتصوفة حزبين أو ثلاثة كما نرى عند زين العابدين البكرى [١] ومحمد أبى الحسن البكرى [٢] وغيرهما وقد يضع شيوخ البيت الواحد عدة أحزاب تتلى جيلا عن جيل كما نرى فى بيت السادات البكرية والوفائية [٣] ووجوه التمايز بين الأحزاب لاتكاد تظهر فى غير الصياغة اللفظية . ولهذا فإن أظهر الفروق بين الأحزاب فيما يلوح لنا هو اختلاف منشئيها .

ويلى هذا فى وجوه التفرقة بعض مظاهر أخرى هدتنا المصادفة إلى العثور على بعضها فى بطون كتبهم ، منها ما رواه الجبرتى عند الكلام على أهل البدع كجماعة العفيفى والسمانى والعربى والعيسوية إذ قال إن لهم طريقة خاصة بهم فى ذكر الله ، فمنهم من يتحلق ويذكر الجلالة ويحرفها وينشد له المنشدون القصائد والموالات ، ومنهم من يقول أبياتا من بردة المديح للبوصيرى ، ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبى . وأما العيسوية فهم جماعة من المغاربة وما دخل فيهم من أهل الأهواء ينسبون إلى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدى محمد بن عيسى وطريقتهم أنهم يجلسون قبال بعضهم صفين ويقولون كلاما معوجا بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على النغم ضربا شديدا مع ارتفاع أصواتهم ، وتقف جماعة أخرى قبالة الذين يضربون بالدفوف فيضعون أكتافهم فى أكتاف بعض لايخرج واحد عن الآخر ويتلون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة بحيث لا يقوم هذا المقام إلا كل من عرف بالقوة وهذه الحركات والإيقاعات على نمـــط الضرب بالدفوف فيقع بالمسجد دوى عظيم

---

(١) مجموعة الأحزاب ص ١٤٠ + ١٤٥ ، ١٥٣ ،

(٢) مجموعة الأحزاب ص ١٨٢ + ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢٥٣

(٣) تنظر مجموعة الأحزاب السالفة الذكر ، (فهرس رقم ١ المطبوع بدار الكتب فى التصوف والعلوم الدينية) .

وضجات من هؤلاء ومن غيرهم من جماعة الفقراء كل أحد له طريقة تباين الأخرى » [١].

ويمتاز فقراء الخلوتية فى ذكرهم وأورادهم بكثرة الاستغفار والتسبيح والصلاة على النبى ، ولهم فى ذلك صيغ يرددونها فصلها الذين أرخوا هذه الطريقة [٢] أما طريقة تلقينهم للذكر فخير ما يميزها ترداد الأسماء السبعة على نمط مخصوص وفى فترات متقطعة والأسماء الستة الأولى فى الأذن اليسرى وهى : لا إله إلا الله وقد عرفنا كيف تردد ثلاث مرات مع إغماض العينين ثم : الله — هو — حق — حى قيوم — ثم الاسم السابع فى الأذن اليمنى وهو قهار — وقد أبان الدردير الطريقة التى تلقنها بها من الحفناوى المعروف [٣].

ولقد كان للسادات الدمرداشية والخلوتية والشناوية طريقة فى ذكر الله ، فقد رويناها عن عبد الغنى النابلسى وقلنا إنهم كانوا يقدمون للذكر محلقين ثم يدورون وقد وضعوا أيديهم بعضها فى بعض ، وذكروا الله فى رقصة يسمونها الهوية قائلين هو هو هو [٤] وكان بعضهم يركبون أياديهم إلى الوراء أمام رءوسهم ويحركونها بالتصعيد والتسفيل والتلوى على هيئة لعبة يسميها النصارى ركض الديك . كما يقول محمد بن صفى الدين الحنفى [٥].

وكان أظهر ما يميز الفقراء السعدية إكثارهم من ذكر الله ، حتى إذا طاب لهم الذكر تواجدوا واضطربوا واسّاقطوا على الأرض كالخشب المسندة لا يقوون على النهوض بل لا يستطيعون حراكا حتى يقوم نقيب الشيخ بكبس أيديهم وأرجلهم وإنهاضهم على بركة شيخهم ، ومن كرامات بعضهم فى هذه الحال

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٤١

(٢) الطريقة الصاوية ص ١٦ وما بعدها

(٣) الطريقة الصاوية ص ٣١ وما بعدها

(٤) رحلة النابلسى من ص ١٣٣ الى ١٣٥

(٥) الصاعقة المحرقة ص ٢

إخراج سائل ملون بالأحمر والأبيض أو الأصفر من أيديهم ومواضع أخرى فى أجسامهم دون أن يصيبهم جرح أو يكون فيهم منفذ لذلك ..!! [١] ولعله العرق الناشيء عن الجهد، قد لوثته قذراة البشرة أو الدم الذى ينبثق من جروح تنشأ عن عنف الحركات ...!

والظاهر أن البرهامية كانت تتميز فى عبادتها بذكر الله بصيغة ياداثم، فقد قال الشعرانى فى ترجمة عبد العال المجذوب: «ورأيته مرة وهو صاعد كوم بلده فقلت فى سرى ياترى هل هو أحمدى أم برهامى فصاح: يا دائم ياداثم يشير إلى أنه برهامى [٢]».

ويرجح الدكتور عفيفى القول بأن الملامتية «لم يكن لهم طريقة منظمة وقواعد ثابتة مقررة وأتباع ينتمون إلى المشايخ إنتماء أهل الطرق المتأخرين، ولكن كانت لهم صفات وآداب تكفى فى التمييز بينهم وبين طوائف الصوفية الأخرى ممن عاصروهم أو عاشوا بعدهم» [٣].

وفى السهروردى [٤] والمقريزى [٥] تفرقة بين الملامتية والقلندرية جاء فيها «أن الملامتى يعمل فى كتم العبادات والقلندرى يعمل فى تخريب العادات والملامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه إلا أنه يخفى أحواله وأعماله ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه تسترا للحال حتى لا يفطن له وهو مع ذلك متطلع إلى المزيد من العبادات، والقلندرى لا يتقيد بهيئة ولا يبالى بما يعرف من حاله ومالا يعرف ولا ينعطف إلا على طيب القلوب وهو رأس ماله» والظاهر أن حال الملامتية لم يتغير كثيرا فى العصر العثمانى عما كان عليه أيام المقريزى، فالشعرانى يقول إنهم يقللون النوافل مخافة الغرور [٦] وإن كان قد ذكرهم فى كتاب آخر بين الفرق التى لا تتقيد بمظاهر الكتاب

(١) الصرة الالهية للطائفة السعدية
(٢) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٦١
(٣) أبو العلا عفيفى: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٤
(٤) عوارف المعارف ص ٣ و ٤ (على هامش جـ ٢ من الأحياء)
(٥) خطط المقريزى جـ ٤ ص ٣٠١
(٦) البحر المورود ص ٢٨١

والسنة[١] وإن كان ابن عربى « يرفعهم — فى فتوحاته — إلى مقام فى الولاية لا يدانيهم فيه أحد » فيما يقول الدكتور عفيفى .

وكان فقراء المطاوعة يجتمعون فى حلقات الذكر ويتخذون لهم مغنين من الرجال ومساعدين يدقون الطبول ويضربون الكورس وأولاداً يجلسونهم وراء الذاكرين حتى إذا اشتدت حماسة الذكر هجم عليهم الأولاد واحتضنوهم من الخلف تيمنا وبركة ، وكانوا إذا ساروا وضعوا فوق رءوسهم أو على جنوبهم « ملاحف وسراويل » فاذا انطلق الفقراء فى الطرقات نشروا راياتهم ودقوا طبولهم وضربوا على كئوسهم وكان لموكبهم ضجة عظيمة ، وقد كانوا يتخذون « أباريق » يملأونها بالماء ويحملونها فى أيديهم كلما ساروا ليتطهروا منها بين الحين والحين ، وسبحا كبيرة من الخشب أو العظم أو نحو ذلك ، وسيوفا من الخشب ومزاريق من الحديد وطواقى من السعف وطراطير يضعون عليها الودع والريش والخرق الحمراء وغيرها [٢] .

ويعبر الجبرتى عن الأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية بأنهم من أصحاب الأشاير[٣] والمراد بالأشاير كما يقول على مبارك جموع كثيرة من أهل الطرق يسيرون من منازلهم ليلا وبأيديهم الشموع وهم رافعوا الأصوات بالذكر والتهليل والصلاة والسلام على سيد المرسلين (ص) ولا يزالون كذلك حتى يصلوا إلى الشريح أو محل الاحتفال بالمولد ، ولبعضهم عادات من الحلو أو الشموع توزع عليهم حين وصولهم بعضها مقرر من الأوقاف وبعضها من مشايخ خدمة الأضرحة [٤] .

واشتهر فقراء السعدية والرفاعية بحوادثهم مع الثعابين ، ولعل الرفاعية كانت أشهر الطرق بالكرامات التى تقوم على طعن النفس بالمدى فى حالة الغيبوبة وأكل الزجاج والقبض على الحديد المحمى ودخول النار وازدراد

(١) قواعد الصوفية ص ١٧٥ (مخطوط)

(٢) فتوى الشيخ على الصعيدى (مخطوط)

(٣) الجبرتى جـ ١ ص ٨٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨

(٤) الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ١٣١

الأفاعى وغير ذلك مما لا نزال نرى الكثير منه (١) وإن كانت لائحة الطرق الحالية قد حرمته على فاعليه.

ومن أظهر مميزاتهم : البيعة وتلقين الذكر ، وكانت طريقتهم فى الأولى أن الطالب إذا وفد على شيخهم أمره هذا بأن يتوضأ ويصلى ركعتين بنية التوبة والإنابة ثم يجلس المرشد (الشيخ) مستقبلا القبلة جاثيا على ركبتيه بالأدب والخشوع ويجلس الطالب أمامه لاصقا ركبتيه ، ثم يقرأ الفاتحة ثلاث مرات ويأخذ المريد بعده ويقرأ قوله تعالى إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ... ثم يأمر المريد بأن يقول : أستغفر الله — أستغفر الله العظيم الذى لا اله إلا هو الحى القيوم وأتوب اليه ، تبت إلى الله و رجعت إلى الله ونهيت نفسى عما نهى الله ، ورضيتك شيخا لى ومرشدا لطريقة الرفاعى — فيقول له المرشد : وأنا أقبلتك مريدا بهذه الطريقة العلية وعلى هذا العهد المبارك ثم يقول له : قم مريدا فى هذه الطريقة.

أما طريقتهم فى تلقين الذكر فلا تكاد تختلف عما أسلفناه من حيث ترداد لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمض العينين ، وإن رأوا مد الصوت فى أول الكلمة من الكتف اليمنى إلى جهة الروح — تحت الثدى اليمنى . «حتى يقرع بها» لفظة الجلالة فى القلب الكائن تحت الثدى اليسرى باصبعين فاذا أتمها المرشد وضع جبهته على جبهة الطالب ويده على صدره ودعا له بالتوفيق والاخلاص والبركة . « ثم ... إلى آخر ما كتبه مؤرخو الطريقة بهذا الصدد مع ذكر أورادهم الخاصة بهم والأدعية التى ألفوا تلاوتها (٢).

أما الطريقة النقشبندية فان طريقة أخذ العهد عند أهلها أن يجلس المريد بين يدى شيخه متوركا عكس تورك الصلاة فيبين له الشيخ محل القلب

---

(١) الأستاذ « لين » ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ، الغارة الالهية فى الانتصار للسادة الرفاعية ص ٣٢ و٣٦ والكتاب كله منصب على منكرى هذا النوع من الكرامات.

(٢) القواعد المرعية فى أصول الطريقة الرفاعية.

الصنوبرى الشكل الكائن تحت الثدى اليسرى بأصبعين ثم يستغفر الشيخ ربه والمريد يتابعه خمسا وعشرين مرة ثم يقرأ الشيخ الفاتحة مرة وسورة الاخلاص ثلاث مرات ويهدى مثل ثوابهما إلى صحيفة النبي وصحيفة إمام الطريقة محمد الادريسي المعروف بشاه نقشبند ثم يأمر المريد أن يغمض عينيه وينظر بخياله إلى قلبه ويتوجه اليه على النحو المعروف عندهم ، ثم يلقنه ما يناسب استعداده من أذكار نراها منشورة فى الكتب التى تناولت آداب هذه الطريقة[١] ومن هذا نرى أن الفوارق فى هذا الصدد شكلية تافهة .

وفى كتاب الأستاذ « لين » وصف ظريف لما كانت تفعله بعض الطوائف كالسعدية والشناوية فى المولد النبوى وغيره من موالد كبار الأولياء .

والواقع أن الفوارق بين الطرق لم تكن جوهرية فى هذا العصر ، فقد كان الشائع بينهم أن يجمع الفقير بين عدة طرق ، وإن كره الأشياخ لمريديهم أن يأخذوا على شيخين مهما كان السبب الذي يبررون به هذا المسلك . فقد جمع عبد الحى زين العابدين الحسينى + ١١٨١ بين الطرق الشاذلية والأحمدية والشناوية[٢] وجمع على البيومى + ١١٨٣ هـ بين الخلوتية والشاذلية والدمرداشية والأحمدية[٣] وجمع الشعرانى + ٩٧٣ بين ست وعشرين طريقة بسطنا أسماءها فيما سلف ، وجمع الدردير + ١٢٠١ هـ بين الخلوتية والشاذلية والنقشبندية[٤] .

تلاشى الفروق بين الطوائف :

ومما يشهد بأن مميزات الطرق ليست شرطا فى وجودها ما نراه من التطور الذى آلت اليه طريقة الذكر عند الطرق جميعها ، فان لائحة الطرق الصوفية فى وقتنا الحاضر تقضى بأن يكون الذكر تمجيدا لله ، صريحا قياما أو قعودا مع

---

(١) آداب النقشبندية ص ٤٠ — ٤١

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ٢٨٩

(٣) الجبرتى جـ ٢ ص ٣٢٩ وطبقات الشاذلية ١٤٣

(٤) طبقات الشاذلية ص ١٥٥ — ١٥٦

الخشوع والوقار [١] وهذا التحديد قد أفقد العيسوية وأخواتها من الفرق المشابهة أكبر مميز لها كما روينا عن الجبرتى وغيره الآن، والفرق كلها مضطرة الى الخضوع لهذا التحديد وإلا أعلن المجلس الصوفى فصلها وقضى بذلك على وجودها كما تنص لائحة الاجراءات الداخلية [٢] وكذلك نقول فى الرفاعية التى عرفنا الآن أعظم خصائصها، فان اللائحة السالفة الذكر تقول: يبعد عن الطرق الصوفية « كل من اتصف بأعمال مناقضة للأعمال والآداب الشرعية كضرب الجسم بالسلاح وأكل الحشرات والهوام ودوس الأنام بالأنعام ونحوها والذكر بهيئة الرقص والتخبط وعدم استكمال الحروف فيه وإنشاد الأغانى المخلة بالآداب عليه، وإقامة الزار فى الأضرحة ونحو ذلك[٣] وفى ذلك ما يسلب الخلوتية والدمرداشية والشناوية وغيرهم مميزا خاصا بهم فى طريقة الذكر وهو الرقص كما روينا عن عبد الغنى النابلسى وغيره من قبل.

ولعل شعور أهل التصوف بضآلة الفارق بين طريقة وطريقة، هو الذى حملهم على أن يضعوا فى لائحة الاجراءات الداخلية هذه المادة « يجوز زيادة طريقة جديدة متى كانت الطريقة المستجدة لا تشابه طريقة من الطرق الموجودة فى اسمها واصطلاحها [٤] فكأن الخلاف الوحيد الذى يبرر استقلال طريقة أو قيامها هو الاسم والاصطلاح. بل إن وجود لائحة تسير عليها جميع الطرق وتحديد طرق العبادة على النحو الذى أسلفنا بعضه، كفيل بالقضاء على أكثر مميزات الفرق بعضها عن بعض. وقد أسلفت رأى صاحب السماحة شيخ مشايخ الطرق السابق فى هذا الصدد.

بل لماذا نقول إن الفوارق بين الفرق اليوم قد تلاشت ولا نقول إن اللائحة التى وضعها أهل التصوف قد ألغت الفروق بين الصوفية والفقهاء..!؟

---

(١) لائحة الاجراءات الداخلية المادة الثالثة من الباب الخامس ص ١٨

(٢) المادة الرابعة من الباب الثانى ص ١٢

(٣) المادة الثانية من الباب الخامس ص ١٧

(٤) « الخامسة « الباب الثانى ص ١٢

أليست تقول إن التصوف لامقصد له غير العلم بالشرع والعمل به [1] . فما هي دعوى رجال الفقه إن لم تكن كذلك ؟ وإذا كانت الفوارق بين الطرق التي تعيش اليوم بين ظهرانينا مجهولة حتى عند أهلها ، فكيف لا يصعب البحث عن المميزات التي كانت للطوائف منذ مئات السنين ... ؟ وأى طوائف ... ؟ هي التي هدتنا المصادفة إلى العثور على نحو ثمانين من أسمائها ، فكيف لا يتعذر على الباحث معرفة الفروق التي تميز كلا منها .. ؟

والآن نتساءل : ألم يكن لهذه الفرق التي بلغت هذا العدد الرهيب رئيس عام يوحد كلمتها وينظم علاقتها ويفصل في مشاكلها .. ؟ ذلك ما نتناول الحديث عنه في الفصل التالي :

---

(١) المادة الأولى من الباب الخامس من لائحة الاجراءات ص ١٧

الفصل الرابع

مشيخة مشايخ الطرق الصوفية

بالديار المصرية

رأى جرجى زيدان فى نشأتها بمصر ومبلغ الخطأ فى مزاعمه — رأى السيد توفيق البكرى ومدى الخطأ فيه — نشأة هذا اللقب فى مصر قبل العصر العثمانى — تلاشى اللقب فى العصر العثمانى .

تمهيد

عرفنا كيف كثرت الطرق الصوفية فى مصر حتى بلغ عديد أسمائها التى هدتنا المصادفة إلى العثور عليها نحو الثمانين فرقة، كان لكل منها معسكرات قائمة فى القرى والأقاليم ، واستبد نفوذها بهوى الألوف من الأتباع والمريدين ، وامتد سلطان كبار شيوخها حتى ارتفعوا فوق قواعد الدين ومقتضيات التقاليد ونظم الدولة . . ! ! ودان بالولاء لهم حكام البلاد وعلماء الدين وعامة الشعب جميعا ، فكان طبيعيا بعد هذا أن تفكر الدولة فى توحيد الزعامة التى تخضع لها هذه الطرق ، حتى تأمن شرها وتتقى عصيانها وتضمن سيادتها على أرض البلاد . . ! ولم يكن بعيد الاحتمال أن يخضعوا جميعا من تلقاء أنفسهم لرئيس واحد يتخيرونه ، ليتكلم باسمهم ويفصل فى مشاكلهم وينظم علاقاتهم .

ومشيخة مشايخ الطرق فى وقتنا الحاضر يشغلها بأمر ملكى ، شيخ السجادة البكرية (والوفائية منذ جمع سماحة المرحوم السيد عبد الحميد البكرى بين المشيختين) وقد استحوذ البكرية على هذه الوظيفة لأن بيتهم أعرق بيوت التصوف فى مصر وأقدمها جميعا ، فهو منحدر عن أبى بكر الصديق ، وتاريخ نشأته فى مصر يرجع إلى الفتح الاسلامى كما يقول على مبارك [1] ويؤكد

(١) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٨

السيد توفيق البكرى (١) . وتقضى لائحة الطرق الصوفية بأن يجتمع مشايخ الطرق فى القطر المصرى فى هيئة جمعية عمومية بديوان محافظة مصر تحت رآسة المحافظ لانتخاب مجلس أعلى يتألف من شيخ السجادة البكرية رئيسا للمجلس، وأربعة أعضاء يختارهم الرئيس من بين ثمانية ترشحهم الجمعية العمومية (٢) وعمل المجلس تعيين مشايخ الطرق ورفعهم من وظائفهم والفصل فى منازعاتهم الخاصة بالطرق، والحكم فى الشكاوى التى تثار فى هذا الصدد، وعزل مشايخ بعض الأضرحة والتكايا والسجاجيد على نحو ما أوضحت لائحة الطرق الصوفية (٣) . هذا مظهر التوحيد فى رياسة الطرق الصوفية فى يومنا الحاضر . فهل توحدت رياسة الطرق الصوفية فى مصر إبان العصر العثمانى ؟ ذلك ما زعمه بعض المؤرخين الذين تعرضوا لتاريخ مشيخة مشايخ الطرق فى مصر، بل أرخ بعض هؤلاء المؤرخين نشأتها قبل العصر العثمانى، فما مبلغ الخطأ أو الصواب فيما يزعمون ؟

رأى جرجى زيدان ومناقشة مزاعمه :

قال جرجى زيدان « ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها أعمالهم وتتوجه بها مقاصدهم، بل كانت كل طريقة أو زاوية مستقلة بنفسها، فكانت تكثر بسبب ذلك الفتن، فلما أنشأ السلطان صلاح الدين الأيوبى خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية، جعل لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ، وكان لا يولى عليها إلا أعظم رجال الدولة من الاكابر والأعيان .. ومازالت الحال كذلك إلى أن توحدت رئاسة الصوفية بمصر فى القرن التاسع الهجرى، فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكرى، وكان من أعظم رجال عصره علما ودينا، قال الشعرانى عنه (ولو قلت إنه أعلم أهل زمانه لم أبعد عن الصواب) ثم تولى بعده ابنه الإمام شيخ الإسلام العلامة الشهير

(١) بيت الصديق ص ١٩

(٢) المادة الثالثة من لائحة الطرق الصوفية ص ٣ ، ٤

(٣) المادتان الأولى والثانية من لائحة الطرق الصوفية ص ٣

أبو السرور البكرى ، وانتقلت بعده إلى ذريته ، ولا تزال الى الآن فى البيت البكرى الصديقى بمصر »[١].

وهذا كلام سطحى ينطوى على أخطاء تزيد على الثمانية فيما يلوح ..! فلنشرح هذا قليلا :

فالفقرة الأولى من كلامه تنطوى على مغالطتين ، لأنها تفرض قيام الزوايا فى مصر قبل خانقاه سعيد السعداء — وذلك غير صحيح فيما نعلم — لأن هذه الخانقاه قد استحالت الى دويرة للصوفية عام تسع وستين وخمسمائة للهجرة كما عرفنا ، بينما نلاحظ أن الزوايا التى ذكرها المقريزى فى خططه — وبلغت الست وعشرين عدا — ليس بينها زاوية واحدة نشأت فى مصر قبل القرن السابع الهجرى ، ولو وجدت هذه الزاوية ما أهملها فى تأريخه للزوايا . ثم إن هذه الفقرة تنص على خشية الدولة من الفتن التى كان يثيرها أهل التصوف فى هذا العصر ، ومن الراجح أن صوفية هذا العصر كانوا قلة لاخطر لها . كان التصوف فى جملته إلى هذا العهد ظاهرة نفسية فردية ، لم تتحول بعد إلى ظاهرة اجتماعية ، يشترك فيها الجماعات والطوائف ، ويمكن أن يكون بهذا مثارا للفتن ومصدرا للخطر .. ولما أنشئت أول خانقاه جعلت للواردين إلى مصر من البلاد الشاسعة كما عرفنا ، وجل الزايا والربط والخوانق التى عرضنا للكلام عنها فى الفصل السالف ، قد أقام فيها الأعاجم والأحباش وغيرهم من نزلاء مصر . وقد ظل عدد الدراويش المتجولين فى شوارع مصر من الفرس والأتراك أكبر من عدد المتجولين من الدراويش المصريين إلى مابعد انقضاء العصر العثمانى — كما أشار الى ذلك الأستاذ « لين »[٢] — ولا تظن أن هؤلاء النزلاء كانوا من الكثرة فى هذا العصر بحيث تخشى الدولة بأسهم

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى جـ١ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ ، بيت الصديق ص ٣٧١ — ٣٧٢ وردد هذا الرأى زميلنا الدكتور محمد مصطفى حلمى فى كتابه « ابن الفارض والحب الالهى » ص ١٥ — ١٦

(٢) فى كتابه The Manners &Customs, p. 252

وترهب فتنتهم ، فمن الخطأ بعد هذا أن يتحدث جرجي زيدان عن استقلال الزوايا أو خطورة الفتن قبل خانقاه سعيد السعداء .

والفقرة الثانية من كلامه تنطوى كذلك على مغالطتين أخريين : فانها تنص على أن صلاح الدين قد « أنشأ » خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية ، وأدق من هذا أن يقال إنه حولها إلى خانقاه ، فقد كانت دارا معروفة منذ العصر الفاطمى . وثانى الخطأين دعواه بأن صلاح الدين قد جعل لشيخ هذه الخانقاه شبه تقدم على غيره من المشايخ (أى مشايخ الطرق التى تحدث عنها فى فقرته الأولى) والراجح أن شيخ الخانقاه كان يسمى شيخ الشيوخ ، وأريد بهذا التعبير الشيوخ المقيمون فى الخانقاه ، إذ كان كل فقير منهم شيخا لأنه يدرس الدين وينقطع لعبادته والعمل بأوامره ونواهيه ، ولم توجد فى الوقت الذى أطلق عليه هذا اللقب خوانق أو ربط أو زوايا حتى يجوز الظن بأن المراد بهذا اللقب شيخ شيوخ الخوانق والربط والزوايا الأخرى .

أما الفقرة الأخيرة فتنطوى على أربعة أخطاء : لأنها تنص على أن رآسة الصوفية قد توحدت فى القرن التاسع ، وذلك ما سنكشف عن بطلانه فيما يلى من حديث ، وتزعم بأن السيد محمد شمس الدين البكرى قد تولى هذه الرآسة فى القرن التاسع ، وأنه والد أبى السرور البكرى ، مع أن محمد شمس الدين الذى عاش فى القرن التاسع (+ ٨٤٧ وهو الحنفى) [1] لم يكن أبا لأبى السرور البكرى (ولد سنة ٩٧١ ومات سنة ١٠٠٧) [2] فان أباه هو السيد محمد أبو المكارم زين العابدين أبيض الوجه ، وقد ولد سنة ٩٣٠ ومات عام ٩٩٤ هـ على ما يروى على مبارك [3] وهو الشهير بالبكرى الكبير فى كتب التاريخ والطبقات والمناقب ، وهو الذى قال فيه الشعرانى إن الناس قد أجمعوا على أن

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٤٨٩ بيت الصديق ص ٢١٣

(٢) الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ١٢٦

(٣) بيت الصديق ص ٢٤ ، الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ١٢٦ والكواكب السائرة جـ ٣ ص ١١٢ ولكن العيدروسى يقول إنه مات سنة ٩٩٣ هـ (النور السافر ص ٤١٤) .

ليس على وجه الأرض بلدة أكثر علما من مصر ولا فى مصر مثله [١] فاذا عدنا إلى الذين ترجموا لهذين الرجلين والتمسنا عندهم صحة ما يدعيه الأستاذ زيدان ، رجح عندنا الظن بخطئه فيما يذهب إليه ، فان كتاب التراجم فى هذا العصر وما بعده ، كانوا أسخياء فى خلع الألقاب على من ترجموا لهم ولو أن أحد هذين الرجلين استحوذ على لقب مشيخة المشايخ ما أهملها الذين ترجموا حياته ، ولدينا ممن عرضوا لترجمتهما — الشعرانى والمناوى ومحمد أبو السرور البكرى وعلى مبارك وصاحب النور السافر ومؤلف الإعلام بأعلام بيت الله الحرام والسيد توفيق البكرى ... الخ وليس فى كلام واحد منهم مايؤيد دعوى الأستاذ زيدان [٢] . وسنروى عن بعض هؤلاء المؤرخين نصوصا تشهد بأن الزعامة قد تنازعها غير هذين الرجلين فى عصريهما ..ا وقول الشعرانى عن السيد محمد شمس الدين إنه أعلم أهل زمانه ، ليس دليلا على أنه كان شيخا للمشايخ ، بل تشهد بسعة علمه فى عرف الشعرانى ، وسنعرف بعد قليل أن مشيخة المشايخ لم تنتقل إلى ابنه ويتوارثها ذريته من بعده كما يقول الأستاذ .

رأى السيد توفيق البكرى ومناقشته : هذا الكلام السطحى الذى لاينهض فيه صاحبه من خطأ حتى يسقط فى خطأ آخر ، قد صادف قبولا عند بعض المؤرخين كالسيد توفيق البكرى الذى يرويه على علاته ولا يعلق عليه بكثير ولا قليل ، بل يستند اليه فى تأريخ البيت البكرى ويؤثر ماجاء به على ماذكرته عن أفراد هذا البيت كافة كتب التاريخ والطبقات . فترجمو القرون التاسع (السخاوى) [٣] والعاشر (الغزى والعيدروسى والشبلى) [٤] والحادى عشر

---

(١) بيت الصديق ص ٧٥

(٢) بيت الصديق ص ٧٣ — ٧٨ أمثلة لذلك .

(٣) الضوء اللامع فى أخبار القرن التاسع (تسعة أجزاء) .

(٤) الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة (ثلاثة أجزاء) والنور السافر فى أخبار القرن العاشر ، السنا الباهر بتكميل النور السافر .

(المحبي) [١] والثاني عشر (المرادي) [٢] إلى غيرهم من المؤرخين وكتاب التاريخ والطبقات كالجبرتي وابن اياس وأبي السرور البكرى والشعراني بطبقاته الكبرى والوسطى والصغرى والمناوى بطبقاته الكبرى والوسطى وغيرهم ، لم يشيروا قط إلى وجود شيء اسمه مشيخة المشايخ في البيت البكرى أو غيره من بيوت التصوف في مصر . ولكن السيد توفيق البكرى يقول مؤرخا بيت الصديق إن وظائف هذا البيت من قديم الزمان ثلاث : مشيخة السجادة البكرية ومشيخة المشايخ الصوفية ونقابة الأشراف [٣]. ويصر عند الكلام على مشيخة السجادة البكرية على أن من « حقوقها القديمة وأصولها المستديمة أن يتولى صاحبها مشيخة المشايخ الصوفية » ولم يقل لنا السيد توفيق متى يبدأ في عرفه « قديم الزمان » الذى استحوذ فيه البكرية على هذا اللقب .

على أن السيد توفيق وإن كان يروى رأى جرجى زيدان من غير تعليق إلا أنه لم يجرؤ على خلع هذا اللقب على جميع أفراد البيت البكرى وأفرع دوحته منذ القرن التاسع إلى يومنا الحاضر كما رأى صاحبه ، وإنما تبرع بخلعه على بعض من عاشوا في مصر منذ القرن الثانى عشر الهجرى ، والغريب أنه ضن به على أهل القرن التاسع والعاشر والحادى عشر ، بل بخل به حتى على الذين أثيرت الضجة التي أسلفناها الآن من أجلهم ، من محمد شمس الدين البكرى [٤] ، وأبي السرور البكرى [٥] ومحمد شمس الدين الحنفى [٦] مما يشهد بضعف ثقته في مزاعم المرحوم جرجى زيدان ، وإن لم يصرح بذلك .

فلنعرض لمن سماهم السيد توفيق شيوخ المشايخ من أهل القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لنرى مبلغ الصدق أو مدى الخطأ في دعواه :

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر (أربعة أجزاء) .
(٢) سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر (أربعة أجزاء) .
(٣) بيت الصديق ص ٣٦٦ (٤) بيت الصديق ص ٣٦٦
(٥) بيت الصديق ص ٧٣ (٦) بيت الصديق ص ٧٠
(٦) بيت الصديق ص ٢٠٤ وما بعدها .

نلاحظ أنه خلع اللقب على أربعة من أهل القرنين الثانى عشر هم السيد أبو المواهب البكرى المتوفى سنة خمس وعشرين ومائة وألف [١] والشيخ أحمد البكرى المتوفى سنة ثلاثة وخمسين ومائة وألف [٢] والشيخ أحمد بن عبدالمنعم البكرى المتوفى سنة خمس وتسعين ومائة وألف [٣] والسيد محمد البكرى الكبير المتوفى سنة ست وتسعين ومائة وألف [٤]. فلاحظ أن السيد توفيق يضع فى عنوان ترجمة كل واحد من هؤلاء الأربعة لقب شيخ المشايخ! فاذا أنعمنا النظر فيما يكتبه عن كل منهم رأيناه يقول فى ترجمته الأولى « هو شيخ الإسلام وعلامة الأنام تولى السجادة البكرية التى من حقوقها مشيخة المشايخ الصوفية وأحيا معالم الطريق والإرشاد بمصر فى المعقول والمنقول وعلوم القوم توفى سنة ١١٢٥ ودفن بزاويته » ولم يشر السيد توفيق إلى المصدر الذى استق منه كلامه كما فعل فى أكثر التراجم التى ضمنها كتابه، ولهذا ذلالته ومغزاه. ويروى عن ثانيهم وهو الشيخ أحمد البكرى وثالثهم وهو أحمد عبدالمنعم البكرى، نص ماذكره الجبرتى فى ترجمتهما دون أن يزيد عليه كثيرا ولا قليلا، وما يقوله الجبرتى عنهما خلو من كل إشارة إلى مشيخة المشايخ التى تبرع السيد توفيق بخلعها عليهما فى عنوان الترجمتين من غير مبرر ..! ثم يروى عن رابعهم وهو محمد البكرى الكبير [٥] نص مايقوله الجبرتى كذلك فاذا النص لا يخلو من الإشارة إلى مشيخة المشايخ فحسب، بل يقطع وجه الشك فى أمرها فيقول « ولما توفى ابن عمه الشيخ أحمد شيخ السجادة البكرية تولاها بعده باجماع الخاص والعام مضافة لنقابة الأشراف فحاز فخار المنصبين

---

(١) بيت الصديق ص ٤٠

(٢) بيت الصديق ص ١٦٠

(٣) بيت الصديق ص ١٤٠

(٤) بيت الصديق ص ١٣٨

(٥) قال على مبارك فى خططه ج ٣ ص ١٢٦ ان الكبير لقب يطلق فى كتب التاريخ والطبقات والمناقب على محمد أبى المكارم زين العابدين أبيض الوجه المتوفى سنة ١١٩٦

وكمل له فضل الشرفين ، ولم يقم فى ذلك إلا نحو سنة ونصف وتوفى ، فلو أنه تولى مشيخة المشايخ لنص عليها الجبرتى أو أشار إليها . وكذلك يقول فى السيد محمد البكرى الصغير + ١٢٠٨ والذى وضع السيد توفيق فى رأس ترجمته لقب شيخ المشايخ ، ثم أورد نص الجبرتى فيه من غير نقص ولا زيادة ، فاذا فيه « السيد محمد البكرى افندى الصديقى شيخ سجادة السادة البكرية ونقيب الأشراف بمصر المحمية ، تقلد بعد والده المنصبين وورث عنه السيادتين »[١] وكذلك الحال فى السيد خليل البكرى + سنة ١٢٢٣ هـ[٢] .

ومن هـذا نرى أن السيد توفيق كان يتبرع من عنـده بلقب شيخ المشايخ ويضعه فى عنوان تراجمه ، وليس فى التراجم قـط إشارة تبرر وضعه .

نستطيع الآن أن نقرر ونحن على شىء كثير من اطمئنان اليقين ، أن العصر العثمانى قد انقضى بقرونه الثلاثة دون أن يعرف أهل التصوف فى مصر رئيساً فذاً لهم ، يوحد كلمتهم ويفصل فى مشاكلهم .

نشأة اللقب قبل العصر العثمانى :

لا ... بل لقد وجد هذا اللقب من قديم الزمان . ا منذ القرن السادس للهجرة ، أى قبل دعوى جرجى زيدان بثلاثة قرون أو أربعة ... بيد أن المعنى الذى يحمله كان يختلف عن المعنى الذى قصده به الأستاذ زيدان والسيد توفيق . قال المقريزى : فكانت « سعيد السعداء أول خانقاه عملت بمصر وعرفت بدويرة الصوفية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ ، واستمر فى ذلك بعده إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة واتضعت الأحوال وتلاشت الرتب فلقب كل شيخ خانقاه « بشيخ الشيوخ »[٤] ويقول فى

(١) بيت الصديق ص ١٣٧ (٢) بيت الصديق ص ١٣٢ — ١٣٣

(٣) خطط المقريزى جـ ٤ ص ٢٧٣

خانقاه سرياقوس » قرر السلطان فى مشيخة هذه الخانقاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الاقصراوى ولقبه بشيخ الشيوخ فصار يقال له ذلك ولكل من ولى بعده ، وكان قبل ذلك لا يلقب بشيخ الشيوخ إلا شيخ خانقاه سعيد السعداء » [1] وكان ذلك عام ٧٢٥ ه .

والظاهر أن المقريزى أراد أن يقول إن شيخ خانقاه سعيد السعداء كان يستحوذ وحده على لقب شيخ المشايخ منذ سنة ٥٦٩ ه إلى سنة ٧٢٥ حين شاركه فيه شيخ خانقاه سرياقوس ، واستمرا يتنازعان هذا اللقب إلى أن زحفت المحن وتلاشت الألقاب فى مستهل القرن التاسع ، فاستولى على اللقب جميع شيوخ الخوانق التى كانت قائمة بمصر فى هذا العهد .

وقد أيد القلقشندى كلام المقريزى فقال « إن مشيخة الشيوخ كانت تطلق على مشيخة الخانقاه الصلاحية (سعيد السعداء) إلى أن بنى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الخانقاه الناصرية بسرياقوس ، فاستقرت مشيخة الشيوخ على من يكون شيخا بها ، والأمر على ذلك للآن » [2] — وقت كتابة صبح الأعشى .

والظاهر أن شيخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على سائر المشايخ ، لا فى مصر وحدها بل فى الشام وغيرها ، فقد أورد القلقشندى نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ بسرياقوس فإذا فيها « فلذلك رسم بالأمر الشريف ... أن يفوض إلى المشار إليه (الشيخ نظام الدين الأصفهانى) مشيخة الخانقاه السعيدة الناصرية بسرياقوس — فدى الله روح واقفها ومشيخة الشيوخ بالديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والفتوحات الساحلية وسائر الممالك الاسلامية المحروسة على عادته فى ذلك ، وقاعدته ومعلومه ، وأن يكون مايخص بيت المال المعمور من ميراث كل من يتوفى من الصوفية بالخانقاه المذكورة للمشار إليه ، بحيث لايكون لأمين الحكم ولا لديوان المواريث معه فى ذلك

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٨٥

(٢) صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٧٠

حديث، وتكون أمور الخانقاه المذكورة فيما يتعلق بالمشيخة وأحوال الصوفية راجعة إليه، ولا يكون لأحد من الحكام ولا من جهة الحسبة ولا القضاة فى ذلك حديث معه، ولا يشهد أحد من الصوفية ولا ينتسب إلا باذنه على العادة فى ذلك . . . (١)

ومن هذا النص نستطيع أن نقول إن شيخ مشايخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على غيره من المشايخ فى مصر وغيرها من البلاد السالفة الذكر، إلا أن اختصاصه الفعلى كان مقصورا على الصوفية المقيمين بخانقاه سرياقوس وحدها. والدلائل التى تحت أيدينا تنفى نفيا باتا وجود شيخ مشايخ — طوال العصر العثمانى خصوصا — وظيفته التكلم على كافة الطرق الصوفية والتحدث باسمهم وتنظيم علاقاتهم والفصل فى مشاكلهم على نحو ماذهب السيد توفيق وجرجى زيدان، ولا بأس من أن نسرد بعض هذه الدلائل :

روى صاحب المناقب الكبرى (٢) أن شيخ الإسلام محمد شاه قد حبس الشيخ الغمرى فاستغاث أقاربه بالشعرانى ووسطوه لانقاذ السجين، فكتب الشعرانى بطاقة إلى محمد شاه قال فيها « إن من أعظم بيوت سلاطين الأولياء والأقطاب بمصر أربعة : أولهم بيت السادات بنى الوفا ..... وثانيهم بيت سيدى محمد شمس الدين الحنفى (وهو فرع الدوحة البكرية وقد توفى عام ٨٤٧) (٣) ..... وثالثهم بيت سيدى مدين الأشمونى (تلميذ الحنفى) (٤) ورابعهم بيت سيدى أبى العباس الغمرى (سنة ٩٠٥) (٥) .

وفى هذا مايشير إلى أن الزعامة لم تكن فى بيت واحد .

---

(١) صبح الأعشى جـ ١١ ص ٣٧٥

(٢) المناقب الكبرى ص ٨٤

(٣) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٨٩ وجاء فى طبقات الشاذلية ص ١٢٧ أنه ولد سنة ٧٥٥ ومات سنة ٨٤٧ هـ

(٤) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٨٩ إلى ٩٠

(٥) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٠٧

ويقول المناوى + ١٠٣١ عندما عرض لترجمة الشيخ محمد كريم الدين الخلوتى سنة ٩٨٦ هـ « صار هو وشيخنا الشعرانى (سنة ٩٧٣) [١] شيخا (يريد شيخىّ) الديار المصرية ، وكان بينهما مايكون بين الأقران [٢]» ويلاحظ أن الشعرانى والخلوتى اللذين كانا يتنازعان الرياسة ، قدعاصرهما فيها محمد البكرى (+ ٩٩٦ هـ) الذى عزا إليه جرجى زيدان مشيخة المشايخ فى أول أمرها .

ولقد كان الشعرانى إذا تحدث عن كبار الشيوخ فى القرن العاشر ، قال لهم محمد البكرى (الكبير) ومحمد كريم الدين الخلوتى وخليفة الشيخ دمرداش وزين العابدين وخليفته الشيخ شاهين . . « وكل واحد من هؤلاء لو انفرد فى مصر وقراها ، لكفى الناس علما وأدبا وسلوكا » [٣] ولو استحوذ أحدهم على زعامة رسمية أو معترف بها منهم ، ماأهمل ذكرها الشعرانى أو المناوى أو غيرهما .

أما فى القرن الحادى عشر فقد روى عبد الغنى النابلسى [٤] المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ أن محمدا أبا المواهب زين العابدين البكرى [٥] كان له «حكم الولاية فيها بطريق التوجيه من جهة السلطنة العلية ، وأن نائبه فى بلدة الخانقاه

---

(١) الكواكب الدرية للمناوى ص ٤٠٠ ، خلاصة الأثر للمحبي ج ٢ ص ٣٦٤ وتكميل النور السافر للشلى ص ٦٥٧ ، مادة Alsha'rani بدائرة المعارف الاسلامية للاستاذ شاخت (وان كان قد أخطأ فى تاريخ ميلاده فجعله سنة ٨٩٧ هـ) وطبقات الشاذلية ص ١٤٢ — ولكن الغزى فى كواكبه السائرة ج ٣ ص ٢٧٦ قال ان الشعرانى قد مات فى حدود السبعين وتسعماية .

(٢) الكواكب الدرية ص ٥١٩

(٣) بهجة النفوس ص ٨

(٤) روى السيد توفيق أنه مات سنة ١١٤٣ (ص ٤٠ بيت الصديق) وكذلك روى على مبارك ج ٣ من خططه ص ١٢٥ وروى المحبي أنه مات سنة ١٠٣٢ ص ٤٣٣ من ج ٢ خلاصة الأثر وذكر المرادى فى سلك الدرر ج ٣ ص ١٣٧ أنه مات سنة ١١٤٣ هـ

(٥) روى الجبرتى أنه مات عام ١١٠٧ هـ وولد عام ١٠٦٠ (ج ١ ص ٦٩) وروى السيد توفيق أنه ولد عام ١٠٥٠ (بيت الصديق ص ٤٠) والأول أرجح وروى المرادى فى سلك الدرر ج ١ ص ١٥١ أنه مات سنة ١١٠٧ هـ

كان الميقاتى على ماعرفنا [١] وحسبنا فى الدلالة على أن هذا التعبير لايفيد استحواذه على مشيخة المشايخ ، أن السيد توفيق الحريص على احتكار البيت البكرى لهذا اللقب ، لم يخلعه على السيد محمد أبى المواهب زين العابدين [٢] رغم أنه اطلع على رحلة النابلسى المخطوطة ، واقتبس منها جزءا فى كتابه ، وكذلك لم يشر على مبارك فى ترجمته إلى هذه المشيخة .

وقد تهيأ للشيخ السادات (المتوفى سنة ١٢٢٨ هـ) نوع من السيادة الواضحة على الطرق ومشايخها فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر ، وترجمة شيخ الجبرتى تقول إن الزعامة قد أسلمت قيادها له بعد أن عز وجود منافس ينازعه فى أمرها [٣] . وقد أظهر الجبرتى فى هذه الترجمة — التى اطلع عليها السيد توفيق ونقلها فى كتابه عن بيت السادات الوفائية [٤] — أن السيد محمد البكرى الصغير كان إلى جانب السادات كما مهملا لا حساب له ، ورغم ذلك يقول عنه السيد توفيق إنه كان شيخ المشايخ .

ولعل هذا يفسر لنا نصا خداعا رواه الجبرتى فى ترجمة محمد أبى السعود البكرى الكبير إذ قال « ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشاير البدعية كالأحمدية والرفاعية والبرهامية والقادرية فيفصل بقوانينهم العادية » [٥] فان ما يشبه هذا السلطان قد تهيأ للشيخ السادات (الوفائى) بعد ممات محمد البكرى حتى كان يصدر أوامره إلى فرق الأحمدية والسعدية والشعيبية بأن تمر بداره والأمراء بضيافته أيام المولد ، فكان شيوخها ومريدوهم ينصاعون لأمره راضين أو كارهين .

وسنعرف فى الباب التالى أنه بلغ من السطوة أن كان يمثل السلطتين التشريعية والتنفيذية لابين طوائف المتصوفة وحدها ، بل بين عامة الناس

---

(١) رحلة النابلسى ص ٩٠

(٢) بيت الصديق ص ٤١

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ١٩٩ — ٢٠٠

(٤) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٥

(٥) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨

كذلك كما سنعرف عن « الأقطاب » الذين ظهروا فى هذا العصر واستحوذوا على الزعامة فى عصرهم ، وبسطوا سلطانهم على كافة الأولياء فى مختلف بقاع البلاد . . !

ومن هذا نرى أن زعامة الطريق كانت لصاحب الشخصية القوية الأخاذة ، سواء أكان من بيت عريق معروف أم لم يكن كذلك ، ولعل أغلب الفترات التى مرت بمصر إبان هذا العصر ، كانت خلوا من هـــذه الشخصية التى تكره مشايخ الطرق على السعى لمرضاتها ، والانقيـــاد لأمرها والسير فى ركابها .

بل لقد ورد فى الإجابات التى رد بها حسين أفندى الروزنامى على الأسئلة التى وجهها إليه « ستيف » عقب الفتح الفرنسى ، أن أرباب السجاجيد فى مصر أربعة ، هم الشيخ البكرى وجده أبوبكر الصديق والشيخ السادات وجده الإمام على والشيخ العنانى وجده عمر بن الخطاب والشيخ الخضيرى وجده الزبير ، وأن مقامهم محفوظ ومكانتهم ملحوظة ، وأن المشورة لهم فى جميع الأمور . . . ولم يشر قط إلى زعامة واحد منهم على أرباب الطريق[١] وقد أشار الأستاذ « لين » إلى أصحاب السجاجيد الأربعة ، ولكنه صرح بزعامة البكرية على جميع الطوائف فى مصر[٢] ولكن ذلك لا يغير من حقيقة الأمر كثيرا ولا قليلا ، فان الأستاذ « لين » قد نزل بمصر بعد انقضاء العصر العثمانى بسبعة وثلاثين عاما (١٨٣٥ م ١٢٥٠ هـ) وقد أورد السيد توفيق البكرى فرمانا بتولية الوالى محمد على باشا للسيد محمد البكرى عام ١٢٢٧[٣] هـ وفيه اعتراف بزعامته على الطوائف كلها ، وقد أهمل الجبرتى

---

(١) مقال سناذ الجليل شفيق غربال بمجلة كلية الآداب المجلد الرابع العدد الأول سنة ١٩٣٨ ص ٢٥ .

(٢) كتاب الأستاذ لين السالف ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٣) بيت الصديق ص ٣٦٩

ذكر هذا الفرمان [١] ، ولكن نص الأستاذ « لين » يرجح صحة هذا الفرمان ، وعلى هذا يكون قول « لين » إن للبكرى الزعامة على الطوائف كلها معقول إذا سلمنا بالفرمان السالف .

ولا بأس من أن نشير الآن إلى أن التعبير بمشيخة المشايخ لم يرد فى فرمان محمد على ولا فى الفرمان الذى تلاه فى عهد سعيد باشا عام ١٢٧١ هـ وإن نص فيهما على العمل الذى يقوم به اليوم شيخ المشايخ .

فهذا اللقب حديث عهد ، ونسبته إلى العصر العثمانى أو ما قبله نسبة بادية الخطأ ، إذا أريد باللقب المعنى الذى يحمله فى عصرنا الحاضر ، ولعل السبب الذى أدى إلى وجوده فى العصر الحديث ، مرده إلى الرغبة فى القضاء على البدع التى كانت شائعة بين أهله ، وفشو الضيق بأساليبهم بعد أن تفتحت أذهان الناس ونزعوا إلى النقد ، وإذن فقد كانت الفرق فى مصر أثناء العصر العثمانى مستقلة لا تخضع لزعامة واحدة — إذا استثنينا فترات تقضت وبين أهل التصوف — رجال أوتوا الشخصية التى تكفل لأصحابها السيادة وتضمن لهم بعد الصيت وسعة النفوذ ، وتبدد المطامع من رؤوس المتنافسين وتستعبدهم بسلطانها فإذا هم خدام أمناء وعبيد أوفياء .

ولكن كيف كان هذا النفوذ .. ؟ وما مدى تغلغله فى طبقات الشعب وتسلله إلى هيئات الحكام ... ؟ ذلك ما نفصل الحديث عنه فى الكتاب التالى ...

---

(١) الجبرتى جـ ٤ ص ١٧٦ — ١٧٧

الكتاب الثاني

نفوذ شيوخ الطرق

أحياءً وأمواتاً

الكتاب الثانى

نفوذهم أحياءا وأمواتا

ذكرنا فيما أسلفنا بعض ما انتشر فى أرض مصر من طرق الصوفية وزواياهم ، وعرضنا شيئا عن الحياة التى عاشوها ، والعبادات التى زاولوها ، ونريد أن نفصل فى هذا الكتاب ماتهيأ لهم – أحياء وأمواتاً – من نفوذ استوعب وجوه الناس وطغامهم ، واستبد بعلماء البلاد وحكامها ، ونعرض بعض آثار النزاع الذى ثار بينهم وبين بعض الفقهاء ومن جرى مجراهم ، لنتبين مبلغ قوتهم ومدى تأثيرهم فى بيئتهم ، حتى يتيسر لنا أن نشرح فى الكتاب التالى أثرهم فى توجيه الحياة المصرية إبان عصرهم وما تلاه من عصور ، على قدر ما تسمح المادة وتسعف الملاحظة .

نفوذ شيوخ الطريق

١ — أحياء

بين دولة الفقراء ودولة بنى عثمان — تحررهم من عرف البلاد ودينها — مفارقات العصر — تحررهم من نظم الدولة وقوانينها — تمردهم على العرف السائد عند أرباب الطريق .

بين دولة الفقراء ودولة بنى عثمان :

حفلت مصر إبان العصر العثمانى بفرق المتصوفة وطوائف الفقراء، واكتظت الشوارع بمواكبهم والبيوت بولائمهم والمساجد والزوايا باجتماعاتهم، وانتشر الشيوخ والأتباع فى الريف والحضر ، وتغلغل نفوذهم فى المدن وشاع فى الأقاليم والقرى ، وامتد سلطانهم إلى مختلف طبقات الشعب وأقام فى صدورها عرشه ، وتسرب إلى قصور الحكام فعبث بالقوانين ، واستهان بالرأى العام فتخطى أبسط مبادىء العرف ، واستعلى على الدين فاستباح الخروج على قواعده وتعاليمه ، وبذلك أضحى الفقراء فى مصر إبان هذا العصر فوق قواعد الدين ومقتضيات العرف وقوانين الدولة .. !! وكانت مصر دولتهم فى الحياة الدنيا وإن ادعوا بأن الفقراء لا يملكون فى هذه الحياة الفانية كثيرا ولا قليلا ، وأن دولتهم إنما تقوم — كأعظم ما تقوم الدول ذات السلطان الواسع النطاق الممدود الرحاب — فى جنة الله يوم الدين . فقد كان الناس فى شتى الطبقات يحيطونهم بالعطف والتأييد ، وقد خف الى زواياهم مئات المريدين وألوف الأتباع ، وفاضت عليهم خزائن الأغنياء والأثرياء ، وسعى إليهم عطف الحكام والأمراء ، ولازمهم النصر فى أكثر المعارك التى أثارها عثيرها فى وجوههم العلماء والفقهاء ، وتوفر لهم عند المريدين سلطان لم يتوفر لحاكم تحبه عشيرته

وتطيعه جنوده ، أو لعالم يجله تلامذته وطلابه ، وما كان الجندى الذى يتمرد على قائده ساعة المحنة بأشد خيانة وأعظم جرما — فى عرف الفقراء — من المريد الذى يسىء الظن بشيخه أو يتردد فى امتثال أمر تلقاه عنه ولو كان يقضى بطلاق زوجه وفراق أولاده أو يمنعه عن أداء ماأمر الدين من فروض وواجبات وحتمه من شعائر وعبادات ...!

وهكذا قامت فى مصر دولة الفقراء إلى جانب الدولة العثمانية ، بالسلاح والحيلة تضمن الثانية بقاءها وتقر بين الناس قدمها . وبالايمان تذود الأولى عن عرشها ، وتقر فى القلوب سلطانها ، وتخيف خصومها وأعداءها . ولقد كانت دولة الفقراء أثبت قدما وأعظم نفوذا وأقوى سلطانا من دولة بنى عثمان — تلك الدولة التى كانت مطامع المماليك — ولا سيما فى النصف الأخير من العصر العثمانى — تثير فيها القلق والاضطراب ، بل لقد كانت فرق الجيش التى جاءت فى ركابها لحمايتها من كل عدوان فى نزاع يكاد يكون دائما ، وحرب يوشك أن يكون متصلا وكان « الأعراب » فى غاراتهم بين الحين والحين يثيرون الاضطراب فى رأسها ويشيعون الفزع فى نفسها . وبهذا عاشت الدولة العثمانية قلقة الخاطر نابية المضجع تنفق وقتها فى تدبير المؤامرات ورد الغارات والنجاة من المكائد ، أما دولة الفقراء فقد عاشت فى جو عامر بالاطمئنان ، قوية بايمان أهلها وحسن ظن الناس بها لاتهتز لانكار المنكرين — وما كان أضعف نفوذهم — فامتد سلطانها وانبسط عزها من غير سلاح مسلول ، ورفرف علمها فى كل مكان دون جهد ملموس ، وذلك لأن « روح العصر » — بما كان يسوده من ظلام الجهل وشدة الفقر واضطراب الامن وظلم الحكام — عاون على ثبات هذه الدولة ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بين الناس ..!

تحررهم من عرف البلاد ودينها :

ولدينا من الشواهد ماينهض دليلا على أن الأولياء كانوا فوق العرف

وفوق القانون — وقبل أن نعرض للكلام فى ذلك ينبغى أن نشير إلى أن الأمثال التى تشهد بخروج الفقراء على الدين، تصلح أن تكون شاهداً بخروجهم على العرف كذلك ، فان الفروق بين الدين والعرف أثناء هذا العصر قد تضاءلت حتى كادت أن تزول وتتلاشى ، فاذا جاز لنا أن نقول اليوم إن تارك الصلاة أو شارب الخمر فى القاهرة ، لا يعتبر خارجا على العرف ، وإن عُدّ خارجا على الدين ، فان هذا الكلام لا ينسحب على العصر العثمانى ، لأن الدين قد تغلغل إبانه فى العرف حتى كاد الرأى العام فى كل شىء أن يكون قائما على الدين وحده ، وكانت مصر فى عزلة عن العالم الأوربى الذى كانت النهضة الحديثة تتمشى فى أعصابه وتشيع فى كيانه ، فأضحت الحضارة القائمة فى مصر حضارة دينية بحتة . فكان الناس لا يعرفون علوما أسمى من علوم الدين ، ولا ثقافة أجدر بالعناية وأحرى بالدراسة من ثقافته ، ولا رجالا أخلق بقيادته فى حياتهم الدنيوية والدينية من رجاله ، وبهذا أصبح زعماؤهم فى ميدان السياسة وقادتهم فى الحياة العامة وأساطينهم فى مجال العلم Scientists هم الفقهاء وحملة الشريعة وأرباب الطريق ، وكاد أن يتلاشى الفارق بين صيحة الدين وصيحة العرف ، وأضحى الخروج على قواعد الدين ، استهانة بالرأى العام وجرحا لشعور الناس .

والآن نبسط بعض الشواهد التى تجمع بين خروج الأولياء على تعاليم الدين وتخطيهم لأبسط مبادىء العرف معا ، ثم نعقب عليها بذكر الشواهد الدالة على امتهانهم لأقدس مواد القانون ، لنرى صدى ذلك كله فى نفوس الناس ، ولنعرف مبلغ الصدق فى قولنا إن الأولياء كانوا فى مصر — إبان هذا العصر — دولة داخل الدولة :

يروى الجبرتى عن السادات أنه حين تولى خلافة بيت السادة الوفائية عام ١١٨٢ هـ ، أحسن التصرف والتزم ما تقتضيه الأخلاق الكريمة ، حتى إذا اطمأن إلى سمعته ونفوذه عند الناس ، بدا حرصه على الدنيا وتمسكه بالمادة ،

واستيقظ جشعه وعدم اكتراثه برأى الناس فى سمعته، ومن دلالات هذا أنه اتفق مع محمد البكرى على أن يأخذ منه نظارة المشهد الحسينى، ويتنازل له فى مقابلها عن نظارة وقف الشافعى، فلما تخلى له البكرى عن وظيفته، وأرسل إليه دفاتر الوقف، نقض هذا وعده واستولى على الوظيفتين معا ..!! بل زاد فطمع فى المشهد النفيسي والمشهد الزينبي وباقى الأضرحة، وأخذ يحاسب المباشرين وخدمة هذه الأضرحة، على الإيرادات ويسبهم ويهينهم ويضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم ..!!، وطفق يطالبهم بالنذور والشموع والأغنام والعجول، وما يتحصل بصندوق الضريح من المال، وكانوا يختصون أنفسهم بذلك كله. وأقلهم (كان) فى رفاهية من العيش وجمع المال. وهكذا قضى غالب عمره فى طلب الدنيا وتنظيم معاشه وتهيئة الرفاهية فى بيته، واقتناء كل مرغوب للنفس وشراء الجوارى والمماليك والعبيد والجيوش والخصيان والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس وتعاظم فى نفسه وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس التاج وحضور المحيا بالأزهر ليلة المعراج، وكذا الحضور فى مجلس وردهم وصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء تشبها بأكابر الأمراء ..» [١]

وكذلك كان ابراهيم المتبولى. كان يبيع فى بدء حياته الحمص، وقد مات أبوه فكفلته أمه وتعهدت بتربيته [٢]، فلما أخذ الطريق وسار فيه شوطا أصبح صاحب زاوية فيها نحو المائة مريد يقيم طاعما كاسيا على نفقة صاحب الزاوية [٣] ... وذلك كله على الرغم مما يرويه الشعرانى عن رأيه فى الزهد، فقد كان من رأيه أن الزهد فى الدنيا أول أساس يضعه المريد فى الطريق، فان أعوزه الزهد فى لذاتها والإعراض عن مباهجها أخفق فى تصوفه، وكان ما يبنيه فى الطريق هباء منثورا [٤] ..!

---

(١) الجبرتى جـ ٤ ص ٢٠٢ و ٢٠٤

(٢) الأخلاق المتبولية للشعرانى ص ١٤ (مخطوط)

(٣) لطائف المنن جـ ٢ ص ١١٩

(٤) الوصية المتبولية ص ٤ (مخطوط)

كان الشيخ على أبو خوده يحب الغلمان ، ويعبث بهم بحضرة آبائهم بالغا ما بلغت مكانتهم ! [١] وكان كلما رأى امرأة « حسس بيده على مقعدها » [٢] ، وما أكثر وقائعه معهن ! . . [٣]

وكان المجذوب محمد بن أبى بكر المغربى الطرابلسى المتوفى سنة ١٢٠١ هـ صاحب الأحوال يحب مجالس الشراب وتنهافت عليه نساء البلد ، فأنكر عليه ذلك بعض الناس ولكن « أهل الفضل كانوا يحترمونه وينقلون عنه أخبارا حسنة ويجله الأعيان وتنهال عليه الهدايا ولا يرد له الوزراء شفاعة » كما يقول الجبرتى [٤] وقد اشتهر فقراء المطاوعة بحبهم للغلمان ، حتى كانوا إذا عقدوا مجالس الذكر ، أجلسوا الصبيان من ورائهم ليحتضنوهم من الخلف اذا اشتدت حماسة الذاكرين ، فان أنكر عليهم ذلك أحد من الناس ، قالوا لا جناح على من مس دبر غلام ، وانما الجناح على من فعل فيه الفاحشة وحدها ! . وكان وجود الغلمان فى حلقات الذكر ومواكبه جزءا من نظامه عند فقراء هذه الطائفة [٥] .

وكان الشيخ « عبدالله + سنة ٩٣٧ » يصحن الحشيش ويبيعه بخرائب الأزبكية فلا يناله من الناس أذى ولا ضرر . ! بل لقد كان الناس يعتقدون أن من تعاطى الحشيش منه ، كفّ عن تعاطيه .. !!! كما يزعم المناوى والغزى [٦] . وكان الفقراء إذا أقيم مولد السيد البدوى أباحوا لأنفسهم نهب المحال وسرقة الناس وأكل أموالهم بالباطل ، قائلين إن الغربية بلاد السيد البدوى ونحن من فقرائه ، فكل ما نأخذه حلال لنا . ! وكان « الشناوى » + سنة ٩٣٢ أول من نادى بابطال هذه البدع .. ! [٧] وكان النساء اللائى يتصلن بالفقراء معرضات للزنا ،

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١١٨ ، مناقب العلماء والصوفية ص ٢٤٣ (مخطوط)
(٢) مناقب العلماء والصوفية ص ٢٤٣
(٣) أنظر مناقب العلماء ص ٢٤٤ ب (مخطوط)
(٤) الجبرتى جـ ٢ ص ١٥٩ — ١٦٠
(٥) فتوى الشيخ الصعيدى على فقراء المطاوعة (مخطوط)
(٦) ارغام أولياء الشيطان ص ٨٨ (مخطوط) ، الكواكب السائرة جـ ٢ ص ٢٥٩
(٧) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١١٦

وقد اشتهر فقراء الأحمدية والبرهامية بارتكاب الفحشاء مع النساء اللائى يأخذن العهد عليهن حتى خصهم الشعرانى بالذكر فى معرض الحديث عن وقائع الزنا التى تحدث من جراء اختلاط الجنسين (١) وكان العيسوية إذا أقاموا الذكر على طريقتهم المغربية ، سعى إليهم الناس وخف للفرجة عليهم حسان الغلمان، فيكلف بهم هؤلاء الغلمان ويسعون وراءهم — فيما يقول الجبرتى ..!(٢) وروى الشعرانى فى ترجمة الشيخ عبد القادر السبكى أنه كان يتكلم بما يستحى منه الناس ولا يرضى عنه العرف ، وقد خطب مرة عروسا ورآها فأعجبته فكشف لها عن جسمه وهى فى حضرة أبيها ، لكى تطمئن على خلوه من البرص وبراءته من الخشونة وغيرها مما قد يستدعى الشكوى بعد الزواج ، ثم تناول قضيبه فى يده ، وطلب إليها أن تمعن النظر اليه ، لتطمئن على حجمه ومنظره ..!! (٣)

ويصف الأستاذ « إدوارلين » هذه الحال ويشرح علتها فى عرف الناس فيقول : إن المعتوه أو المجنون فى عرف الجمهور ، كائن عقله فى السماء وجزؤه الكثيف على الأرض — إنه حبيب الله ، ومهما ارتكب من الفظائع فان ذلك لا يؤثر فى سمعته عند الناس ، وكثيرون هم الذين يتخطون على الدوام قواعد الدين ويتمردون على مبادئه ، ولكن العلة فى ذلك عند الناس ، أنه نتيجة لتجريد العقل واستغراق الملكات العقلية فى عبادة الله ، مما أدى إلى العجز عن التحكم فى العواطف — والمجانين الذين يهددون المجتمع بالخطر ، يحفظون فى الحبس ، أما الذين لا يخشى منهم الضرر ، ينظر اليهم الناس على أنهم أولياء الله . . . ! ومعظم الأولياء المعروفين فى مصر مجانين أو مخابيل أو دجالون ، يسير بعضهم فى الشوارع عاريا كامل العرى ، فيلقى من الناس كل الاحترام والتوقير — حتى أن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم، بل

---

(١) العهود المحمدية ص ١٨٠

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٤١

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٥٩

يأذن" لهؤلاء الجبناء أحيانا بأن يكونوا معهن على قارعة الطريق أحراراً كاملى الحرية — ولئن كان هذا نادر الحصول إلا أنه لا يعتبر فى عرف الطبقة الدنيا من الشعب معرة ولا منقصة ...(١)

هذا رأى « لين » الذى زار مصر بعد انقضاء العصر العثمانى بنيف وعشرين عاما ، ولعله احتاط فى التعبير أكثر مما ينبغى ، فإن الحوادث التى رويناها عن مؤرخى العصر العثمانى — من الجبرتى إلى الغزى والشعرانى والمناوى — وهم من أهل هذا العصر جميعا — تبرر القول بأن تمرد الأولياء على قواعد الدين لم يكن نادر الحدوث ، ولعل الأستاذ قد أراد بهذه الندرة فظائعهم مع النساء على قارعة الطرق ، وليست الطبقة الدنيا وحدها هى التى كانت ترضى عن هذه الفظائع ، وكثيراً ما كان ينخدع بها العلماء والأمراء ...!

مفارقات العصر :

كان هذا كله يحدث على مرأى من الناس فلا يستفز شعورهم ولا يثير غضبهم ، بل كثيرا ما كان يملأهم رضا واغتباطا — على نحو ماعرفنا فى التعليقات التى صوّر بها كتاب العصر شعور الناس نحو هذا التمرد على قواعد الدين ومبادىء العرف ، وما كان السر فى هذا أن « روح العصر » كان يسمح بالتهاون ويوجب على الناس التسامح ، فان الرأى العام فى هذا العصر كان يقوم على التعصب الشديد للطقوس والرسوم ، وأخذ الخارجين على الشعائر بالحساب العسير ، إذ بينما نرى هذا التهاون المفزع فى حساب من يعتبرون أولياء ، نرى الطالب الذى لا يقع بصره على جرة خمر بين يدى مماليك السلطان حتى يمضى إلى تحطيمها ويعرض نفسه للهلاك دفاعا عن دينه (٢) ونرى كيف يستحل المسلمون دم الجنود إذا أقدموا على فعل المنكرات فى رمضان من شرب الخمر والفسق بالنساء ، وكيف يطاردونهم ويتعقبونهم بالذبح وإلقاء جثثهم فى اليم ونهب ممتلكاتهم حتى يقتل من الجنود نحو عشرين نفسا ومن المسلمين أدنى من

---

(١) كتاب الاستاذ Lane ص ٢٣٤

(٢) لطائف المنن ج ٢ ص ٤٣

ذلك بقليل [١] ونرى كيف يجمع العلماء على تكفير من ادعى النبوة، فان أصر على ادعائه كان مصيره القتل علانية [٢]. ونرى كيف يفتى العلماء بإحراق الذمى إذا سب مسلما [٣] ونرى كيف يحرم التدخين على الناس كبارا وصغارا [٤] وكيف تصدر الفرمانات بابطاله فى الشوارع والمحال وأبواب البيوت، وكيف تكون الرقابة ويشتد العقاب حتى ليكون جزاء المدخن إطعامه الحجر الذى يضع فيه الدخان والنار [٥] وكيف يحرم شرب القهوة ولا يجوز الانتفاع بثمنها كما هو الشأن فى ثمن الخمور [٦] ونرى كيف يلام الشبراوى لأنه أفتى بإباحة الحج للنصارى إلى بيت المقدس، وكيف يخرج الشعب والأزهريون اليهم فيرجمونهم بالحجارة ويضربونهم بالعصى وينهبون متاعهم ويحطمون كنائسهم انتصارا للدين [٧] على نحو ما يفهمون — ونرى الناس بعد أن يسمعوا فتوى السنباطى فى الجامع الأزهر بتحريم القهوة يمضون إلى بيوتها من تلقاء أنفسهم ويحطمون أوانيها ويضربون شاربيها ولا تهدأ لهم ثائرة حتى يفتى علماء آخرون بإباحتها [٨] ونرى كيف يرضون عن قتل المرأة العاهر جزاء وفاقا [٩] ونرى كيف يعتبرون انتقال العالم من مذهب إلى مذهب طيشاً ورعونة وينحط قدر الشيخ البشبيشى عند الجبرتى ووالده من أجل ذلك [١٠] وأمثال هذه الحوادث التى تشهد بالتعصب كثيرة لا يكاد يحصيها العد. وإن كان هذا التعصب لا ينفى انحلال الأخلاق عند أهله — على نحو ما سنعرف عند الحديث عن سقوط التكاليف الدينية عن الأولياء.

كان « روح العصر » يملى على الناس التعصب فى أحكامهم ويحملهم على فداء

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٧٣ — (٢) الجبرتى ج ١ ص ١٥١
(٣) « ج ٢ ص ٩٦ — (٤) « ج ١ ص ٤٢١
(٥) « ج ١ ص ١٢٧ — (٦) « ج ١ ص ١٦١
(٧) « ج ١ ص ١٩٥ — (٨) أنظر كتاب عمدة الصفوة فى حل القهوة
(٩) الجبرتى ج ٣ ص ٥١ — (١٠) الجبرتى ج ٢ ص ٢٦٢

عقائدهم بالروح وما ملكوا ، وكان الرأى العام لا يسمح قط بالتهاون فى ظاهر الدين أو تخطى قواعد العرف ، ومن أقدم على ذلك فقد عرض نفسه للأذى وقادها إلى مهاوى الهلاك — وكان هذا معنى الدين فى رءوس الناس إبان هذا العصر — أما الأولياء فقد كانوا فى عرف الجمهور وأكثر العلماء فوق الدين وفوق العرف — وما أكثر حوادث الفقراء مع النساء والغلمان وسائر مظاهر تمردهم على الدين والعرف ، وقد كان الناس يقابلون هـــذا الاستهتار بالرضا والاغتباط ، لأن الأولياء فى عرف الكثيرين منهم قد سقطت عنهم التكاليف الدينية ، فجاز لهم ما حرم على غيرهم ، يهملون الصلاة ويتركون الصيام ولا يقومون بشىء من فروض الدين وشعائره ، ثم لا يتقيدون بعد هذا بشىء من نواهيه ، ولا يخضعون لقيوده ومحرماته .. ! فالزنا والخمر والميسر والحشيش وكافة رذائل الدين قد أحلت لهم فاستباحوا الحرمات على مرأى من الناس ، ولم يجدوا من شـــدة الإنكار ما يخيفهم أو يردهم عن غيهم ويوجههم إلى أقوم سبيل .

وكان جمهرة الناس فى مصر تخاف سلطان الأولياء الروحى وتخشى إن أساءت اليهم أن ينالها أذاهم ويصيبها « تصريفهم » ، فكفت عن سوء الظن بهم واستنكار أفعالهم ، وذلك وحده كفيل بتخليص الأولياء من قيود « العرف » وتحرير شهواتهم من عقائد الدين ، وقد بلغ من جرأة الأولياء وشعورهم باستقرار قدمهم ونفاذ سلطانهم أن كانوا يصطنعون فى بعض الأحايين ما يثير سخط الناس ، فكان « أبو خوده » يأمر عبيده — وكان من غواة العبيد — أن يقولوا للناس إن الشيخ يفعل الفاحشة فيهم ، حتى إذا ازدادوا سخطا عليه عطبهم .. ! كما يظن الشعرانى[1] ولو صحت رواية الحادثة لكان أدنى إلى العقل أن يقال إنه كان يفعل ذلك استخفافا بالمنكرين واحتقاراً لسخطهم ، ولا بأس من أن نشير الآن إلى أن المصادر التى أمدتنا بهذه المعلومات عن هؤلاء

---

(١) مناقب العلماء والصوفية ص ٢٤٣

الأولياء ، قد كتب أكثرها كتاب يؤمنون بولايتهم ويذكرون هذه الحوادث فى معرض التمجيد لهم وإعلان الإعجاب بهم .. ! ولم يملها عليهم حقد ولا حسد ولا غير ذلك مما يجوز على الحق ويغير معالمه . !

تحررهم من نظم الدولة :

وما كانت استهانتهم بقوانين البلاد ونظمها بأقل من استهانتهم بعرفها ودينها ، فقد كانت أولى الأغراض التى حملت الأتراك على غزو مصر ، الطمع فى خيراتها والرغبة فى ابتزاز أموالها ، ولهذا كان خير الولاة عند سلاطين الأتراك من استطاع أن يجبى من الضرائب أعظم قدر ممكن — وكان الناس لا يمانعون فى هذا ولا يضيقون به إلا إذا أعوزهم المال ، فقد كانوا يرون أن الغرض من وجود الحكومات جمع الضرائب والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة والفصل فى القضايا وحفظ الأمن ورد الغارات الخارجية[1]. ولم يكن الإصلاح والعمل على رقى الشعوب من عمل الحكومات فى عرفهم — فكان طبيعيا بعد هذا أن يكون جمع الضرائب عند حكام البلاد وأهلها أول واجب ينبغى أداؤه، ولكن الحكام كانوا يعفون الأولياء فى أكثر الأحايين من أخذ الضرائب .![2] قال الشعرانى إن من نعم الله عليه حماية جميع أوقاف زاويته من ظلمة الحكام فى مصر والريف ، فلا يعارضه ولا يعتدى عليه أحد قط رغم أنه لا يحمل مرسوما من السلطان لحمايته[3]. وقال الجبرتى فى معرض الحديث عن حرص الشيخ السادات على الدنيا ومتاعها ، أنه كان « يراسل ويكاتب ويحاسب ولا يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقررة فى الدفاتر ، بل يرون أن أخذها منه من الكبائر ، وكذلك دواوين المكوس المبنية على الإجحاف ، فكل ما نسب له

---

(١) شفيق بك غربال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ص ١٤ ، الحركة القومية للرافعى ج ١ ص ٣٢

(٢) لطائف المنن ج ١ ص ٦٢

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ١٨ ، المناقب الكبرى ص ١٠٧

فيها فهو معاف »[١] فان تعنت بعض الحكام على أحد المشايخ وأرسل يستشير السلطان فى أمره ، « رسم » السلطان باعفاء أوقافه من دفع الضرائب ، ومال إلى نصرته وإرضائه كما جرى لذرية الشعرانى بعد مماته [٢] .

بل لقد كانت الدولة تمد الأولياء بالأموال وتعينهم على دوام العز فى زواياهم ، فمن ذلك ما يرويه الجبرتى عن الشيخ السادات حين أراد أن يعمر زاوية أسلافه ، إذ حدث الوالى فى ذلك . وكان محمد على باشا المعروف بالمعزتى المتوفى سنة ١١٩٠ هـ ، فكاتب الوالى الدولة فى هذا الشأن ، وسرعان ما ورد الأمر باطلاق خمسين كيساً لمصرف العمارة من خزينة مصر ، ثم كاتب الدولة بعد ذلك بأن هذا المبلغ لا يكفى عمارتها ، فاستجابت لطلبه وأطلقت له خمسين كيساً أخرى ، ثم عاد الشيخ فالتمس رفع ما على قرية زفتى وغيرها من القرى التى فى حوزته من الالتزام من المال الميرى الذى يدفع إلى الديوان فى كل عام ، فأجيب التماسه [٣] ، وفى دار الكتب وثائق بالالتماسات والفرمانات التى أصدرتها الدولة التركية لرفع المظالم التى كانت تنزل بقرية زفتى وغيرها من البلاد التابعة للسادات الوفائية [٤] .

والغريب أن يحدث هذا فى أواخر العصر العثمانى — أى فى أيام الاضطراب التى فشا فيها الظلم وانتشر طغيان الحكام وبغى الجنود ، وأرهقت الضرائب الجمهور وأخذت منه عنوة أكثر من مرة ، وكثرت الأتاوات التى كانت تفرض على الفلاح المسكين والتاجر البائس ، وبينما كان الضنك والظلم

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٢٠٠

(٢) المناقب الكبرى ص ١٠٧

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، بيت السادات الوفائية ص ١٦ ، طبقات الشاذلية ص ١٠٨ وكان تحويل الزاوية الى مسجد سنة ١١٩١ هـ كما جاء فى هذه الطبقات .

(٤) أنظر « فرمان رفع المظالم عن كفر طرشوب الكائن فى تصرف الوفائية » وآخر « بمنع التعرض لبعض أوقاف على زاوية الوفائية » و « شكوى من بعض علماء الأزهر الى قائمقام مصر بمنع من يتعرض للسيد أحمد البكرى فى نظر وقف زاوية الوفائية » وفرمان سنة ١١٩٦ من ديوان مصر برفع المظالم عن جهة زفتى جوادة . . . الخ الخ .

يتمشى فى البلد طولا وعرضاً ، كانت الدولة تستجيب لمطالب شيوخ الطريق فى إعفاء القرى التى فى حوزتهم من دفع الضرائب ، وطلب الأموال لتعمير الزوايا والإنفاق على مجاوريها . . !! وكثيرا ما كانوا يرحلون من مصر إلى بلاد الروم (الترك) فى طلب الدنيا ويلتمس لهم « أفضل الدين » العذر فى ذلك، فيقول من المحتمل أن يكون الله قد كشف لأحدهم أن له رزقا فى بلاد الروم فيخف اليه فارغ القلب من محبة الدنيا [١] . . !! وكثيرا ما كانوا يبعثون الوسطاء للسعى فى تحقيق المطالب . . ! وقد فاخر الشعرانى بأنه كان لا يقبل هذا إن عرض عليه ولا يرضى به هوانا بالدنيا ومتاعها [٢] .

وكان البكرى الكبير المتوفى سنة ٩٩٤ هـ ملحوظ المكانة بين الحكام ، فكانوا يهادونه ويكاتبونه ، وللسلطان سليمان خان مزيد عناية به ، حتى أنه أطلق المرتبات الخاصة له ولذريته من بعده ، وكذلك فعل شريف مكة وسلطان فاس [٣]. ! وقد كانت الدولة تخاف نفوذهم وتخشى بأسهم وتهاب أتباعهم ، ولهذا أصدرت قانونا بنفى كل من يتظاهر بمظاهر الملوك منهم ، وكان نوابها وحكامها يخشون هؤلاء الفقراء فيحسنون استقبالهم إذا خفوا لزيارتهم ، ويختلفون إلى زواياهم ويستجيبون لشفاعتهم — بالغا ما بلغ خروجها على أبسط مبادىء العدالة — وقلما يترجم كتاب التراجم والطبقات لأحد هؤلاء المتصوفة فى هذا العصر دون أن يقولوا : وكانت لا ترد له شفاعة عند الحكام والأمراء .! وبذلك تعطل تنفيذ القانون فى البلد ، وصبح الفقراء وأكثر من يلوذ بهم فى أمان من عقابه إذا اقترفوا إثما أو ارتكبوا جريمة . . ! وان كان هذا من رحمة الله بالشعب البائس المظلوم .

بل لقد كانت لهم قوانين تحكمهم وتحدد عقوبة المذنب منهم ، وترسم

---

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٣

(٢) « « ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠

(٣) بيت الصديق ص ٧٦ ، ٧٧ ثم قارن هذا بما ورد عن الشعرانى فى المناقب الكبرى ص ٩٦

الحدود والمعالم فى حياتهم الدنيا ، ولا دخل للدولة فى أمرها . قال الجبرتى فى ترجمة محمد أبى السعود البكرى + ١٢٢٧ « واشتهر ذكره وسار سيرا حسنا مقرونا بالكمال جاريا على نسق نظامهم ، ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشاير كالأحمدية والرفاعية والبراهمية والقدرية فيفصل بقوانينهم »[١] والمراد بالخلفاء نواب وشيوخ الطرق فى القرى والأمصار ممن يديرون أمر المريدين والأتباع [٢] وفى دفترخانة السادة البكرية صك بتعيين الشيخ البيجورى شيخا للجامع الأزهر (سنة ١٢٦٣ ﻫ) وفيه تحديد اختصاصات شيخ الجامع وشيخ مشايخ الصوفية أوالشيخ البارز من بينهم . وقد جاء فى هذا الصك ما نصه :

« واذا رفع اليه - شيخ الجامع - دعوى وكان ذلك مما هو تحت حكم سعادة السيد البكرى كالأشراف ومشايخ الطرق فيرد إلى حاكم المذكور حكم الأصول السالفة وان الأمر فى المهمات . .. لأنه بذلك تحصل راحتهم جميعا لعدم تعدى أحد على أحد[٣] » . . . ! ! وكأن البلد خلومن القوانين التى تصون الحقوق وترعى العهود وتحفظ الحريات وتذود عن الحرمات . !

ولا ينبغى أن يقال إن هذا الشاهد الذى رويناه قد وقع بعد انقضاء العصر العثمانى بخمسين عاما ، فان ذلك حجة لنا لا علينا ، إذ كان الناس إذ ذاك فى عصر اسماعيل باشا ، فكان الكثيرون منهم قد انصرفوا الى التفكير فى شئون المدنية الغربية التى أصحبت الأسرة العلوية ، بل أقبلت مع نابليون فى غزوته ، ونمت واشتد بأسها فى عصر اسماعيل ، وانشغل أكثرالمستنيرين بأحداث السياسة الداخلية والخارجية فضعفت صولة التصوف وانكمش سلطانه عما كان فى أيام العثمانيين ، ولكن هذا لم يمنع من استمرار الفقراء

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨
(٢) جرجى : زيدان تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ٢٠٢
(٣) بيت الصديق ص ٣٤ — ٣٥ .

فى التقاضى أمام أظهر شيوخهم بقوانينهم الخاصة ، سائرين فى ذلك على ما جرى عليه العرف منذ القدم ، وان قولهم « فيرد الى حاكمه المذكور حكم الأصول السالفة ، لذو دلالة واضحة المعنى ، بل لقد كان الرجل إذا عظم نفوذه وقوى سلطانه يجمع فى يده السلطتين القضائيـة والتنفيذية فيحكم على الناس وينفذ أحكامه . . ! فقـد اجتمع بعض أولاد البلد ذات ليلة بمنزل أحدهم — كما يروى الجبرتى — وأخذوا فى السخرية من أصحاب المظاهر على عاداتهم ، وتطاير النبأ حتى اتصل بالسادات فأرسل فى طلبهم جميعا « وعزرهم بالضرب والاهانة وجلساؤه ومرافقوه لا يعارضوه فى شىء بل يوافقوه ، وكذلك فعل بأحد أعاظم المباشرين من الأقباط ، توقف معه فى أمره فأحضه ولعنه وسبه وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد ولم يراع حرمة أميره وهو اذ ذاك أمير البلدة ، ولما شكا الى مخدومه مافعل به ، قال له وماتريد أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا ،[1] . . . ! وكذلك كان يفعل مع المباشرين وخدمة الأضرحة عند حسابهم على ما فى عهدتهم ، فيضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم . . ! وكان إذا أراد الايقاع بشخص وخشى عاقبة ذلك ، مهد الطريق سراً قبل الايقـاع به ، فيتألف الفقهاء والعلماء الذين ينتظر منهم إعلان السخط على موقفه ، حتى إذا ظفر بذلك قام بالايقاع والضرب جهراً أمام الناس [2] . . ! وكأن البلد من غير حكومة أو قانون ، . ! !

التمرد على العرف عند الفقراء

بل لقد تمردوا على أبسط قواعد العرف الذى جرى عليه أرباب الطريق من قديم الزمان . فان التصوف لا يستقيم بغير الزهد فى الحياة والإعراض عن مباهجها والميل عن مطالب النفس وشهوات الجسم ، والعيش فى جو بعيد عن الأغراض الدنيا والنزعات الأرضية ، ولكن الذى يثير عجب الانسان من

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٢٠٤

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ٢٠٢ .

هؤلاء الفقراء ، إقبالهم على الدنيا وحرصهم على التمتع بلذاتها والظفر منها بأوفى نصيب ، وقد يفعلون هذا كله جهاراً أمام الناس ولا يرون فيه سُبة ولا معرة ، مما أدى بالمؤلفين فى هذا العصر إلى الاكثار من تحذيرهم من الوقوع فى هذا الشر ، وإغرائهم بالزهد وحملهم على حياة الخشونة والتقشف (١) .

وكان الفقراء يقبلون على كل شيخ كريم ويتكدسون فى زاويته ، ويتزايد عددهم بين الحين والحين ، وينفضّون عن كل زاوية أدرك البخل شيخها وأصاب الحرص نقيبها ، وكانت الزوايا تكتظ بالفقراء وتعج بطوائفهم أيام الغلاء ، وكان الشيوخ — فى الجملة — يرون تمتعهم بالعيش الرغيد والحياة الهنيئة حقا من حقوقهم يستحوذون عليه إن شاءوا ويتنازلون عنه إن أرادوا . ! وما أكثر الذين كانوا يلتمسون أسباب الوصول إلى المال الطائل حتى إذا ظفروا به انفردوا بأكثره واستباحوا لأنفسهم وأولادهم العيش فى كنفه (٢) . والذين نادوا بتحريم هذا كانوا لا يتورعون عن التماس الأعذار لمن ينعم منهم بالملبس الفاخر ويتمتع بالطعام الشهى ، فيقولون إن المريد لا يجوز له ذلك العيش فى ذلك النعيم إلا إذا كان من أصحاب الكرامات وخوارق العادات . ! وقد روى الشعرانى حادثة من هذا النوع وعلق عليها قائلا : فلولا أن الشيخ أقام البرهان على طعامه اللذيذ بالكرامة ، لفارقته تلك المرأة وهى منكرة عليه (٣) . . !

***

ومن هذا نرى أن أرباب الطريق فى هذا العصر قد تمردوا على عرف البلاد وتحرروا من دينها وخرجوا على نظمها وقوانينها ، بل أدى بهم التمادى فى التمرد إلى الخروج على أبسط قواعد العرف السائد بين أهل التصوف من قديم الزمان ، فهل يعدو الحق من يقول إن أرباب الطريق فى مصر

(١) أنظر فى تفصيل ذلك ، كتابنا عن الشعرانى إمام التصوف فى عصره

(٢) لطائف المنن ج ٢ ص ١١٩

(٣) العهود المحمدية ص ٢٣١

كانوا دولة داخل الدولة . . ؟ وفى الحق لقد كانت دولتهم غريبة فى تاريخ الدول ، لأنها أعطت أهلها الكثير من الحقوق والامتيازات ، ولم تحملهم من الواجبات كثيرا ولا قليلا . . ! فان الكثيرين منهم كانوا لايحملون أنفسهم حتى مشقة الدعوة للزهد فى الدنيا والتفرغ للعبادة ، بل كانوا يعلنون التمرد على هذا كله استهانة واستهتارا . ! فهل عرف التاريخ من قبل دولة كهذه الدولة . . ؟

إن من واجبنا أن نسهب فى بيان هذا السلطان الذى أتاح لأهله أن يحطموا الأغلال ويتحرروا من القيود ويملأوا الدنيا بهذه الإباحة المطلقة ، فى عصر تثقله القيود والسلاسل والأغلال ، فلنتتبع مظاهر هذا السلطان عند مختلف الطبقات وشتى الهيئات ، وسنرى من معجزاته ما يثير العجب . ولنبدأ ببيان مظاهره عند الشعب :

بعض مظاهر نفوذهم

دنيا الصوفية الروحية وحكامها — تقسيم مصر بين الأولياء الى مناطق
نفوذ — القطبانية ونفوذ أهلها فى مصر — آفاق نفوذهم فى مناطقهم
— بعض مظاهر نفوذهم عند المريدين — عند الحكام —

دنيا الصوفية الروحية وحكامها :

وفى الحق لقد ضاق العالم الاسلامى بالحياه الدنيا وكره ما تنطوى عليه من ألوان الشر وضروب الظلم ، وانتهت الرغبة فى إصلاح الدنيا عند نفر من أهله ، بتصور مملكة باطنية وراء الدنيا التى تعيش فى رحابها ونكرع من آثامها وشرورها . وكان طبيعيا بعد أن أقام هذه الدولة فى مخيلته ، أن يبحث لها عن حكام عدول يتولون إدارتها والإشراف على أحوالها ، ثم يخرج من هذا إلى تصنيف هؤلاء الحكام ، فصنفهم بطريقة تعسفية فى طبقات تختلف باختلاف المصنفين ، ويتزعمها القطب وتليه فئات من الأوتاد والأبرار والنقباء والنجباء والأبدال . . . وغير ذلك ممن يشرفون على مختلف مظاهر الحياة فى هذه المملكة الباطنية ويسّيرون دفتها وينظمون أمورها ويعوضون الناس خيرا عما يلقونه من شر دنياهم [1] . . !

وقد عرفت مصر فى العصر العثمانى من هؤلاء الحكام صنفين اثنين : وهما القطب والأولياء بوجه عام، وقد ضاق الشعب المصرى بدنيا الفاقة والظلم، فانساق بتأثير جهله إلى الإيمان بمن يدعون الزلفى إلى الله — ولما كان الأولياء فى هذا قد أصابوا المال الطائل ، وبسطوا نفوذهم على الأتباع والمريدين ، فقد تهيأ لهم

---

(١) كارادى ڤو فى مادة Wali بدائرة المعارف الاسلامية ، الأستاذ أحمد أمين بك فى ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ، نيكلسون فى Mystics of Islam ص ١٢٣ وما بعدها ، المناوى فى طبقاته الصغرى من ص ٨ الى ١٢ وغير هؤلاء كثيرون .

سلطان روحي ونفوذ دنيوي معـا ... !

تقسيم مصر بين الأولياء الى مناطق نفوذ :

انتشر الأولياء فى أرض مصر وفشا أمرهم بين أهلها ، واقتسموا مناطقها فاستولى كل ولىّ على مساحة من الأرض تقبل الزيادة والنقصان ، يتصرف فى أهلها ويستغل غلاتها ، فيقيم الولائم فى بيوت ملا كها ويطالبهم بالأتاوات ينظم منها موالد الأولياء — وكان الناس يخفون إليهم سراعاً كلما تطاير إليهم نبأ وجودهم ، ويستجيبون لمطالبهم راضين مغتبطين ، يحملهم على ذلك الأمل فى اكتساب البركة والظفر بالزلفى إلى الله . . ! والمنطقة التى تخضع لنفوذ الولى تتناسب فى سعة مساحتها طردياً مع قدرة هذا الولى على اجتذاب الناس اليه وكسب عواطفهم نحوه . وقد حرص كل ولى على إقرار نفوذه فى منطقته والعمل على توسيع دائرتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وكان يطمع فى أغلب أحواله فى أن يكون كافة أهل بلده تلامذة ومريدين له وحده[1] وكان الأولياء يؤثرون أن تكون الزعامة لواحد لا ينافسه عليها أحد ، حكى عن يوسف العجمى أن الله حين قضى بمغادرته بلاد العجم ، سمع هاتفاً يأمره بالسفر لينفع الناس فى مصر ، فظنه شيطاناً وأهمل أمره ، بيد أن النداء أخذ يتكرر حتى بلغ الرابعة ، فقال يوسف : اللهم إن كان هـذا وارد حق منك فاقلب هذا النهر لبنا أغرف منه بقصعتى ، وتقول الرواية إن النهر قد انقلب لبنا ..!! فأيقن أن الهتاف الذى سمعه وارد حق لا شك فيـه . . ! فلما أقبل على مصر وجد « الشيخ حسن التسترى » وقد سبقه إليها ولم يتصدر المشيخة بعد ، فقال له يوسف : إن الطريق لا تكون لأكثر من واحد يقوم بها لأنها تقوم على الأخلاق الالهية ، فإما أن أتصدر أنا وتكون وزيرى وخادمى ، وإما أن تتصدر أنت وأكون وزيرك وخادمك ، فتخلى له الشيخ حسن عن الصدارة وأخذ يقوم بخدمته حتى وافته منيته ، فأخذ مكانه بعد أن استأذنه

---

[1] البحر المورود ص ٢١٠

فى ذلك وهو على قيد الحياة . . ! وأظهر فى الطريق العجائب ، ودانت له الملوك وخضع لنفوذه الأمراء [١] . . !

وما كان مشايخ العصر على هذا الخلق ، فقد كانوا يظهرون بأنفسهم ويدعون المشيخة دون أن يبايعهم أولياء الدائرة ، ويدخلوا فى طاعتهم كما كان ينبغى ، وكانوا يجلسون المشيخة وفى بلدهم من هو أقدم منهم هجرة فى الطريق فلا يعبأون به ، مع أن الآداب تقضى باحترامهم له ، وطلب الإذن منه بارشاد المرشدين نيابة عنه ، إن أحسوا فى أنفسهم بأنهم أعلم منه [٢] ، ولقد أدى بهم هذا الادعاء إلى أن يجور بعضهم على حقوق بعض ، ويعتدوا على مناطق غيرهم ويحاولوا الاستحواذ على ما ليس لهم فيه حق . ! ولكن الأولياء كانوا على كل حال حريصين على أتباعهم ومريديهم لا يحب أحدهم أن ينفضوا من حوله ويلتفوا حول غيره ، ولعل هذا جائز ومحتمل فى رأى المنطق وحكم العقل ، ولكن الغريب أن شيوخ الطريق فى هذا العصر كانوا يطمعون فى أن يقتصر على صحبتهم كل من اتصل بهم أو تلقى الذكر عنهم بقصد التبرك والتيمن ، ولهذا نرى « الدردير العدوى » يحذر الأشياخ من شر ذلك ، ويقول إن المريد الصادق المحبة . هو وحده الذى لا ينبغى له أن يزور ولياً ولا صالحاً من أهل عصره إلا باذن شيخه ، ولا يحضر مجلساً غير مجلسه ولا يستمع الى أحد سواه ..! « أما الذين يتلقنون الذكر بقصد التيمن وحده فليس للشيخ أن يقيدهم بصحبته ، ومن طمع فى ذلك كان غير صالح لأن يكون شيخا فى طريق الله [٣] . ونرى الشعرانى يقول إن أشياخ عصره قد ضلوا حتى عز عليهم التميز بين من يحبهم مكتفيا بهذا الحب ، ومن يطلب التربية على يدهم ، ويروى ما يؤيد هذا فيقول إن أحد مشايخ العرب قد اجتمع بأحد شيوخ مشايخ الطريق وأهدى اليه قمحاً وأرزا وعسلا وذهبا ، وأقبل

---

(١) العهود المحمدية ص ٢٠٥

(٢) قواعد الصوفية ص ٢٥١ (مخطوط)

(٣) السيد محمد البكرى : السير الى الله ص ٥١٨ (مخطوط)

عليه إقبالا عظيما ، فقال الشيخ : إن كنت تصحبنى فلا تصحب فلاناً ، فنفرت نفسه من هذا التضييق وترك الشيخ قائلا : ما طلبت أن أكون شيخا ولا مريداً ، ثم مضى الى الشعرانى واجتمع به ، فظن الشيخ الأول أن الشعرانى هو الذى حرضه على تركه وحوله إليه وأغراه بصحبته فحمل له العداء من أجل ذلك[١]. وما كان الأشياخ ليطمعوا فى امتداد نفوذهم إلى هذا الحد، لو أن الشعب كان على استعداد للإعراض عنهم لو تجاوزوا حدودهم — ولعل رواية الشعرانى لا تنقض مانقول ، فليس يبعد أن يكون الشعرانى — بما عرف عنه من مهارة وقدرة على اجتذاب الناس إليه — هو الذى حول شيخ العرب عن شيخه الأول ، ولولا ذلك لرضخ شيخ العرب لمطلب هذا الشيخ واستجاب لرأيه . .

كان طبيعيا بعد هذا أن يغضب الولى إذا اعتدى أحد زملائه على منطقته التى تخضع لنفوذه ، بل لقد كان غالب فقراء هذا العصر يبغضون من لم يكن من تلامذة شيخهم ويتمنى الواحد منهم ألا يظهر اسم فى بلده لغير شيخه ، ويتبادلون نظرات مليئة بالحقد فياضة بالاحتقار ، كأنما ظن الواحد منهم أن من أخذ الطريق على غير شيخه كان على غير دينه[٢] وما كان المريدون وحدهم هم الذين يحملون هذه الضغينة وينطوون على هذا التعصب ، فقد كان الأشياخ إذا تحول عنهم مريدوهم إلى شيخ آخر أصابت الإحن قلوبهم ، وأدركت الكراهية نفوسهم حتى حذر الشعرانى الشيوخ من شر ذلك ، وأشار على من ابتلى به منهم أن يتخذ له شيخا يسلك على يديه حتى يرقى به إلى مرتبة الاخلاص ، فينشرح صدره لمثل هذا التحول ، لأن من ساءه هذا فقد أعوزه الاخلاص لطريقه[٣] .

(١) بهجة النفوس والأخلاق ص ١٦٨ (مخطوط)

(٢) لطائف المنن ج ٢ ص ١٠٣

(٣) العهود المحمدية ص ١٢٩

كان اعتداء الولى على منطقة غيره من الأولياء عدواناً بالغاً وامتهاناً لحرمة الطريق ، على أن الأولياء كانوا إذا رأوا ولياً أقوى منهم شخصية وأكثر أتباعاً وأمضى نفوذاً وأرحب سلطاناً، خضعوا له وساروا تحت رايته ، فإن أجمعوا على الإذعان له ، عرضوا عليه « القطبانية » ودانت له الأرض بما رحبت ، وخضعت له الرقاب بما حملت . . وكان وحيد عصره . . !

القطبانية ونفوذ أهلها فى مصر :

والقطبانية التى جرى العرف بأن تكون لواحد فذ لا تتجاوزه ، قد ظفر بها فى مصر بعض الأولياء إبان هذا العصر . . ! أصابها محمد الحفناوى الخلوتى المتوفى سنة ١١٨١ هـ الذى « دانت لطاعته الرقاب ، وأخذ العهود على العالم وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار وأحيا طريق القوم بعد درسها ، وأنقذ من ورطة الجهل مهجا من غى نفوسها فبلغ هديه الأقطار كلها وصار له فى كثير من قرى مصر — قبل أن يكون قطبا — نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع يذكرون الله تعالى ، ولم يزل أمره فى ازدياد وانتشار حتى بلغ سائر أقطار الأرض وصار الكبار والصغار والنساء والرجال يذكرون الله بطريقته ، وصار خليفة الوقت وقطبه ولم يبق ولى من أهل عصره إلا أذعن له . . . وأسلم على يديه خلق كثير من النصارى . . . ، وأكثر فيه الشعراء من المديح ، وبموته « ابتدأ نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية » لأن « الرحى لا تدور بدون قطبها ، وقد كان رحمه الله قطب رحى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإذنه » (١) .

بل لقد كان الولى إذا ثبت قدمه وذاعت تعاليمه ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، يشعر بتوطد سلطانه حتى ليأبى القطبانية إذا عرضوها عليه . . ! ! فمن ذلك ما كان من أمر أستاذه السيد مصطفى البكرى الذى « أوتى مفاتيح

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٥

العلوم كلها حتى أذعن له أولياء عصره ومحققوه فى مشارق الأرض ومغاربها، وأخذ على رؤساء الجن العهود، وعم مدده سائر الورود، فان قطبانية المشرق قد عرضت عليه فأباها[١] ..!!

وبلغ من خطر القطبانية فى العالم الاسلامى أن أشيعت عند المغاربة عن الزبيدى + ١٢٠٥ فى مصر — وهو صاحب الشرح الوافى لإحياء الغزالى[٢] وتاج العروس فى شرح القاموس وغير ذلك — فكان إذا وفد أحد هؤلاء المغاربة إلى مصر حاجاً ولم يصله بشىء، لا يعتبر حجه كاملا ..! وكانوا أيام الحج محتشدين ببابه منذ الصباح حتى المساء، وكان بعضهم يحمل إليه استفتاء من علماء بلده وأعيانه، فان ظفر « بقطعة ورق ولو بمقدار الأنملة فكأنما ظفر بحسن الخاتمة وحفظها معه كالتميمة » ورأى حجه مقبولا، وإلا فقد باء بالخيبة والندامة وأحاطة باللوم أهل بلاده، ودامت حسرته إلى يوم ميعاده[٣] ..!

ومن الخير أن نشير إلى أن الكتاب فى هذا العصر كانوا يسرفون فى إضافة الأوصاف إلى من يترجمون لهم، على سبيل التمجيد والتعظيم، ولم يكن صغار المؤرخين وحدهم هم الذين ينزلقون الى هذا الإسراف، وكان الناس — فى مصر — يزعمون أن الأقطاب أربعة — وقال بعضهم بل اثنان — وقد عرض للحديث عنهم الأستاذ « لين Lane» وصور فكرة المصريين عنهم بشىء التفصيل[٤].

على أن الأولياء كانوا فى مصر يعلنون استقلالهم إذا لم تجد القطبانية من هو أهل لها، قال الجبرتى معقبا على ممات الحفناوى: إن البلاء قد نزل بالبلاد

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ١٧٢

(٢) اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للسيد محمد بن محمد الحسينى الزبيدى الشهير بمرتضى — طبعة مصر فى عشرة أجزاء وطبعة المغرب فى ثلاثة عشر جزءا.

(٣) الجبرتى جـ ٢ ص ٢١٣.

(٤) لين E.Lane فى كتابه السالف ص ٢٣٦ وما بعدها.

المصرية والحجازية والشامية بعده ، ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وساد أقطار الأرض ، وهذا « هو السر الظاهرى » وهو ولا شك تابع للباطنى ، وهو القيام بحق وراثة النبوة وكمال المتابعة وتمهيد القواعد وإقامة أعلام الهدى والإسلام وإحكام مبانى التقوى . لأنهم أمناء الله فى العالم وخلاصة بنى آدم ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »[١] وظاهر من نص الجبرتى أن القطبانية لو وجدت من يتولاها بعد ممات الحفناوى لما أصاب البلاد الإسلامية هذا البلاء ..! ولعل هذا الرأى يخالف ما اتفق عليه جمهرة الباحثين فى القطبانية ، إذ انعقد رأيهم على أن القطبانية لا تخلو لحظة واحدة من ولىّ يتولاها ويقوم بأعمالها[٢] .

آفاق نفوذهم فى مناطقهم :

كان المتصوف إذا خرج إلى الشارع أو سار فى الأسواق تهافت عليه الناس وتكاثر حوله عديدهم ، وسدوا طريقه وانهالوا على يديه وقدميه تقبيلا ولثما ، وممن كان خروجهم إلى الشوارع يثير هذا الضجيج السيد محمد البكرى ، كما يقول صاحب الكواكب السائرة[٣] . بل لقد روى صاحب النور السافر فى ترجمته أن الشعراء من فضلاء مصر المتمكنين فى علوم اللغة وقواعد الشعر ومذاهب الإنشاء ،كانوا يقصدون إليه بقصائدهم المليئة بالمدائح، وأنه كان إذا قام من مجلس جلس فيه للتدريس بالجامع الأزهر أو غيره ، تقدم الناس لتقبيل يده والتبرك بدعائه والتيمن بالقرب من موضعه ، وكان الازدحام يقع بينهم حتى ليسقط بعضهم تحت أقدام الناس — وكان يحيط به جماعة من جند السلطان التركى وغيرهم يحلقون على حضرته بأيديهم خشية عليه من أذى الازدحام ، وربما « أخذ أحدهم يده الشريفة وهى ممدودة لتقبيل الناس

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٣٠٥ — ٣٠٦

(٢) مادة Wali فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) الكواكب السائرة جـ ٢ ص ١٠٨

لطول زمن مدها لهم إذ كان يمدها لهم بعد درسه نحواً من ساعة زمانية ثم يسير إلى جهة دابته والناس على الغاية فى الازدحام عليه إلى أن يصل اليها ، كما يقول صاحب النور السافر[١] ، بل لقد كان وجود الفقير فى مكان قفر كفيلا بتعميره وجذب الناس اليه ، اتصل بالشيخ محمد المنير ذات يوم أن ولدا قد اشتد به الظمأ حتى قتله ، فهاله ما سمع ومضى إلى المكان الذى مات فيه وحفر فى الأرض بئرا وأقام زاوية له فسرعان ما تهافت عليه الفقراء وعمروا لهم بيوتا على كثب من زاويته ، فأضحى المكان الفقر قرية عامرة بالفقراء والناس والنزلاء ومن يرحلون عن مصر إلى القدس والشام أو غزة أو يعودون إليها من هذه البلاد[٢] ، وكان أبو النجا الفوى « إذا سافر إلى بلده « فوه » ثم عاد الى مصر ووصلت مركبه إلى بولاق إذهب الناس أفواجا يتلقونه كأنه سلطان ، ويكون ذلك يوم عيد عندهم ، كما يقول المناوى[٣] .

بل لقد امتد نفوذ هؤلاء إلى طريدى القانون والخارجين على قواعد الدين..!! فكان العصاة من قطاع الطرق يرتدون على يد الشيخ على البيومى + ١١٨٣ مريدين وأتباعا له . ! ومنهم من صار من السالكين .! وقد كان يوثقهم أحيانا فى أعمدة مسجد الظاهر بسلسلة من حديد ، وتارة يضع الطوق فى رقابهم أو يؤدبهم بما يقتضيه رأيه وهم سكوت عن رضا وطواعية . .! وكان إذا ركب إلى المشهد الحسينى فى جماعته تبعه هؤلاء العصاة والمجرمون حاملين العصى والأسلحة فى موكب له روعته وجلاله[٤] ، وكذلك كان الشأن مع الشيخ الشناوى ، فقد كان ينظر إلى قاطع الطريق وهو مار به فسرعان ما يتبعه هذا ولا يملك رد نفسه عن ملازمة الشيخ والسير فى ركابه . .! وقد ارتقى بعض

---

(١) النور السافر ص ٤١٥ — ٤١٦ وقد ذكره فى وفيات سنة ٩٩٣ هـ أما ابو السرور البكرى وعلى مبارك والغزى فقد ذكروه فى وفيات سنة ٩٩٤ هـ (ينظر بيت الصديق ص ٧٤ نقلا عن أبى السرور البكرى ، الخطط التوفيقية جـ ٣ ص١٢٦، الكواكب السائرة جـ ٣ ص ١١٢) .

(٢) تكميل النور السافر ص ٢٩٣

(٣) الكواكب الدرية ص ٤٨١

(٤) الجبرتى جـ ١ ص ٣٤٠ ، طبقات الشاذلية ص ١٤٤

هؤلاء اللصوص التائبين حتى صاروا من أعيان جماعته[١] . . !

ومعنى هذا أن الشعب كان لا يعبأ بماضى الفقراء الذين يحسن الظن بهم، ويؤمن بصدق ولايتهم ، ولعل هذا ليس أغرب من أن نقول إن حاضرهم كان لا يعنى الناس فى أكثر الحالات . !

سار على البكرى + ١٢٠٧ هـ عاريا فى الأسواق يهذى فى حديثه ويخلط فى كلامه ، فيؤول الناس هذيانه تأويلا يلائم أحوالهم ويتفق مع أغراضهم ، واستغل أخوه سذاجة الناس فمنعه من الخروج إلى الشوارع والأسواق — مكشوف الرأس والسوأتين كما كان يفعل فى أغلب أحواله — وحبسه فى بيته وروج له وعزا إليه من الكرامات والخوارق ما حمل الناس على الإسراف فى الإيمان به والمسارعة إلى تقديم الهدايا والنذور اليه حتى أثرى أخوه من ورائه ، وقد بلغ من اعتقاد الناس فى هذا الدرويش أن تبعته امرأة ولزمته فى الشوارع والأسواق ، فسرعان ما آمن الكثيرون من الناس بصدق ولايتها ، وأشاعوا أن الشيخ قد « لحظها وجذبها » فأضحت من أولياء الله الصالحين ، ثم ارتقت فى درجات الجذب فخرجت معه إلى الشارع فى زى الرجال يتبعهما أنى سارا الأطفال والصغار وعامة الناس . . ! ومنهم من اقتدى بهما « ونزع ثيابه وتحنجل فى مشيته » فقيل إن الشيخ قد جذبه أومسه فصار وليا . . ! وكثر أتباع هذا الرجل المعتوه حتى كان إذا مر بشارع ملأه ضجيجا، ونهب أتباعه محال التجار واستولوا على ما فيها من بضائع . ! وكانت المرأة تصعد أحيانا على درج عال وتفحش فى القول فيزداد إيمان الكثيرين بها ويقبلون يدها تيمنا ببركتها . . ! ومر موكبهم ذات يوم ببيت جندى يسمى « جعفر كاشف » فقبض على الشيخ وأدخله إلى داره ومعه المرأة وسائر المجاذيب — ثم طرد الناس عنه وقدم له ما يأكله ، وأدخل المرأة والمجاذيب إلى الحبس وأطلق الشيخ إلى حال سبيله . ثم أخذ يضرب المرأة والمجاذيب حتى طير

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١١٦ .

الولاية من رءوسهم ورد الرشد إلى عقولهم، ثم أطلق سراحهم إلا المرأة فانه أرسلها إلى المارستان وربطها عند المجانين، ولبثت على هذه الحال حتى إذا جدت الحوادث أطلق سراحها فخرجت إلى الشوارع فاذا هي «شيخة على انفرادها» يحسن الناس الاعتقاد فيها، ويؤمن النساء بصدق ولايتها حتى أقيمت لها الموالد — بعد مماتها — وقدمت إليها الهدايا والنذور[1] ..!!

بل بلغ من مكانته الملحوظة أن كان شيوخ الطرق في الدول الإسلامية يجتمعون به فيعطيهم «إذنا عاما على عموم الطرق ويأذن لهم في أن يكونوا رؤساء يرجع إليهم في أمر عموم أهل الطرق .. » كما يقول صاحب طبقات الشاذلية[2].

وكما كان هذا هو الشأن مع الأميين والمشعوذين فقد كان مع المستنيرين، وقد عرفنا من قبل كيف جمع السادات في يده السلطتين: التشريعية والتنفيذية حتى أباح لنفسه أن يستدعي المذنبين والآثمة في رأيه، ويفرض عليهم العقاب الذي يشاؤه، وينفذه على مرأى من الناس ومسمع من الحكام، فلا يغضب لذلك أحد.! والغريب أن روح العصر كانت لا تسمح بأن يكون الحاكم واحدا من أهل البلد..!

ولم يتوافر له هذا النفوذ عند عامة الناس وطغامهم فحسب، بل كان له سلطان ممدود الرحاب على ذوي المكانة الملحوظة من رفقائه وجلسائه الذين كانوا «لا يتكلمون معه إلا بميزان، وملاحظة الأركان، ويتأدبون معه في رد الجواب وحذف كاف الخطاب ونقل الضمائر عن وضعها في غالب الألفاظ، بل كلها حتى في الآثار المروية والأحاديث النبوية، وغير ذلك من المبالغات وتحسين العبارات والوصف بالمناقب الجليلة حتى إن السيد حسين المنزلاوي الخطيب كان ينشيء خطبا يخطب بها يوم الجمعة التي يكون المترجم حاضرا

(١) الجبرتي ص ١١٣ و١١٤ جـ ٢، ٨٤ و ٨٥ جـ ٣ وطبقات الشاذلية ص ١٥٣ و ١٥٤ (مع سذاجة في تعليل الظواهر)

(٢) طبقات الشاذلية ص ١٧٢

فيها بالمشهد الحسيني وبزاويتهم أيام المولد ، ويدرج فيها الإطراء العظيم فى المترجم والتوسل به فى كشف المهمات وتفريج الكروب وغفران الذنوب حتى أنى سمعت قائلا يقول بعد الصلاة : لم يبق على الخطيب إلا أن يقول اركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات[١] . او كذلك كان شأن هذا الرجل المادى الوصولى مع أعاظم المدرسين فى ذلك الوقت ، قال الجبرتى كذلك « وبالغوا فى تعظيمه وتقبيل يده ومدحوه بالقصائد البليغة طمعا فى صلاته وجوائزه وحصول الشهرة لهم ، وزال الخمول والتعارف بمن يتردد إلى داره من الأمراء والأكابر ، وزاد هو أيضا وجها ووجاهة بمجالستهم وبلغ به أنه لا يقوم لأكثرهم إذا دخل عليه ، ومنهم من يدخل بغاية الأدب فيضم ثيابه ويقول عند مشاهدته يامولاى ياواحد ، فيجيبه هو بقوله يامولاى يادائم ياعلى ياحكيم ، فاذا حصل بالقرب منه بنحو ذراعين حبا على ركبتيه ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه ، وأما الأدون فلا يقبل إلا طرف ثوبه وكذلك أتباعه وخدمه الخواص . . . الخ »[٢] . بل حسب هؤلاء الشيوخ نفوذا عند الشعب ، مرضاته عما كانوا يرتكبونه من الزنا بالنساء والفسق فى الغلمان ، وتعاطى المخدرات واستيلائهم على أموال الناس ، وحرصهم على الدنيا باسم الزهد فى الدنيا والاستهانة بشهواتها والرغبة فى الاتصال بالله . !

* * *

بعض آيات نفوذهم عند المريدين :

أوجب شيوخ الطريق على المريد آدابا شلت إرادته وطمست شخصيته ، ورفعت الشيخ فى نظره إلى مرتبة الله ، بل جاوزت به هذه المرتبة . . ![٣] فمن ،

---

(١) الجبرتى جـ ٤ ص ٢٠٥ ، بيت السادات الوفائية ص ٢١

(٢) الجبرتى جـ ٤ ص ٢٠٠

(٣) أنظر كتابنا عن الشعرانى فى الفصل الذى عقدناه على علاقته بالمريدين

ذلك مايراه السيد محمد البكرى الكبير + ٩٩٤ هـ فى رسالة له يصرح فيها بأن من واجب العبد — أى المريد — أن يذكر أنه بين يدى أستاذه « فى كل نفس من أنفاسه »[١]، ولكنه يصرح فى رسالة أخرى بأن الله قد جعل أسبابا يصل بها عبده إلى حضرته الربانية ، منها مراقبة الحق وتذكر العبد أنه بين يدى الله فى « سائر أوقاته أو غالبها . . !! »[٢].

بل أوجب الشيوخ على المريد أن يستجيب لأوامرهم ولو قضت بعصيانه لله وتمرده على قواعد دينه ، بافطار رمضان أو الإهمال فى إقامة الصلاة ..!![٣] ومثل هذا يقال فيما أباحه الشرع وحرمه الشيخ ، لأن الترقى لايكون بالاستمتاع بالمباح من اللذات ، بل بالزهد فيما أحل الله من وجوه اللذة ، والتزام الجانب الوعر فى السلوك إلى الله .[٤] واتباع نصائح شيخه — بالغا ما بلغ وجه الإجحاف بها وقلة الذوق فيها . ![٥] بل إن السنة المروية عن رسول الله — فيما يدعون — لا تبرر اعتراض المريد على شيخه فى أمر أو نهى . . ![٦] وإذا أشرك المريد بشيخه شيخاً آخر ، كان كمن يشرك بالله . . !![٧] إلى آخر هذا الهذر الذى فشا فى آثار هؤلاء الشيوخ . . !

بعض آيات نفوذهم عند الحكام :

وقد استبد سلطان هؤلاء الشيوخ بنفوس الملوك والسلاطين والأمراء ، فتنافس هؤلاء فى الاتصال بهم والظفر بمرضاتهم وإصابة الطيبات من دعواتهم ، واستغلال نفوذهم عند الشعب فى اكتساب مرضاته عن جور هؤلاء الحكام : فمن ذلك أن كان الولاة يتقربون إلى بعض هؤلاء الشيوخ ويتخذونهم أصدقاء

---

(١) هداية المريد ٤٦٠ (مخطوط) (٢) تحفة السالك ص ٤٥٨ (مخطوط)

(٣) السير الى الله ص ٥١٩ أ

(٤) الشعرانى : قواعد الصوفية ص ٢٠٧ أ

(٥) قارن للمصدر السالف ص ١٢٦ و ١٣١ و ٢٠٧

(٦) للمصدر السالف ص ١٣٠ أ

(٧) للمصدر السالف ص ١٥٤ و ١٥٥ وقارن الجبرتى جـ ٢ ص ٦٥ — ٦٦

وندماء (١) ويتردد نواب مصر وقضاة عساكرها وحكامهم على الدمرداش + ٩٥٤ هـ ويلتمسون تقبيل يده فلا يلقى لهم بالا (٢)، بل كان الأمراء والسلاطين فى بلاد العالم الاسلامى يحسنون الظن بالسيد البكرى + ٩٩٤ ويكاتبونه ويهادونه ويلتمسون عنده النصح والإرشاد، ويستجيب لشفاعاته ولاة مصر ونوابها، ويختلف لزيارته الوزير سنان باشا كل يوم جمعة، ويقبل يده ويأتمر بأمره وينتهى بنهيه (٣). وكثيراً ما كان الأمراء يساهمون فى إقامة أضرحة الأولياء وتنظيم موالدهم الملأى بالفساد من الزنا بالنساء واللواط بالغلمان ونحوه (٤)، وكان نساء الأمراء يحسنّ الظن بالدجالين من هؤلاء ويغمرنهم بالهدايا والنذور — كما كان شأنهن مع المخبول «على البكرى» (٥) صاحب الضريح والمزار القائمين فى الرويعى بالقاهرة إلى يومنا الحاضر.

ولم يكن هؤلاء الحكام فى موقفهم من شيوخ الطريق — صادقين كانوا أو دجالين — يمتازون عن طغام الناس كثيرا أو قليلا، وأحداثهم التى تشهد بهذه السذاجة أكثر من أن يحصيها العد، فمن ذلك أن الوزير على باشا ابن الحكيم قد اشتد به الضيق فى إحدى رحلاته، فرأى فى منامه احمد البكرى + ١١٥٣، فلما استيقظ اشتد إيمانه بولاية هذا الرجل، فاذا زاره الشيخ تلقاه الوزير باحتفاء بالغ، وخر على الأرض وأخذ يقبل قدميه، ويطلب اليه أن يأذن له فى زيارته بين الحين والحين، وراح يرسل اليه الهدايا بغير حساب (٦). بل كان الأمير إذا تعنت مع أحد هؤلاء الشيوخ، ثم أصابه شر، نسبوا ما أصابه إلى الشيخ المهيض، واشتد إيمان الأمراء بولايته. ا وهذا النوع من

---

(١) أنظر مثلا «الحقيقة والمجاز» للنابلسى ص ١٤٧

(٢) المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر جـ ٣ ص ٢٠٤ والحقيقة والمجاز ص ١٠٠

(٣) توفيق البكرى : بيت الصديق ص ٧٦ — ٧ وانظر ص ١٧٨ عن ابى المواهب البكرى.

(٤) الجبرتى جـ ١ ص ٢٢٥ عن موقف الأمراء من العفيفى.

(٥) الجبرتى جـ ٧ ص ٨٤

(٦) الجبرتى جـ ١ ص ١٦٣ وبيت الصديق ص ١٦٠

الشواهد يملأ كتب الطبقات والتراجم ، وإن كان الكثيرون منهم يرون أن التصريف بالمقدرة الالهية — وهو القدرة على العزل والإيذاء والتنكيل — لا يكون لغير واحد من أولياء الله ..

فلم يكن غريبا بعد هذا أن يلتمس الحكام معونة هؤلاء الشيوخ زلفى إلى الله من ناحية ، وضمانا لرضا الرعايا عن جورهم من ناحية أخرى ، وكثيراً ما كانوا يلجأون اليهم عند المحن والأزمات ، ويلتمسون عندهم العون على تهدئة الناس وحفظ الأمن العام ، أو فى الانتصار على الخصوم والأعداء ، روى الجبرتى أن إبراهيم بك قد مضى إلى البكرى + ١٢٠٨ هـ والعروسى + ١٢٠٨ والدردير + ١٢٠١ — حين أقبلت إلى مصر الحملة التأديبية التركية بقيادة حسن باشا الجزايرلى القبودان — وأنه أخذ « يبكى لهم وتصاغر فى نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فانه كان يخاف ذلك جداً »[1] . وقد كان هؤلاء الثلاثة من كبار شيوخ التصوف فى مصر إبان عصرهم[2] . وإن جمع العروسى والدردير بين الفقه والطريق .

وكذلك كان الحال مع السيد خليل البكرى ، إذ كان الأمراء الذين أدركهم الجزع من بطش الفرنسيين بهم أيام فتح نابليون ، كانوا — فيما يقول الجبرتى — يلوذون به ، ويجتمعون فى بيته ، لأنه مسموع الكلمة مقبول الشفاعة[3] .

وقد بلغ من نفوذ الشعرانى عند الحكام ، أن كان يسعى لتعيين القضاة

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١١٨

(٢) اقرأ تراجمهم فى الجبرتى ج ٢ ص ٢٦٦ — ٧ للأول و ٢٦٧ — ٢٧٠ للثانى و ١٥٧ — ١٥٨ للثالث وقد ذكرت طبقات الشاذلية ترجمة قصيرة للعروسى ص ١٥٩ (وحددت تاريخ وفاته خطأ بعام ١١٠٨) وترجمة أخرى للدردير ص ١٥٥ — ٦

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ٩٢ وبيت الصديق ص ١٣٢

والمحتسبين وشيوخ العرب فى وظائفهم[١] كما كان الحفناوى قطب رحى الديار المصرية ، «ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا بإذنه »[٢] .

وقد كان هؤلاء الشيوخ ، يعملون من جانبهم على إيهام هؤلاء الحكام بسطوتهم وسعة نفوذهم ، لأن هذا يعلى من شأنهم فى نظر الناس ، ويكثر من أتباعهم ، ويدر عليهم المال الطائل ، ويحقق لهم السمعة الطائرة ، فكان الشيخ يقول لنقيب زاويته : إذا أقبل الأمير الفلانى لزيارتى ، فقل لى على مسمع منه إن الباشا قد أرسل إليكم السلام مع أحد أفراد جماعته ، وهو يطلب إليكم ألا تضنوا عليه بدعواتكم . ! فاذا سمع الأمير ذلك ، نقله إلى سائر الأمراء فيعلو شأنه عندهم ، ويكثر ترددهم على زاويته ، ويقوى اعتقادهم فى ولايته . . !«[٣]

وكان الشيخ السادات + ١٢٢٨ هـ يلتمس شتى السبل لتوثيق علاقته بالأمراء ، فكان يدعوهم إلى زيارته فى بيته ، ثم يوعز إلى فقراء الطرق الأحمدية والسعدية والشعيبية بأن يمروا بمواكبهم تحت داره ، حتى يدرك الحكام مبلغ نفوذه عند أرباب الطريق ..![٤] .

• • •

ومن الأرزاق التى أجراها هؤلاء الحكام ومن إليهم من المحسنين ، عاش هؤلاء الفقراء فى ترف ورخاء — لا يستقيم مع أبسط قواعد الطريق — ولكنهم كانوا يدعون أنهم ينفقون من الغيب ، لأن الصادقين من شيوخ الطريق ، لا يذعنون لقبول ما يقدمه لهم الملوك والأمراء من أموال وهدايا ومرتبات ، ولا يرضون عن حياتهم المألوفة بديلا[٥] . والرزق إنما يكون عما يفتح الله ، فان العبد إذا صدقت نيته ، وأخلص فى عبادة ربه ، أدناه الله من

---

(١) الشعرانى : البحر المورود ص ٢٢٣

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ٣٠٥

(٣) الشعرانى : لطائف المنن جـ١ ص ٢٨٢

(٤) الجبرتى جـ ٤ ص ٢٠٣ وبيت السادات الوفائية للسيد توفيق البكرى ص ١٩

(٥) الشعرانى : تنبيه المغترين ص ٢ و ٣ ب(مخطوط).

حضرته ، وقربه من ساحته ، وأولاه الكثير من نعمه ، حتى ليرتفع فوق نواميس الطبيعة وقوانينها ..!!

ووجه الغرابة فى هذا التعليل ، أنه قد صادف قبولا عند مؤرخى ذلك العصر ، وفاتت حقيقته ذوى الحجى منهم ممن سبقوا عصرهم بأزمان طوال ، فالجبرتى يؤرخ لمحمد القلينى الأزهرى + ١١٦٤ هـ فيقول إنه كان من أصحاب الكرامات والمآثر ، منها أنه «كان ينفق من الغيب ، لأنه لم يكن له إيراد ولا ملك ولا وظيفة ، ولا يتناول من أحد شيئا ، وينفق إنفاق من لا يخشى الفقر ، وإذا مشى فى السوق تعلق به الفقراء ، فيعطيهم الذهب والفضة ، وإذا دخل الحمام دفع الأجرة عن كل من فيه »..!![١] ويقول المحبى فى ترجمة أحمد بن سلام المصرى ، إنه كان لا يتردد إلى أحد من الكبراء ، ويحب الفقراء ولا يقبل من أحد صدقة مطلقا ، بل كان فى غالب أوقاته يُسرى متصدقا ، وليس له وظائف ولا معاليم ، وعلى ذلك كان فى أرغد عيش وأطيب نعيم » ..!![٢] ويقول الشعرانى عن الشيخ الدويب ، إنه — حين وافته منيته — خلف مائة الف دينار ، لا يعلم أحد مصدرها ، لأنه كان متجردا من الدنيا زاهدا فى جاهها. ![٣]

ومرد الأمر كله — فيما نرى — إلى الأرزاق التى يجريها الأمراء ومن إليهم من المحسنين خفية عن الأنظار ، وهو تقليد حبذه الاسلام وحض المحسنين على اتباعه ، ومن هدايا الملوك ومن إليهم عاش هؤلاء فى وفرة من الرخاء ، وتيسر لبعضهم أن يبز الملوك فى مظاهر الجود والسخاء ، كما كان حال الحفناوى + ١١٨١ هـ[٤] والدردير[٥] والسادات والشعرانى[٦] وغيرهم .

---

(١) الجبرتى جـ ٢ ص ١٩٦

(٢) المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر جـ ١ ص ١٧٥

(٣) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١١٩

(٤) الجبرتى جـ ١ ص ٢٩٢ والدردير فى «الطريقة الصاوية» ص ٢٩ (مخطوط)

(٥) الجبرتى جـ ٢ ص ١٥٧ — ٨ (وهو يشرح قصة حجه وبناء زاويته من صلات سلطان المغرب).

(٦) فى كتابنا عن الشعرانى تحليل ما وقع له فى هذا الصدد .

ومن الانصاف أن نقول إن هذا النفوذ الذى تهيأ لشيوخ الطريق عند حكام البلد ، كان يمثل سلطة الشعب أمام هؤلاء الطغاة ، وبهذا تجلت إرادة الأمة حتى فى أسود الأيام التى سجل فيها التاريخ استكانتها لاستعباد الحكام.

وقد أفاد الشعب من وراء هذا النفوذ شيئا آخر ، هو رد الظلم والكف عن البغى ودفع العدوان ، ذلك أن شيوخ الطريق كانوا حلقة الاتصال بين الشعب المظلوم وحاكمه الجائر ، وكان وساطة الشيوخ مجابة وشفاعاتهم مقبولة فى أكثر الحالات .

وهذا بالإضافة إلى أن الأرزاق التى أجراها على شيوخ الطريق الأمراء ومن اليهم من الحكام ، كانت تنفق فى أكثر الحالات على الشعب المنكود الذى أرهقهم هؤلاء الحكام بضرائبهم الجائرة الظالمة ، ابتزهؤلاء أموال الشعب عنوة واقتدارا ، وردوا جانبا منها إلى شيوخ الطريق هدايا وأرزاقا ، أنفقت فى الترفيه على أصحاب هذه الأموال . . !

على أن شيوخ الطريق قد دفعوا ثمن علاقتهم بالحكام ، انتصارا لظلمهم وتأييدا للجائر من تصرفاتهم ، فأدى هذا إلى إضعاف روح التمرد على هؤلاء الظلمة ، وإخماد نار الثورة فى قلوب المصريين[١] .

---

(١) فى كتابنا السالف الذكر ، فصلنا الحديث عن هذا فى فصلين عقدناهما على

٢ – نفوذهم أمواتا

جلال الموت — الأميون من مدعى الولاية — العلماء من مدعى الولاية — نظرتهم إلى من أخذ العهد على موتى الأولياء — الطوائف التى سلكت الطريق على موتى الأولياء .

كان شيوخ الطريق إذا تخطفهم الموت، تسلط على الناس نفوذهم، واستأثر بالأميين والمستنيرين، وكلما تقادم عليهم العهد، ازداد نفوذهم قوة واستبد بهوى الناس وإعجابهم، ولا غرابة فى ذلك، فان الشعوب — والمتأخرة منها بوجه خاص — تؤمن بالأضاليل، وترث الأوهام جيلا بعد جيل، ولا يتدخل العقل فى تنظيم الحياة عند الناس إلا بقدر. وللموت حرمة ورهبة، تفضى بالناس إلى الاسراف فى تقدير من تخطفهم من الصالحين، والاشفاق من مهاجمة من يعدو عليهم من الأتقياء..! والصادق من شيوخ الطريق، بالغاً مابلغ من صدق التصوف، يصادف المفكرين والساخرين، ولكنه اذا أضحى فى ذمة الله، سكت عنه خصومه وحساده، وكف المنكرون عن التشهير به والنيل منه، وطوت حرمة الموت سوءاته، واكتفى الناس بتناقل حسناته عملا بالقول المأثور: اذكروا محاسن موتاكم. ومن ثم يعلو اسمه بعد موته، وتتسع فرجة الخلاف بينه وبين سائر البشر.

الأميون من مدعى الولاية :

وقد عرفت مصر أثناء العصر العثمانى طائفة من جهلة الشيوخ ومشعوذيهم الذين اتخذوا الولاية وسيلة للظفر بالدنيا وأداة للعيش الهنىء، وأحسن الكثيرون من الناس الظن بهم والاعتقاد فى ولايتهم، وعاش إلى جانب هؤلاء المنكرون لهم الساخرون بهم، فلما أصبح هؤلاء الشيوخ فى ذمة الله، خفت صوت المنكرين وتلاشت صيحة الساخرين، وخر الناس جميعا سُجَّدا أمام حرمة

الموت الرهيب ، وشيدت ضرائح هؤلاء الأولياء وارتفعت قبابها وأقام العلماء والكبراء موالدهم فى كل عام ، وساهم فيها خاصة الناس وعامتهم ..!! وقد كان فى طليعة هؤلاء الذين عرفهم العصر العثمانى فى مصر على البكرى + ١٢٠٧[١] الذى أشرنا اليه من قبل ، إذ كان رجلا مخبولا يمشى فى الأسواق والشوارع عاريا مكشوف الرأس والسوأتين فى أغلب حالاته ، أو يلبس قميصا وطاقية ويسير حافى القدمين يخلط فى أحاديثه ، فيتبعه الأطفال والصغار وطغام الناس ويسيرون وراءه بين منكر عليه ومصدق لولايته ، ولكن أكثر الناس قد مالوا إليه ، وصحت عندهم ولايته « كما هى عادة أهل مصر فى أمثاله » كما يقول الجبرتى ..! وكان له أخ صاحب دهاء ومكر ، فبدا له أن يستغل إيمان الناس بولاية أخيه ، عسى أن يكسب من وراء لوثته ، فحجر عليه وحرم عليه مغادرة البيت وألبسه ثيابا وأظهر للناس أنه أذن له بذلك ، وأنه تولى القطبانية . . . الى غير ذلك من وسائل التضليل ، فأقبل الرجال والنساء على زيارته والتيمن به وسماع ألفاظه والانصات الى خلطه وتأويلها بما فى نفوسهم ، وأفاضوا عليه الهدايا والنذور وخصه بالكثير منها نساء الأمراء والأكابر ، حتى أثرى أخوه واغتنى « ونفقت سلعته وصادت شبكته وسمن الشيخ من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل البو العظيم » ولبث على هذا حتى مات سنة سبع بعد المائتين والألف من الهجرة ، فدفنوه بمعرفة أخيه فى مسجد الشرايبى على كثب من مسجد الرويعى من غير مبالاة ولا اكتراث . وأقام عليه أخوه مقصورة ومقاما ، ورتب له المقرئين والمداحين وأرباب الأشاير والمنشدين بذكر كراماته وأوصافه فى قصائدهم وكانوا كما يقول الجبرتى « يتواجدون ويتصايحون ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه ، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه فى عبابهم وجيوبهم » قال البدر الحجازى شاعر العصر فى بعض مقطوعاته :

---

(١) سمى البكرى نسبة إلى سويقة البكرية التى كان يقطن بها .. فهو لا يمت بصلة الى أسرة البكرى المعروفة .

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا　　كل ذى جِنة فى الناس قطبا
علماهم به يلوذون بل قد　　اتخذوه من دون ذى العرش ربا
إذ نسوا الله قائلين فلان　　عن جميع الأنام يفرج كربا
وإذا مات يجعلوه مزارا　　وله يهرعون عجما وعربا
بعضهم قبل الضريح وبعض　　عتب الباب قبلوه وتربا
هكذا المشركون تفعل مع　　أصنامهم تبتغى بذلك قربا

إلى أن قال فى قصيدته الحافلة بالأخطاء :

كل ذا من عمى البصيرة والويـ　　ـل لشخص أعمى له الله قلبا
والحجـــازى حســـنا　　ينظر ما خالف الشريعة صعبا

وهرع لزيارة هذا الدعى المخبول النساء والرجال ، محملين بالنذور والشموع وضروب المأكولات . وصار ذلك المسجد مجمعا وموعدا[1] .

والعلماء من مدعى الولاية :

وإذا كان هذا موقف المصريين من رجل جاهل معتوه كعلى البكرى ، فليس غريبا أن يشتد بهم الإيمان برجل جمع بين العلم والتصوف كالشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام العفيفى + ١١٧٢ هـ . فقد كان هذا الرجل عالما على طريقة أهل عصره ، وقد اشتهر بينهم بصدق الولاية وصحة الكرامة وقد سحت السماء مطرا غزيرا بعد مماته بست سنوات ، فتهدم قبره وامتلأ بالماء ، فتحرك فى القبر سره وأحس أبناؤه ومريدوه بذلك ، فخفوا لنصرته سراعا . . ! شادوا له قبرا على كثب من عمارة السلطان قايتباى ونقلوا اليه عظام الفقيد ، وعقدوا على القبر قبة وأقاموا له مقصورة تضم مقاما عليه عمامة كبيرة ، فأضحى قبر الميت مزارا عظيما بعد ست سنوات بلى فيها جسمه ونخرت أثناءها عظامه . . ! ثم أنشأوا إلى جواره قصراً عاليا — عمره محمد كتخدا أباظة — وجعلوا حوله

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٨٤ و ٨٥ ، جـ ٢ ص ١١٣ وفى طبقات الشاذلية ص ١٥٣ — ١٥٤ رواية أخرى قائمة على التمجيد والثناء .

رحبة متسعة تحيط بها الأسوار لتكون موقفاً للدواب من خيل وحمير يفد على ظهورها زوار المقام ، وضحوا فى سبيل ذلك الكثير من قبور أكابر الأولياء وأفذاذ العلماء الأولين والمحدثين من المسلمين والمسلمات . . ! ثم ابتدعوا لهذا المزار المصطنع موسما وعيداً يقام كل عام ، ويفد اليه الناس عند إقامته من شتى البلاد – بحريها وقبليها – وينصبون كثيراً من الخيام والسرادق والمطابخ والمقاهى ، ويختلف اليها خاصة الناس وعامتهم من فلاحى الأرياف وأرباب الملاهى والألعاب والراقصات والبغايا والحواة وأصحاب القردة وغيرهم حتى يضيق عنهم البستان وتمتلىء بجموعهم الصحراء ، وهم يطئون القبور بأقدامهم « ويوقدون النيران ويصبون عليها القاذورات ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمور ليلا ونهارا ويستمر ذلك نحو عشرة أيام أو أكثر » .

وما كان العوام وحدهم الذين يسوقهم الجهل الى تقديس الجثث التى أبلاها الزمن ، وإن العلماء ليساهمون فى إكبار الموتى من هؤلاء الشيوخ وتقديس ذكراهم ، ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار ، بل يعتقدون أن ذلك قربة وعبادة ولو لم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلا عن كونهم يفعلونه [١] ولقد وصف الأستاذ « لين » E.Lane انتشار الأضرحة فى قرى مصر وإقبال المصريين على زيارتها ولثم عتباتها وتقبيل نوافذها وحوائطها ومقاصيرها ، وتقديم النذور إليها وإقامة الموالد لها ، وشرح ذلك كله فى كتابه الذى وصف فيه رحلته إلى مصر بعد انقضاء العصر العثمانى ببضع عشرات من السنين [٢] .

نظرتهم الى سمة أخذ العهد على موتى الأولياء :

هذا موقف الناس من الأولياء إذا طوتهم القبور . وإن الانسان ليعجب

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٢٢٤ و ٢٢٥ وطبقات الشاذلية ص ١٥٧

(٢) Lane, Manners and customs of Modern Egypt p. 244 - 6

لهذا السلطان الذى بلغ من قدرته على الاستبداد بهوى الناس أن كان يحمل بعضهم على التتلمذ على يد من أصبحوا فى ذمة التاريخ . . ! كم عرف تاريخ التصوف فى العالم الإسلامى من فرق وطوائف تعيش على ذكرى أولياء طواهم الرمس منذ سنين طوال . ! ولم يقدر لواحد من هؤلاء المريدين أن يرى هذا الولى أو يسمع عنه بمن عاصروه .. وقد شاع فى مصر إبان العصر العثمانى هذا النوع من الولاية : يدعى المشيخة واحد من عامة الناس ويزعم أنه قد أخذ العهد على البدوى أو الرفاعى أو الجيلى . . . أو أى من هؤلاء الأولياء الذين لم يسعد برؤيتهم والاستماع عليهم ، ولكن سحرته سمعتهم التى تتطاير فى العالم الإسلامى كله . . . وسرعان ما يلتف حوله أرباب الحرف وغيرهم من سذج الناس .

ثم يعيش هذا الشيخ وهؤلاء الأتباع والمريدون على بركة هذه الذكرى التى خلفها لهم الولى الكبير الذى يفاخرون بأنهم أخذوا الطريق عليه إنهم ليستمدون منه السر ويستلهمونه الولاية ويستعينون به على إتيان الكرامات ، ويستمطرونه الرحمة ويكادون أن يستغنوا به عن الله ..! وإن سلطانهم لقوى لا يخشى بأس منكر ولا ساخر ، فلا يعبأون بمن طعن فى تصوفهم أو اتهمهم بالجهالة أو الشعوذة ، أو الخروج على ظاهر الشرع ، ففى شيخهم الأكبر فى قبره غناء وأى غناء ..! ولقد كان التتلمذ على يد شيخ طواه القبر جائزاً حتى فى عرف من أنكروا على هذه الفرق تصوفها من غير شيخ حى ..! لأنهم يستثنون فى هجومهم من أخذ الطريق على ولى كبير غير مطعون فيه — كالسيد البدوى مثلا — وفى هذا الاستثناء ما يبرر قيام هذه الفرق فى نظر أهلها .

قالوا إن الأموات فى البرزخ قد صارت وجهتهم إلى الآخرة وظهورهم إلى الدنيا فلا يعنيهم خرابها ولا يهمهم عمارها إلا إذا كانوا شيوخاً حسنت ولايتهم ووجب الاقتداء بهم ، كالأئمة المجتهدين وأصحاب الرسل . فإن

الاقتداء بغير هؤلاء اقتداء ناقص ، لأن لكل إنسان أمراضاً لا تعرف بغير المشافهة مع شيخ حي يدل مريده على كيفية الدواء[١] ، ثم إن المشيخة ليست تركة تنال بالميراث ، وإنما هي ثمرة الصبر والرياضة والمجاهدة والجد والاجتهاد[٢] . على أن الصالحين من الموتى أولياء قد أوتوا القدرة على تربية « الصادقين من المريدين » وهم في البرزخ — كالسيد أحمد البدوى — فإن مريديه يسمعون صوته منبعثاً من قبره كما وقع ذلك للشيخ محمد الشنواى +٩٣٢ هـ على مسمع من الشعرانى حين زاره في رمسه واستشاره في السفر إلى مصر فأذن له وقال « سافر وتوكل على الله » . . . !! ويزعم الشعرانى أنه سمع ذلك بأذنه الظاهرة . . !! وكذلك كان عز الدين الأصفهانى يجتمع في المنام بشيخه أحمد الرفاعى ، فيأمره هذا وينهاه ويربيه ويشير عليه بما ينبغى اتباعه في حياته . . !! ومن صح له هذا المقام جاز له ألا يتتلمذ على يد شيخ حى مكتفياً بشيخه الميت . ! على أن من واجب المريد ألا ينصاع للأوامر التى يسمعها من شيخه في قبره إلا إذا عرضها على علماء الشريعة ، مخافة أن يكون الناطق بها شيطاناً لا ولياً . على أن الذين يشترطون هـذا الشرط يقولون إن صحة الاقتداء بالموتى من الأولياء وامتثال أوامرهم ونواهيهم لا يستلزمان رؤية صورهم الظاهرة ، ويقولون إنا اقتدينا برسول الله وصحابته والأئمة من بعده ، وما اجتمع واحد منا بأحد منهم . وما منع جمهور العلماء من ذلك[٣] . . وهكذا كان أهل التصوف جميعاً ، على اعتقاد في صحة الاقتـداء بالموتى من الشيوخ ، وإن رأى بعضهم أن ذلك لا يجوز لغير كبار الصالحين من الأولياء ، ولا ينتفع به إلا الصادقون من المريدين والأتباع .

الطوائف التى سلكت الطريق على موتى الأولياء :

وقد حفلت مصر في العصر العثمانى بهذه الفرق التى عاشت عالة على الموتى

(١) الشعرانى لطائف المنن جـ ١ ص ٢٨٩

(٢) قواعد الصوفية ص ١٧٣

(٣) لطائف المنن جـ ١ ص ٢٨٩

من الأولياء، كفرق الأحمدية والبرهامية والمطاوعة والرفاعية . . وكانت تضم ألوف الأتباع المريدين ، فأكسبها هذا سلطاناً واسع النطاق ، وهون من شأن الحملات التى أثار عثيرها خصومهم ، واستفز حفيظة بعض الشيوخ — من أمثال الشعرانى والخواص والجارحى — وحملهم على الطعن فيها والحط من شأنها . . . قال الشعرانى إنه لا ينكر على هذه الفرق إلا ما خالف صريح الشرع أو الاجماع[١] ، وأنه يحسن الظن بهذه الطرق جميعاً ، ولا يحكم على فقراء هذه الفرق التى أسلفنا ذكرها بأنهم خارجون على الشريعة لمجرد إشاعة تتطاير حولهم ، بل لا بد له من أن يرى بعينه حتى يستطيع أن يحكم حكماً تطمئن إليه نفسه ، فان فى كل طائفة من الفقراء الصالح والطالح ، فلا ينبغى أن يشمل الحكم كافة فقرائها ، لأن فى ذلك غبناً على الصالحين فيها[٢] .

والظاهر أن الذى حمل الشعرانى على الرفق فى هجومه على هذه الطوائف هو مذهبه فى تملق الناس ومجاملة الفرق ومسالمة الخصوم ولا سيما إذا كانوا أقوياء[٣] . فان رأيه فيهم كان سيئاً ، وقد ظهر ذلك فى فقرات أخرى ذهبت أشتاتاً فى مختلف مصنفاته ، منها قوله على لسان أحمد الزاهد : إن الملامتية والحيدرية وأكثر فقراء الأحمدية والرفاعية والبسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية خارجون على الشريعة فى عصره لأن أفعالهم يكذبها طريق أشياخهم من الصدق والزهد والكرامات والخوارق والتقيد بمظاهر الكتاب والسنة[٤] . ويقول فى مهاجمتهم إن كثيرين من الفقراء الذين لم يسلكوا على يد شيخ يتركون حرفتهم ويدورون فى الزوايا كلا على الناس والاخوان يأكلون من الصدقات ، وأوساخ الناس ، بعد أن كانوا يقتاتون

---

(١) لطائف المنن ج ١ ص ١٢
(٢) لطائف المنن ج ١ ص ٢٣٤
(٣) انظر شرح هذا فى كتابنا عن « الشعرانى إمام التصوف فى عصره » .
(٤) الشعرانى : قواعد الصوفية ص ١٧٥

من حرفتهم[١] ، وأن بعض فقراء الأحمدية والبرهامية قد قنعوا بلبس الزى وجهلوا فروض الوضوء وشروط الصلاة ، ومثل هؤلاء ليسوا شيوخا بإجماع المسلمين . فقد أدرك الشعرانى للأحمدية والبرهامية شيوخاً كانوا على الكتاب والسنة[٢] وقال إنه يكثر من إرشاد هؤلاء الفقراء إلى التتلمذ على يد شيخ من الأحياء ، يربيهم وينصحهم بألا يكتفوا بالسلوك على يد الأموات من الأولياء[٣] ، وروى المناوى عن أبى السعود الجارحى أنه كان يرميهم بقصور الهمة ولا يأخذ العهد على من تتلمذ لهم من قبل . . . الخ[٤] .

وإن هذا الطعن كله لينبىء بما كان لهذه الفرق من نفوذ وما توافر لها من سلطان ، ولعل من الانصاف أن نقول إن هذا الوهم الذى سلطته حرمة الموت على الناس كان إذ ذاك أمراً طبيعياً لا يدعو إلى دهشة ولا يثير عجبا ، لأنه وليد عوامل كثيرة تضافرت على وجوده وتعاونت على بثه فى نفوس الناس ، فمن ذلك ما ساد العصر من شعور دينى عميق كان يحمل الناس — خاصة وعامة — على الإيمان بقداسة كل ما يلصق بالدين من طقوس ورسوم وما يرتكب باسمه من بهتان وضلال . ثم هذه الجهالة التى تملكت رءوس الناس وأضعفت من تفكيرهم فى ظواهر الحياة وجرتهم إلى الخلط والاضطراب كلما عمدوا إلى تعليل إحداها حتى جعلوا « العلة الأولى » سبباً مباشراً لكل ما نرى فى الحياة من شر أو خير . ثم هذا الضنك الذى كانوا يعانونه ويقاسون ضيقه ، وذلك الجزع الذى ملأ هذا العصر الذى كانت فيه بيوت الأمراء فى تشاحن وانقسام حتى لا نكاد نطلع إلا على وثبة من حزب على حزب أو فتكة من أمير بأمير[٥] . ولا شك أن ذلك كله كان كبير الأثر فى قلق الناس وجزعهم من عدالة الأرض ، والتماسهم الإنصاف فى رحاب السماء ، ومادام الإيمان بالله قد عمر نفوسهم ، والجهل قد عشش فى رءوسهم ،

(١) البحر المورود ص ٢١٦ — ٢١٧ (٢) قواعد الصوفية ص ١٧٦

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ١٤ (٤) الكواكب الدرية ص ٤٧٨

(٥) محمد فريد أبو حديد : سيرة السيد عمر مكرم ص ٢

والضنك قد أحرج صدورهم ، والخوف قد أنقض ظهورهم ، فإن إيمانهم بأولياء الله بعد الممات يصبح أمراً طبيعياً محتوماً لا مندوحة عنه ولا مفر منه ..

* * *

عرضنا فيما سلف من فصول هذا الكتاب مظاهر النفوذ التي تهيأ لأرباب الطريق — أحياء وأمواتاً عند شتى طبقات الشعب ومختلف هيئاته ، وعرفنا كيف استعبدوا السادة واستبدوا بالطغاة وأذلوا الجبابرة وأخضعوا الخصوم وانتصروا على الحساد واستولوا على أموال الأثرياء ... ونريد الآن أن نعرف الأسباب التي هيأت لهم هذا النفوذ الواسع عند مختلف الهيئات .

اسباب انتشار التصوف

صلاحية مصر لانتشاره — الترف فى معيشة أرباب
الطريق — سقوط التكاليف الدينية عن مدعى
الولاية — حالة مصر تحت الحكم العثمانى —
حب الأتراك للدروشة

صلاحية مصر لانتشار التصوف :

يقول الأستاذ لين « Lane » إن العرب قوم شديدو الإيمان بالخرافات ، وليس بين الشعوب العربية شعب أشد إيماناً بالخرافات من المصريين ، وكثير من خرافاتهم الشائعة بينهم يؤلف اليوم جزءاً من دينهم ، لأن القرآن قد قال بها وأيد وجودها . . !! وأظهر هذه الخرافات جميعاً هو الإيمان بالجن والعفاريت[1] . ثم أسهب الأستاذ فى شرح هـــذا النوع من الإيمان عند المصريين ، وعقب عليه بشرح نوع آخر من الإيمان الخرافى ، هو الإيمان بقداسة الأولياء رغم ما كانوا عليه من خبل أو جنون أو دجل .

ويعنينا من النص السالف أن نلاحظ إطلاق الكلام فيه إطلاقاً لا يحده قيد ولا شرط ، لأنه يقرر أن العرب بطبيعتهم أهل خرافة ، وأن المصريين بفطرتهم عباد أوهام ، وربما انتهى بنا هذا التقرير إلى الدعوة العريضة التى حمل علمها فى مستهل القرن الماضى رينان « Renan » وأشياعه ، يوم فرقوا بين الشعوب فى قدرتها على الفكر والنظر ، بدعوى الاختلاف فى حظهم من الطبيعة السامية والطبيعة الآرية . . ! على أن النظرة التى أملاها التعصب فى القرن الماضى ، قد أخذت تذوب وتتلاشى فى القرن الحاضر أمام الأبحاث العلمية التى يقوم بها مؤرخو الفكر البشرى ، ولا سيما من اهتم منهم بدراسة الفلسفة الإسلامية .

---

(١) كتاب الأستاذ لين Lane ص ٢٢٨ .

والرأى عندنا أن انتشار الخرافات فى شعب من الشعوب يتناسب طردياً مع شيوع الجهل ، عكسياً مع انتشار العلم ، وإذا فشت الجهالة فى شعب وأصابته الفاقة وأدركه الضنك وثقلت عليه الحياة ، كان هـذا الشعب أصلح البيئات لشيوع الخرافات وانتشار الأوهام . وقد توافرت فى المصريين إبان العصر العثمانى هـذه الصفات : ملأت الجهالة رؤوسهم وأنقضت الفاقة ظهورهم ، وأحرجت المظالم صدورهم ، فلاذوا بالخيال يستعينون به على احتمال تلك الحياة التى ثقلت على كواهلهم ، وأقوى مظاهر الخيال الذى يميل إليه هـذا النوع من الشعوب . ما كان له اتصال بالعقائد الدينية ، لأن التدين يغذى هذا النوع من الإيمان الخرافى ويقويه فى نفوس أهله . فرد الأمر فى هذا الإيمان إلى الظروف التى أحاطت بالشعب المصرى لا إلى طبيعته .

هذا فيما يتصل بالدجالين من مدعى التصوف ، فأما المستنيرون فقد كان سبيل الاطلاع على كتب السلف من أهل التصوف ميسراً لهم ، فالغزالى — على وجه الخصوص — كان ذائع الصيت فى العالم الإسلامى كله ، وقد انتشرت تعاليمه وشاعت مؤلفاته فى التصوف وغيره ، وتناولها الكتاب بالشرح والتلخيص والاعتراض والتأييد ، وحسبنا أن نعلم فى هذا الصدد أن كتاب الوجيز قد كتب عنه سبعون شرحاً بعضها فى ستين أو ستة عشر مجلداً[١] ، وقد ساهمت مصر بنصيبها فى هذا الميدان ، ومن مظاهر الاشتراك فى فهم تعاليمه إبان العصر المملوكى أن محمد بن على العجاونى + ٨١٣ قد قام

---

(١) الزبيدى جـ ١ من أبحاث السادة المتقين ص ٤٣

وقد وضع كتاب الأنوار القدسية ، ولخص فيه « الفتوحات المكية » لابن عربى ، وخص به العلماء الأكابر ، إذ « ليس لغيرهم منه إلا الظاهر » ثم اختار منه كتاباً سماه « الكبريت الأحمر فى بيان علوم الشيخ الأكبر » فى جزءين ، « ووضع اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر » فى جزءين ، حاول فيه التوفيق بين عقائد أهل الكشف والعيان وعقائد أهل الفكر والاستدلال ، وأقام هذا الكتاب كله على أقوال ابن عربى فى الفتوحات وغيرها من آثاره ، ووضع كذلك « سواطع الأنوار القدسية فيما صدرت به الفتوحات المكية » ، وهو — فيما نعلم — لا يزال مخطوطاً ، و ... الخ .

بتلخيص كتاب « الإحياء » وكان شيخ خانقاه سعيد السعداء ، وقام أخوه باختصاره فى كتاب وصف الشيخ زين الدين قطلوبغا الحنفى المصرى + ٨٧٩ هـ كتاباً أسماه « تحفة الإحياء فيما فات من تخاريج أحاديث الإحياء » ثم وضع الجلال السيوطى + ٩١١ مختصراً آخر « للاحياء » وكان السيوطى طائر الشهرة قوى النفوذ بين معاصريه ، وجاء الشعرانى فوضع رسالة فى كلمة للغزالى هى « ليس فى الامكان أبدع مما كان » واطلع الشعرانى على كتب ابن عربى وتأثر بها تأثراً أدى به إلى أن يصبح « بوقاً » لابن العربى يردد فى كتبه آراءه بين الحين والحين [1]. ثم جاء « الزبيدى » فى أواخر العصر العثمانى + ١٢٠٥ هـ فشرح الإحياء فى عشرة أجزاء كبار [2] ، وقراء الجبرتى وغيره من مؤرخى العصر يعرفون أن كتاب الإحياء للغزالى والرسالة القشيرية وعوارف المعارف للسهروردى كانت شائعة منتشرة بين المستنيرين .

ومن الخير أن نعقب على هذا الكلام المجمل، بذكر ظواهر أخرى كانت من أعظم البواعث أثراً فى شيوع التصوف بين الناس :

كان الفقراء أروح بالاً وأكثر طمأنينة من الفلاحين فى حقولهم والتجار فى متاجرهم والصناع فى مصانعهم ، فقد كانوا كما أسلفنا من قبل فى أمان من تطبيق القوانين ، ومنجاة من ضغط الرأى العام ، واستعلاء على أبسط مبادىء الدين . وقل من الحكام من سوى بينهم وبين سائر طبقات الشعب فى جمع الضرائب وأخذ الاتاوات وإزعاجهم بالعدوان بين الحين والحين ، كان الشعب يئن ولا سيما فى فترات الظلم إبان هذا العصر — من شدة الضنك والاعتداء على الحرمات وامتهان الحريات على أيدى فرق الجند التى كانت لا تجد لها رادعاً يردعها عن هذا البغى ، وكان الحكام — فى الكثير من

---

(١) انظر كتابنا عن « الشعرانى إمام التصوف فى عصره » ص ٥٩ — ٦٣

(٢) طبعة مصر — أما طبعة المغرب فتقع فى ١٣ مجلداً (ومن الصعب على المصرى قراءتها للاختلاف فى رسم الحروف بين المصريين والمغاربة .

الأحايين — إذا اهتموا بعلاج هـذا الفساد عجزوا عن الضرب على أيدى الآثمين والمعتدين ، فلجأوا إلى الشعب الذى يئن ويشكو من هذا العدوان ، وطالبوه باخفاء نفسه عن المفسدين ، وشددوا النكير على من لا يستجيب لهذه الأوامر[1] ، وما أكثر حوادث العبث بالمشايخ بخطف عمائمهم والاستهتار بالناس والاستهانة بالحرمات بخطف النساء والصبيان من الطرقات ليلا ونهاراً[2] . وكان التجار — فى فترات الظلم — لا يأمنون على بضائعهم وأموالهم من العدوان الذى يتوقعون نزوله بهم بين الحين والحين . وقد كان من عادة الفرق العسكرية إذا فتحت بلداً شاركت أهل الحرف فى مكاسبهم ، فيمضى الجندى منهم إلى التاجر ويخلع سلاحه ويعلقه فى المحل ويصبح شريكه فى أرباحه ...!! «حتى ثقل على أهل البلدة هذه الفعلة لتكلفهم مالا ألفوه ولا عرفوه»[3] . وكان التاجر لا يكاد يستقر فى متجره حتى يسمع الناس يتصايحون ويتسابقون فى العدو ، فسرعان ما يحسبها فتنة قد شبت نارها فيبادر باغلاق محله ويلوذ فراراً..!! وكثيراً ما كان يتضح له بعد ذلك ألا فتنة ولا قتال ، فيعود إلى محله فيفتحه[4] . وكان الفلاح فى قريته معرضاً لنوع آخر من الفزع والجزع ، كان القضاة والكشاف يحطون عليه ويطالبونه بدفع الضرائب والأدوات ، فان عجز عن الدفع انتزعوا منه أرضه[5] وأذاقوه العذاب ألواناً وأشكالا : بالمقارع والكسارات وعصر الرأس وإمرار الطونس على ظهره وإدخال البوص بين الظفر واللحم والتعليق ووضع الخوذة المحماة بالنار على الرأس[6] وما إلى ذلك من ضروب القسوة البالغة ، وكان المباشرون — ولا سيما فى بداية الفتح — كالملوك يتصرفون

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٤٩ ، ابن اياس ج ٣ ص ١٥٠ و ١٨٣

(٢) ابن اياس ج ٣ ص ١٤١ و١٨٣

(٣) الجبرتى ج ٢ ص ١٢٤ (٤) الجبرتى ج ٢ ص ١١٩

(٥) الرافعى فى الحركة القومية ج ١ ص ٣٠ (٦) المناقب الكبرى ص ١٢١

فى أمور الدولة بما يشاءون « وليس على يدهم يد »[١] وما كان الولاة والكشاف والأعراب وقطاع الطرق ومناصر اللصوص هم وحدهم الذين يقلقون بال الفلاحين والتجار بين الحين والحين ، فقد كان الأغنياء والفقراء ينزلون بضيافتهم فيبادر هؤلاء بإعداد الطعام الفاخر لهم ، وتهيئة الجو الصالح لضيافتهم ، ويتحملون فى سبيل ذلك ما لا قبل لهم باحتماله[٢] ، بل كان التقصير فى أداء هذا الواجب يعتبر عند الناس فضيحة[٣].

أما المجاورون فى الزوايا فقد كانوا — حتى فى أغلب فترات الظلم الفادح — فى نجاة من هذه الشرور كلها ، لأن الجنود كانوا يخافون بأسهم ويخشون سلطانهم الروحى ، ويؤمنون باتصالهم بالله فيتزلفون إليهم ويطلبون الرضاء منهم ، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصيبه فى رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال .

الترف فى معيشة أرباب الطريق :

وكان للفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك ، لا يجهدون أنفسهم فى احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه ، بل كانوا يعيشون فى الزوايا طاعمين كاسين على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله . ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهدة الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شئون العيش ، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف ، وقد وصف مؤرخو العصر — من الجبرتى وابن اياس والشعرانى ومن إليهم — حال المصرى تحت الحكم العثمانى ، بما ينوء تحت نيره من فاقة وضنك ، ثم وصفوا حال الفقراء فى الزوايا وما كانوا ينعمون به من أطايب العيش وسائر مظاهر

---

(١) ابن اياس ج ٣ ص ١٨١ (٢) ودع الفقراء ص ١ ، ٢ ، ٢٠
(٣) البحر المورود ص ٣٠٤

اليسر والهناءة . فظهر خلال وصفهم نوع من التباين يثير الدهشة ويدعو إلى العجب[١] .

سقوط التكاليف الدينية عن مدعي الولاية :

كان من العوامل التى أدت إلى انتشار التصوف شيوع الرأى القائل بأن الولى يسقط عنه كل ما أمر به ، ويحل له أن يفعل كل ما نهى عن فعله ، والأصل فى الرأى أن طائفة من المتصوفة أجازته لمن بلغ الغاية القصوى فى الولاية . فرأى طغام الناس أن ادعاء الولاية ينقذهم من تكاليف الدين ، وينجيهم من فروضه وواجباته ، ويتيح لهم التمتع بما حرم عليهم من رذائل وشهوات — وكان طبيعياً أن يشيع مثل هـــذا الرأى بين ناس قد انحلت أخلاقهم فى عصر شابه الذل وتمشى فيه الضنك وساده الفقر ومست الحاجة إلى أسباب الترويح عن النفس — فنزع بعض الناس إلى الهرب من ضغط التقاليد وتضييق الرأى العام على حرية الناس ، بالتماس الحرية فى رحاب التصوف ، وإدعاء الولاية التى ترفعهم عن سائر البشر ، وتجعلهم فوق قواعد الدين وأوضاع العرف ومقتضيات التقاليد .

ولعل انحلال الأخلاق فى هذا العصر قد ساعد على ادعاء الولاية ، ولا عجب فى أن تنحل أخلاق قوم يشتد فى نفوسهم التعصب لرسوم الدين وطقوسه ، فان تاريخ الأديان يقول إن عصور الاضمحلال تسودها نزعتان دينيتان متضادتان : نزعة ترمى إلى التشبث برسوم الدين والتزام طقوسه ، ونزعة ترمى إلى التهاون فى تنفيذ تعاليمه والاستهتار بقواعده ومبادئه ، وأن هاتين النزعتين تسيران جنبا إلى جنب فى العصر الواحد والبلد الواحد والشخص الواحد . !! وبهذا وجد انحلال الأخلاق فى مصر إلى جانب ما أسلفنا ذكره

---

(١) انظر فى تفصيل ذلك الفصل الثانى من كتابنا عن « الشعرانى » . وقد أدى الترف الذى ينعم به المريدون ومن إليهم من مجاورى الزوايا وروادها ، إلى إقبال الناس على اعتناق التصوف والافادة من ثمراته .

من تعصب شديد ، وكان من مظاهر هذا الانحلال الخلق شيوع الزنا وانتشار المخدرات وغيرها من حشيش وخمرة وبوزة[١] وشيوع الشذوذ الجنسى من عشق المرد والغلمان ، ومن أمثلة النوع الأول ما رواه الشعرانى عن طالب علم اعترف له بأنه أحب زوجة شيخه وزنا بها وهى تخادع زوجها وتستغل غفلته[٢]..!! وقد كان هذا الداء شائعا فى هذا العصر ، فقد انتشر الزنا بحليلة الجار أو من غاب زوجها ، حتى لم يسلم منه أحد ، ضم أحد المجالس جماعة من أكابر الناس فقال أحدهم من سلم منكم من الوقوع فى الزنا فليحلف بالله على ذلك ، فما تجرأ واحد منهم على القسم واعترفوا جميعا بأنهم وقعوا فيه إبان شبابهم[٣].

ومن أمثلة النوع الثانى ما رواه عبد الغنى النابلسى عن إمام مسجد السنانية ببولاق فقد حضر النابلسى مع زين العابدين البكرى +١١٠٧ صلاة الجمعة بهذا المسجد فأدهشه أن الخطيب كان كثير اللحن فى خطبته وصلاته ، وكان زين العابدين كلما سمع لحنه نظر إلى النابلسى وابتسم فظن الإمام أنه معجب به مغتبط بكلامه ، فلما انتهت الصلاة مضى الخطيب إلى زين العابدين فى زاوية الكلشنية وأخذ يتشفع عنده «فى أن يأخذ له بقية الخطابة لأن له شريكا فيها لا يستحقها ، فأفهمه بعض الحاضرين حقيقة حاله وعرفوه بأن الشيخ كان يبتسم لكثرة لحنه فى خطبته وصلاته . » فاعتذر بأنه كان غائبا يأكل الحشيشة التى هى مناه ، ثم عدل عن ذلك كله إلى السخرية وأظهر الكلمات المضحكات والاصطلاحات العامية فطرده الحاضرون،[٤] ولو أن تعاطى الحشيش كان اتهاما يشين صاحبه أو يقضى على سمعته ، لالتمس هذا الامام عذرا للحنه غير

---

(١) كان الأفيون غير شائع بين المصريين وإن شاع بين الأتراك فى مصر وقد فشى الحشيش بين المصريين كما يقول كلوت بك فى «لمحة إلى مصر» جـ ٢ ص ٥٢٥

(٢) العهود المحمدية ص ٢٧٩

(٣) العهود المحمدية ص ٣٤٧

(٤) عبد الغنى النابلسى : الحقيقة والمجاز + ١٠٧ — ١٠٨

هذا العذر ، والجبرتى وابن إياس خير من تحدثا من المؤرخين عن انتشار الحشيش والخمر والبوزة والفسق بالنساء والمرد إبان هذا العصر[١] .

والأمثلة على النوع الثالث (الشذوذ الجنسى) كثيرة لا يكاد يحصيها العد ، فكثيراً ما ترى فى كتب التاريخ والتراجم والطبقات أن هذا العالم أو غيره كان يعشق الغلمان سامحه الله[٢] وقد عرضنا بعض مظاهر هذا النوع من قبل.

وليس أدل على شيوع الشذوذ الجنسى بين هؤلاء الناس من دهشة رفاعه بك طهطاوى حين سافر إلى فرنسا لأنه لم يجد هذا الداء منتشرا بين أهلها . كأن انتشاره هو الشيء الطبيعي وغير الطبيعي حقا ألا يكون شائعا بين الناس[٣].

هذا الانحلال فى الأخلاق قد ساعد الناس على التهافت على دخول الطريق وادعاء الولاية ، وعاون على تمهيد السبيل لانتشار الدجل وشيوع الشعوذة ، ولو كانوا على خلق عظيم أو تدين صحيح لكان من المحتمل ، بل من المؤكد أن ينفروا من هذا الادعاء ، ويتساموا بأنفسهم عن تضليل الناس

وينبغى أن نشير الآن إلى أن العوامل التى أسلفناها لم تكن وليدة العصر العثمانى وحده ، فقد قامت فى مصر وعظم أمرها قبله ، وازداد خطرها واستشرى داؤها إبان العصر العثمانى ، وذلك متفق مع رأينا الذى أعلناه من قبل حين قلنا إن التصوف الذى قام فى مصر إبان العصر العثمانى ، كان امتدادا طبيعيا للتصوف الذى شاع فى مصر قبيل ذلك ، وأن الخلاف لم يكن فى نوع تياراته بل كان فى قوتها أو ضعفها ، وسنزيد هذا الكلام وضوحا فيما يلى من حديث .

---

(١) فى ابن إياس جـ ٣ ص ١٣ ، ٨٥ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٨٨ ، ١٩٨ أمثلة لتأييد ذلك .

(٢) الجبرتى جـ ٢ ص ٢٧٦

(٣) الذهب الابريز لرفاعه طهطاوى .

حالة مصر تحت الحكم العثمانى :

ساعدت الحالة فى مصر تحت الحكم العثمانى على نمو التصوف وازدياد انتشاره ، والرغبة فى تأييد هذا الرأى لا تمنعنا من التصريح بأن الحالة فى هذا العصر كانت فيما نرى امتدادا طبيعيا للحالة قبيله ، وأن الخلاف بينها كان فيما شمل التيارات من قوة أو ضعف . . لا نقول إن الحكم فى العصر العثمانى قد ساء ، ولكننا نقول إنه ازداد سوءا فترتب على ازدياد السوء فيه نتائج ، كان من أكبرها خطرا ما اتصل بالتصوف وموقف الناس إزاءه ، إذ أدى بهم شعورهم بنمو السوء فى الحكم الجديد الى مضاعفة الرغبة فى دخول الطريق واعتناق التصوف . . ا ولكن هذه الآراء كلها أحكام عامة لا يحسن بنا أن نمر بها دون أن نحاول التدليل على صحتها :

إن الشعوب إذا مرضت بالفاقة والجهالة تناسب رضاؤها عن الحكام تناسبا طرديا مع رخاء العيش وصيانة العقائد الدينية فى عهـــدهم ، فالحاكم الذى ينجح فى تحقيق اليسر لهم ويصون تقاليدهم الدينية من عبث الاستهتار ، يكون أحب الحكام إلى نفوسهم ، وأدناهم الى عواطفهم ، ولو امتهن حرياتهم واحتقر كرامتهم وداس كافة حقوقهم وحرماتهم ، فاذا نظرنا الى الحكم العثمانى بهذا المنظار وقارناه بالحكم المملوكى فى نهايته ، قلنا إن المصريين قد ساءهم حكم المماليك فى أواخره ، ثم ازداد استياؤهم فى أيام العثمانيين سوءا بالغا ، فلنشرح هذا فى إيجاز .

فمن ناحية الحياة الاقتصادية ، اضمحلت ثروة البلاد باكتشاف رأس الرجاء الحسن وتحول التجارة عن مصر ، وخويت خزانة بيت المسلمين فى عهد الغورى حتى رشق جامع الضرائب بالحجارة فى شوارع القاهرة[1] وبلغ من شدة العوز أن اختار الأمراء بعد مماته « طومان باى » ليخلفه فامتنع عن قبول

---

[1] دولة المماليك فى مصر ص ١٦٧

ذلك وألح فى الامتناع حتى استعان الأمراء عليه بأحد كبار الأولياء — هو أبو السعود الجارحى — فجمعهم به وجعلهم يقسمون على المصحف أمامه بأن يطيعوه وبهذا تولى « طومان باى » السلطنة على مصر[١] ولكنهم حنثوا بأيمانهم وتخاذلوا عن نصرته فى رد العدو الزاحف حين أعلن إفلاس الخزانة وعجزها عن مدهم بالمال الذى يتطلبه القتال[٢] وكان الشعب يشعر بصدى هذا الافلاس فى معيشته .

وأما من حيث الحرص على تقاليد البلاد الدينية فقد عجز الحكم المملوكى عن القيام بهذه المهمة فى أواخر أيامه ، فقد كان الناس يجاهرون بارتكاب المعصية ، فاذا حرم عليهم ذلك وحتم على اليهود والنصارى ألا يبيعوا الخمر والبوزة والحشيش ، لم يمتثل لأمره أحد منهم ، ولم ينته الناس عما هم فيه — بالغا ما بلغت القسوة فى التهديد بالعقاب[٣] .

كان طبيعيا بعد أن يشعر الناس بعجز الحكم المملوكى عن توفير أسباب الرخاء وصيانة التقاليد الدينية أن يبغضوه ويرغبوا عنه ويميلوا إلى حكم جديد ؛ فاغتبطوا بالحكم الجديد ولا سيما وقد اشتهر أهله بالجهاد الدينى ، وذاع عنهم العمل على نشر الاسلام وبسط نفوذه ، ولكن اغتباطهم لم يدم طويلا ، لأن الحكم الجديد قد أثبت منذ وطئت قدمه أرض مصر أنه أعجز من الحكم القديم عن ارضاء الناس بتوفير اليسر لهم ، وحماية عقائدهم من عبث العابثين .

فمن ناحية الحياة الاقتصادية ، ازدادت أحوال الناس ضيقا لأن الحكومة الجديدة كان عليها — كما عرفنا فى الكلمة التمهيدية للرسالة — أن ترسل للسلطان خراجا يبلغ الستمائة ألف ريال وهدايا بنحو ستمائة ألف أخرى عدا نفقات قافلة الحج ونفقات الجنود فى مصر وما يتقاضاه الوالى الذى كان يشترى الولاية على مصر بمبلغ يتراوح بين الأربعمائة ألف والخمسمائة ألف

---

(١) ابن اياس ج ٣ ص ٦٩

(٢) ابن اياس ج ٣ ص ٨١ — وقد أراد أن يترضاهم بالقليل فرموه فى وجهه ص ٨٤

(٣) ابن اياس ج ٣ ص ٨٥

ريال . ولما كان الأتراك يعتبرون مصر مزرعة تدر عليهم المال والخير الوفير فقد كانوا يقصدونها بين الحين والحين لتحقق لهم مطالبهم ، وقد تباروا فى نهبها منذ اليوم الذى وطئوا أرضها ، وقد عرفنا هذا فى الفصل التاريخى الذى مهدنا به لهذا الكتاب .

وأما من حيث الحرص على التقاليد الدينية فإن الحكم الجديد قد عجز كذلك عن أداء هذه المهمة ، فكان ينادى بابطال بيوت الحشيش والخمر والنبيذ والبوزة ويحرم الزنا ويقتل كبيرات البغايا من أمثال « أنس » ثم يطالب العثمانيون بإعادة ذلك ويتعصبون مصرين على إجابة مطالبهم فلا يلبث ملك الأمراء حتى يستجيب لهم ويقر بأن « أولاد « أنس » لا يعارضون فيما يفعلون من جمع « بنات الخطا » كما كانت تفعل أمهم[1] » .!! وقد عرف الناس هذه الاستهانة منذ استولى « سليم » على البلد، فقد شاع بينهم أنه حين طلع القلعة رأى خيمة المولد فباعها للمغاربة بأربعمائة دينار ، وباعها هؤلاء قطعا للناس، مع أن قايتباى قد أنفق فى صنعها عشرين ومائة ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك حتى كانت من عجائب الدنيا[2] وقد كان العثمانيون فى الجملة يتجاهرون بشرب الخمر فى الأسواق بين الناس ، وغالبهم لا يصوم رمضان ولا يقيم فى المسجد صلاة — حتى صلاة الجمعة إلا قليلا . . . !! وكذلك كان أمراؤهم ووزراؤهم كما يقول ابن إياس[3] . وبلغ من عدوانهم على الناس وحرماتهم أن كانوا يخطفون النساء ويفسقون بهن على قارعات الطريق والناس تنظر إليهم وتكظم الغيظ منهم ، وغير ذلك من ضروب الشذوذ الذى كان نادر الحدوث قبل العصر العثمانى .

على أن المقارنة التى أسلفناها غير وافية لأنها تشمل فقرتين قصيرتين ، وقد أوردناها لتوضح حالة الجمهور النفسية فى أواخر العصر المملوكى وأوائل

---

(١) ابن اياس ص ١٩٧ ، ١٩٨ (٢) ابن اياس ص ١١٢ ، ١١٣
(٣) ابن اياس ص ١٣٤

العثمانى ، ولنعرف موقفه من الحكم الجديد على وجه الدقة ، وينبغى أن نقول فى معرض المقارنة بين العصرين أن المماليك كانوا يرتقون العرش بحد السيف ، وأنهم كانوا بحكم مهارتهم فى فن الفروسية أقدر على حفظ الأمن والفصل فى قضايا الناس من الولاة العثمانيين الذين كانوا يشترون الولاية بالمال ، وكان الفائز بها منهم أقدر جميع الطامعين فيها على ابتياعها ، وأن المماليك كانوا لا يعرفون لأنفسهم وطنا غير مصر حتى كان الكثيرون منهم يفاخر بأنه مصرى ، وسماهم بعض المؤرخين بالأمراء المصريين ، ولهذا أثره فى عطف الحاكم على شعبه ، وكان عصرهم فى الجملة أقل ضنكا وفاقة من عصر العثمانيين فان « رأس الرجاء » لم يكن قد كشف بعد ، وكانت التجارة تدر عليهم أموالا طائلة ، ولم تكن هناك دولة أجنبية تطالبهم بالخراج أو الضرائب ، فكان حكم المماليك فى الجملة آثر عند المصريين من حكم العثمانيين الذين طغت فرقهم العسكرية على الحقوق وامتهنت الحريات واستهانت بالحرمات ، وهى المنوطة بحفظ الأمن وصيانة الحقوق ، فكان الفتح الجديد نكبة لا حيلة للمصرى حيالها ، فشعر بأن الأرض قد خلت من سند ينصره فراح يلتمس العون فى رحاب الآخرى وأحس بأنه غير آمن على نفسه وماله وولده ، وأنه لا يملك فى الدنيا شيئا نفيسا ولا تافها ، فزهد فى الدنيا ومال إلى جنات الآخرة التى يحميها حرس الله ويشرف عليها بعدله ولا تغفل عنها عينه ، وتكتمل للإنسان فيها طمأنينته ، أما ملوك هذه الأرض وطغاتها فسيعرفون يوم الدين كيف تذل الرقاب العاتية ، وتعلو رؤوس الضعفاء وتشمخ أنوف الفقراء ويتملك من كان بالأمس ذليلا . . . !

ومن طبيعة الفقر أن يحمل أهله على الإيمان بالله والاعتقاد فى رحمته ، وتاريخ الأديان يقول إن الذين استجابوا لرسالات الأنبياء وخفوا لنصرتهم سراعاً هم الفقراء والمعوزون والمحتاجون ، وقد كان تسعة أعشار الامبراطورية الرومانية يرزح تحت نير الفاقة فاستجاب للمسيحية حين دعاها الداعى إلى اعتناقها دون تمهل ولا إبطاء . . !!

ضاق الجمهور المصرى بحاله فلاذ بالدين وزهد فى الدنيا ومتاعها ، واشتد ميله إلى المسرفين فى الروحية وعظم حبه للزهدة والقانعين بالتافه من شئون العيش . فكان المتصوفة فى عرفه أقرب إلى الله من الفقهاء — أصحاب الوظائف وأرباب الزلفى عند الحكام — وبهذا ازداد التفافه حول الدراويش وعظم إيمانه بكل من ادعى الولاية وأسرف فى التظاهر بالتصوف .

على أن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الحكم العثمانى فى مصر قد صلح حاله بعد بداية الفتح ، ولكن ذلك — على فرض صحته — لا يغير من رأينا كثيراً ولا قليلا ، فان الاضطراب الذى صاحب الفتح فى بدايته ، قد ساعد على اطراد نمو الدروشة واستمرار انتشارها ، فكان غير طبيعى أن يرتد هذا التيار الجارف بعد حين ، وإذا كان علماء المنطق يقولون إن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، فان علماء الاجتماع ليعرفون بطلان هذا الحكم عند ما يطبقونه على الكثير من الظواهر الاجتماعية ، فكثيراً ما تصادفهم ظاهرة من الظواهر ، ويعرفون العلل التى أوجدتها ووجهتها فى تيارها ، ثم يرون أن العلل التى كانت السبب فى وجودها قد تلاشت واختفت ، ولكن الظاهرة التى نجمت عنها ما لبثت سائرة فى مجراها ماضية فى تيارها لا ترتد عن طريقها حتى يدركها الضعف فيوهن من سيرها وينتهى بها الوهن إلى الزوال ، فهى تسير مدفوعة بالقصور الذاتى . . ! وقد يستغرق هذا الانحلال من الزمن أجيالا طوالا تمر بعد زوال العلل التى أدت إلى وجود هذه الظاهرة . . .

حب الأتراك للدروشة :

كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهله والإيمان بصدق ولايتهم ، ولئن كان الولاة قد قربوا العلماء واعتمدوا عليهم بعض الاعتماد فيما يتصل بالشعب من شئون الحكم ، فذلك لأنهم أوفر علماً من أرباب الطريق .

فأما موقف الحكام العثمانيين وجنودهم من المتصوفة فقد أعلنه الجبرتى عندما عرض للكلام على عمارة التكية المجاورة للقصر العينى المعروفة بتكية البكتاشية ، إذ قال إن الذى قام بتجديدها بعد خرابها رجل من الدراويش قابل حسنى باشا وهو فى هيئة الدراويش وطلب اليه العون فاستجاب لمطلبه وساعده على تعميرها من رشوات مناصب المكوس التى توسط لأربابها هذا الباشا ، وقال الجبرتى إن الذى حمله على هذه المساعدة أن الأتراك « يميلون لذلك النوع — أى الدراويش — فصار صاحب الخانقاه من أخصائه لأنه من أهل عقيدته »[١] .

والمعروف أن الجنود على شجاعتهم فى ميدان الوغى يستعبدهم سلطان الأولياء الروحى ، فيؤمنون بالأساطير والخرافات ، لأن القتال شدة تحمل صاحبها على الاعتقاد فى الله والإيمان بما وراء المادة ، وقد كان الجند فى مصر على هذه الحال . روى المناوى فى ترجمة ابراهيم الكلشنى العجمى الذى دخل مصر فى دولة بنى عثمان ، ومات سنة أربعين وتسعمائة . أن الجند تهافتوا عليه وعظم اعتقادهم فيه حتى صاروا يقتتلون على شرب الماء الذى بقى من غسيله فى الحمام ..! وقد خافت الدولة من سلطانه وخشيت من تفكيره فى الاستيلاء على مصر وأخذها من يد السلطان فقررت نفيه إلى بلاد الروم مدة من الزمان . فلما عاد إلى مصر طرد أغلب الجنود عنه امتثالا لأمر السلطان[٢]..!! وقد بلغ من تهافت الجند على الطريق أن كان بعضهم يأخذه الحال فيجذب ويصيح فاذا هو ولى من أولياء الله « وفرح » المجذوب أصدق مثال لهؤلاء.[٣] وقد روى المحبى فى ترجمة محمد المرزناتى †١٠١٤ أنه اشتهر بالتعويذات فراج حاله عند الأروام « بسبب اعتقاد المتقدمين منهم ونال بسبب ذلك وظائف ومعاليم كثيرة »[٤] .

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٥٤ (٢) الكواكب الدرية للمناوى ص ٤٧٢ ب

(٣) الكواكب الدرية للمناوى ص٥٠٩ ب (٤) خلاصة الأثر للمحبى ج٤ ص١٠٨

وقد روى المحبي والنابلسي فى ترجمة شاهين الدمرداش + ٩٥٤ أن نواب مصر وأمراءها كانوا شديدى الاعتقاد فى ولايته[١] وأنهم كانوا يلتمسون تقبيل يده فلا يلتفت اليهم ولا يعبأ بهم[٢].

وقد روينا الكثير من أمثال هذه الحوادث من قبل، وكلها تشهد بمدى اعتقاد الحكام العثمانيين فى أرباب الطريق، وليس ينفى هذا أن حكام مصر قبل العصر العثمانى كانوا — فى الأغلب — أتراكا، فالفارق كبير بين تركى يعين فى الآستانة حاكما لمصر ويفد عليها تركى العقل والروح واللسان، وتركى يفد على مصر مملوكا صغيرا فيتأقلم فى أرضها ويعيش فى جوها ويتعلم لغتها ويصبح تركيا فى أصله مصرياً فى روحه وعقله ولسانه.

وليس من شك فى أن وجود العثمانيين حكاما لمصر قد شجع الكثيرين من دراويش الأتراك على الهجرة اليها والإقامة فى أرضها، ولسنا نعرف على وجه الدقة متى تكونت فى مصر الفرق التى تنحدر من أصل تركى، ولكننا نستطيع أن نقول إن الحكم العثمانى فى مصر لم يكن معدوم الأثر فى التصوف وطرقه..

أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى انتشار التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، وهى تغنينا عن السبب الذى التمسه الأستاذ «لين» وأشرنا اليه فى مستهل الحديث عن هذا الموضوع، لأن الطبيعة البشرية واحدة فى أصلها، وإن كان من المسلم به أنها تختلف باختلاف الزمان والمكان، وهى فى كل حالاتها تتأثر بالبيئة التى تعيش فيها، وتتغير بتغير هذه البيئة — اجتماعية وجغرافية معا.. فمن الخطأ أن يقال بعد هذا إن الشعوب تختلف فى طبقاتها وتتفاوت فى الفطرى من ميولها ونزعاتها..

حسبنا هذا من أسباب انتشار التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى، ولنعرض بعد هذا إلى الإبانة عن الحملات التى كابدها شيوخ الطريق لنعرف أثرها فى دولتهم التى تحدثنا عنها فى هذا الفصل :

---

(١) الحقيقة والمجاز للنابلسى ص ١٠٠ ب (٢) خلاصة الأثر ج ٢ ص ٢٠٤

الفصل الثانى

١ ـ الإنكار على أرباب الطريق

حملات الناس : موقف المنكرين من الجنود والحكام — النزاع بين الفقهاء ومشايخ الطرق — الحقد فى صدور العلماء — بعض مظاهره العملية — التناسب الطردى بين حقد الفقهاء وعلم أرباب الطريق — بعض مظاهر الحقد النظرية — تصوف الفقهاء الذين انتصروا لمشايخ الطرق — بعض مظاهر حب الفقهاء لأهل التصوف — موقف المتصوفة من الفقهاء — استمرار النزاع إلى اليوم — حملات أرباب الطريق على إخوانهم فى الطريق — بعض مظاهر المقاومة الفعلية ضدهم — بعض مظاهر المقاومة النظرية .

أبنا فيما أسلفنا كيف كان الفقراء دولة داخل الدولة ، يميزهم عن سائر الناس عرف وقانون ودين ..!! وعرفنا شيئا عن واسع النفوذ الذى تهيأ لهم عند شتى الطبقات ، وكفل لهم السيادة على جميع الهيئات ، وأذل أمامهم جبابرة وطغاة كانوا لا يعرفون فى الحياة الدنيا مذلة ولا هوانا ، وهيأ لهم استعباد الأتباع استعبادا يقره الدين لخير الله على عباده ..! ولكن هذا السلطان الواسع النطاق المبسوط الرحاب كان كثيرا ما يصادف المنكرين له الساخرين بأهله ، وقد كان ذلك طبيعيا فى شعب يكثر دجالوه وتفشو شعوذتهم ، ويظهر فيه الأدعياء سافرين من غير حجاب ، لا يقنعون بالاعتداء على الحريات ، والعدوان على الحرمات ، بل يستمرئون العيش على حساب الأغنياء والفقراء معا ، ولا يتورعون عن الظهور بمظهر الحياة المترفة أمام الناس كما أبنا فيما سلف . وإن كان علينا أن نسارع بعد هذا إلى التصريح بأن

المنكرين وإن كانوا كثيرين — فيما نظن — فان سلطانهم كان ضعيفا وجرأتهم على مقاومة هذا الضلال كانت كسيحة تعوزها القدرة على النهوض والحركة . ولعل هذا كان ما أغرى الدجالين بالظهور أمام الناس سافرين لا يسترد جلهم حجاب ، ولا يوارى استهتارهم بالدين والعرف نقاب ...

ومن الدلائل الشاهدة بظهور المنكرين فى هذا العصر ، أن أرباب الطريق فيه قد أكثروا من الدعوة إلى احترام التصوف والتحذير من الإنكار على أهله ، وقد حفلت كتبهم بالإلحاح فى الدعوة إلى التصديق بالكرامات والتسليم بمزاعم الأولياء ، والإسراف فى تصوير المصير السيء الذى ينتظر المنكرين ومن سار سيرتهم .. وهذا كله عميق الدلالة على أن دولة الفقراء كانت مهددة بضروب من المعاول تحاول هدمها وتسعى إلى تحطيمها — وإن كانت المعاول ضعيفة لا تقوى على الاضطلاع بهذا العمل الشاق الوعر كما أشرنا الآن.

وكان الذين يحملون معاول الهدم فى أيديهم فئات من : (١) الناس (٢) والجنود والحكام (٣) والفقهاء وحملة الشريعة (٤) بل أهل الطريق كذلك . فلنتناول مظاهر هذا التهجم على دولة الفقراء مظهرا بعد مظهر .

حملات الناس :

حسبنا عن حملات الناس ما تشهد به النصوص التى وردت متناثرة فى آثار أهل العصر ، فمن ذلك قول الشعرانى عن أدعياء الطريق من الدجالين : « وصار الناس يسخرون بأحدهم ويقولون لبعضهم ما دريتم ما جرى — فلان الآخر عمل شيخا .. ! كأنهم لا يسلمون له بما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهوتها والتلذذ بمطامعها وملبسها ومناكحها والسعى على تحصيلها حتى أنى قلت لبعض التجار لم لا تجتمع بالشيخ الفلانى . ؟ فقال : إن كان الشيخ شيخا فأنا الآخر شيخ ، فانه يحب الدنيا كما أحبها ويسعى فى تحصيلها كما أسعى ، بل هو أشد منى سعيا على الدنيا لأنه يسافر الى الروم (بلاد الترك) فى طلبها وأنا لم أسافر وربما أكل الدنيا بصلاحه وأنا لم آكلها بصلاحى فأنا أحسن منه حالا ،

فأردت أن أجيب عنه فرأيت الحس يكذبنى »[1] ويقول فى كتاب آخر «وقع لبعض المغفلين أنه جهز بنته فاحتاج الى طرحة ولحاف وليس معه مال فأتى التاجر بكيس فيه شعر من رأس شيخه رهنا على الثمن ، فسخر به التاجر وقال له : لو أتيتنى بأردب من شعر شيخك ما أخذته بجديد . فمكث أهل السوق يضحكون على ذلك ويسخرون به مدة طويلة »[2] .

وفى كتب المناوى والمحبي والشعرانى والجبرتى كثير من الحوادث التى تشهد بوجوب هذا الانكار عند كثير من الناس ، فمن ذلك ما يرويه المناوى والشعرانى عن ابراهيم عصيفير + ٩٤٢ من أنه كان ينام مع النصارى فلما سئل فى ذلك قال « نمت مرة بجامع الأزهر فسرقوا عمامتى ونعلى ولى عشر سنين أنام عند الرهبان ما سرقوا لى شيئا. ! » مع أنه كان كثير العطب لمن يؤذيه كما يقول مترجمو حياته [3] . . !

وروى « المحبى » « عن ابراهيم النبتيني » — من أهل القرن الحادى عشر الهجرى — أنه أقام بجامع اسكندر باشا نحو عشرين عاما كان الناس طوالها يستخفون به ويتناولونه بالسب والتهزىء حتى كان بعضهم يطرده من المسجد مخافة أن يلوثه بقذارته[4] .

وقد صور الجبرتى موقف الناس من مدعى الولاية عند ترجمة على البكرى + ١٢٠٧ والمرأة التى لازمته فقال « وإذا جلس الشيخ فى مكان وقف الجميع وازدحم الناس للفرجة عليه وتصعد المرأة على دكان أو علوة وتتكلم بفاحش القول ساعة بالعربى وساعة بالتركى والناس تنصت لها ويقبلون يدها ويتبركون بها وبعضهم يضحك ومنهم من يقول (ساخرا) : الله الله . وبعضهم يقول

---

(١) قواعد الصوفية ص ٢ (٢) لطائف المنن جـ ١ ص ٢٤٦

(٣) الكواكب الدرية ٤٧٢ ، الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٢٢ ، تكميل النور السافر ص ٤١٣ ، الخطط التوفيقية جـ ٦ ص ١٧

(٤) المحبى : خلاصة الأثر جـ ١ ص ٦٢

دستور يا أسيادى وبعضهم يقول لا تعترض بشىء[١] .

هذا بعض ما كان يقع من الناس بصدد الإنكار على هؤلاء الأدعياء

موقف المنكرين من الجنود والحكام :

أشرنا من قبل الى اعتقاد الجنود فى ما وراء الواقع وإيمانهم بالله تعالى وأوليائه ، بيد أن المنكرين للولاية قد ظهروا بينهم وكانوا قساة الأكباد مع من لا تعجبهم ولايته . وكثيرا ما أدى إنكارهم له الى ضربه أو قتله دون اكتراث ولا اهتمام .

روى الجبرتى عن على البكرى السالف الذكر أنه مر بموكبه بمنزل جندى إسمه جعفر كاشف فقبض على الشيخ وأدخله الى داره ومعه المرأة وباقى المجاذيب وأطعمه وطرد الناس عنه ثم أطلق سراحه أما المرأة والمجاذيب الآخرون فقد أثخنهم طعنا وأمطرهم ضربا حتى طير الولاية من رءوسهم وردهم الى الرشد فاستغاثوا معلنين التوبة فأطلقهم الى حال سبيلهم إلا المرأة فانه أرسلها الى المارستان مع المجانين[٢] .

وروى عن العليمى + ١١١٠ هـ أحد الأدعياء أن الناس كانوا يحسنون الاعتقاد فى ولايته ويجتمع عنده النساء والرجال وتنشأ عن اختلاطهم مفاسد عظيمة ، فاستاء الجنود لذلك وانطلقوا اليه وانهالوا عليه بسيوفهم حتى أجهزوا عليه ، وقد قال فيه حسن الحجازى شاعر العصر نظما جاء فيه :

ونساء مع رجال جالسات بالبديه
سلط الله عليه بعد هذا حاكيه
قتلوه مع ثلاث بحسام صالتيه
طول ليل ونهار أجل فسق تبتغيه
لثلاث بعد عشر من جماد الثانى فيه
وكفى الله البرايا شره مع تابعيه [٣]

وإنا لنلمس الاستهتار بدعوى الزلفى الى الله فى عبد الرحمن كتخدا ، الذى

(١ و ٢) الجبرتى ج ٢ ص ١١٤ (٣) الجبرتى ج ١ ص ٢٩

ذبح عنزة كان يدعى كبير خدام المشهد النفيسى أن السيدة أوصت بها خيرا حتى كانت تأتى الكرامات أحيانا مما أدى بالنساء الى أن يعتقدن فيها ويرسلن اليها القلائد الذهبية والأطواق والحلى والفستق واللوز وماء الورد والسكر المكرر وغير ذلك . . فدعى الأمير صاحب العنزة اليه وأدخلها الى زوجته بقصد التيمن بها ثم أمر بذبحها وإطعام صاحبها من لحمها دون أن يعرف — ثم أعلمه بعد الطعام بنبئها وأمره بالانصراف بعد توبيخه على أن يضع جلد العنزة على عمامته ويزفه طوال الطريق أصحاب الطبول والأشاير على نحو ما يقول الجبرتى فى حوادث سنة ١١٧٢[1] .

وأمثال هذه الحوادث كثيرة ، وكلها تنبيء عن قيام الانكار فى نفوس بعض الجنود والحكام .

النزاع بين أهل الفقه وأرباب الطريق

الحقد فى صدور الفقهاء :

تولى الصدارة بين الناس فى هذا العصر حملة الشريعة وأرباب الطريق ، ورغم ما كان بين الطائفتين من خلاف فى وجوه النظر فقد كان الدين سبيلهما إلى ارتقاء الزعامة ، ولهذا كان طبيعيا أن يثور فى صدور كليهما الحسد والضغينة والبغضاء وأن يقوم بينهما النزاع للذود عن الدين حينا ولحيازة السلطة أحيانا . . وقد اتخذ النزاع بين العلماء والمتصوفة فى العصر العثمانى مظهرين عنيفين : مظهر المقاومة الفعلية التى اتخذت صورة الضغينة والضرب والقتل وما يشبه ذلك ومظهر المقاومة النظرية بتأليف الرسائل يحملون بها على مسلك خصومهم فى لهجة تتراوح بين العنف واللين . فلنتناول المظهرين فى إيجاز مبتدئين بالحقد الذى ربض فى صدور الفقهاء .

بعض مظاهر المقاومة العملية :

كان العلماء فى الكثير من هجماتهم قساة غلاظ الأكباد يتخطون أوامر

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٢٦٤

الدين و نواهيه بدعوى الحرص على قواعده وتعاليمه ، فكثيرا ما كانوا يقتصون من خصومهم بالتنكيل بهم أو تدبير المؤامرات التى تودى بحياتهم مدعين بأنهم يحمون الدين من شرهم — وكان اتصاف الرجل بالتصوف — ولو قام تصوفه عن فقه بالدين — كفيلا فى أكثر الاحايين ببغض العلماء له وقسوتهم فى معاملته وسعيهم للتنكيل به ، وتاريخ التصوف فى هذا العصر حافل بالمآسى التى تشهد بالتعصب الدينى وتنطق بضيق العقول وكدر النفوس ، ومن أفظع هذه المآسى اغتيال « عبد الرءوف المناوى + ١٣٠٣ هـ رغم ما كان عليه من علم أدى الى إعجاب الكثيرين من الفقهاء به :

روى « المحبى » أن « المناوى » اعتزل الناس واعتكف لدراسة الدين والتبحر فيه ثم ظهر لهم فأنكروا عليه علمه ، ولما تولى التدريس فى المدرسة الصالحية برم بذلك العلماء لأن التدريس فيها كان وقفا على أكبر علما الشافعية — وهو شيخ الجامع الأزهر فى العادة كما يقول الجبرتى[1] — وهالهم إعطا هذا المنصب لرجل لا يعرفون عنه إلا أنه من أهل التصوف . فلما حضر الدرس أقبل عليه البارزون من شيوخ المذاهب وتأهبوا لانتقاده ، ولكنه شرع فى أقراء مختصر المزنى ونصب الجدل فى المذاهب وأتى فى تقريره بما لم يسبقه اليه أحد . فاضطر الذين حضروا درسه إلى الإعجاب به والثناء عليه ، وأخذ أجلاء العلماء يبادرون لحضوره ويفيدون منه ، وقد انتفع به جمهور كبير منهم ، ولكنه كان معروفا بالتصوف وكان صاحب زاوية بخط المقسم بين زاويتى « أحمد الزاهد » و « مدين الأشمونى » . فأثار هذا الضغينة فى نفوس حساده ودسوا له السم « وتوالى عليه بسبب ذلك نقص فى أطرافه وبدنه من كثرة التداوى ، ولما عجز صار ولده تاج الدين محمد يستملى منه التآليف ويسطرها ، حتى مات عام ١٠٣١ ودفن بزاويته[2] .

اغتال الفقهاء المناوى وحاول سلفهم أن يمثلوا المأساة مع عبد الوهاب الشعرانى + ٩٧٣ فلما أخفقت المحاولة سعوا إلى التنكيل به والتشهير باسمه[3] .

---

(١) الجبرتى جـ ٢ ص ١٥٩ (٢) خلاصة الأثر جـ ٢ ص ٤١٢

(٣) اليواقيت جـ ١ ص

وكان الشعرانى عالما من خيرة علماء عصره غزير المادة وحب الاطلاع واسع الحيلة ملما بمختلف آفاق الدين على نحو ما كان يفهم معاصروه ، وقد شهد له بذلك كثير من حملة الشريعة وكان صاحب زاوية كبيرة تضم مائتين من مريديه وأتباعه . فتكفل هذا الاتهام ببغض العلماء له وسعيهم لتشويه سمعته ، وقد حاولوا نفيه من البلاد بعد أن عز قتله وإراحة الناس من شره ... وقد كان الشعرانى فى كافة كتبه يحتم على الفقراء التفقه فى الدين والتبحر فى شئونه ، واعتبر الفقه مقدمة للتصوف وحاول التوفيق بين التصوف والفقه ووقف على هذه الغاية بعض مؤلفاته -كاليواقيت والجواهر - ومع ذلك فقد كان له من حملة الشريعة حزب يناوئه وينفس عليه نفوذه وشهرته ، وحزب آخر ينتصر له ويروج لتعاليمه ، وقد ظهر هذان الحزبان فى فتنة أثارها عليه فى الجامع الأزهر فى مصر والحجاز خصومه وحساده .

ثم سكنت الفتنة وخبت نارها ولكن الضغينة ما زالت رابضة فى صدور خصومه من الأزهريين تتمثل فى وجوههم العابسة المقطبة كلما مر بهم هذا الخصم الذى يهدد الدين بالخطر .. وقد أقاموا على بغضه طيلة حياته وتولوه بالنظرات الشذراء كلما صافحته أبصارهم كأنما كانوا على السنة وهو على البدعة وربما كان العكس هو الصحيح كما يقول بل لقد سعى بعضهم إلى قتله مرات كثيرة وتمنى غيرهم لو نجح مسعاه فى نفيه من مصر وكثيراً ما أدى الحقد ببعض حساده إلى رميه بالجهل فى الشريعة والحقيقة معا[1] .

التناسب الطردى بين حقد الفقهاء وعلم أرباب الطريق :

وعلام هذه الضغينة كلها ؟ لقد كان الشعرانى لا يكتب كتابا إلا أعلن فيه التزامه للكتاب والسنة وبراءته من المارقين من الدين الذين يظنون أن الحقيقة شىء والشريعة شىء آخر ، وما أكثر الكتب التى حفلت صفحاتها

---

(١) اقرأ تفصيل ذلك فى كتابنا « الشعرانى » فى الفصل الأول من الباب الثانى .

بشرح مذهبه فى هذا الصدد. [١] لا بل لقد كان الفقهاء على حق فى مناهضة هذا الرجل وأمثاله ممن يدعون الالتزام بظاهر الشرع ولا يلبثون حتى ينقضوا ما أسلفوه بنصوص أخرى تكشف عن نياتهم.

ولهذا كان الحقد الذى يحمله الفقهاء لأهل التصوف يتناسب فى قوته وعنفه تناسبا طرديا مع علم المتصوفة عكسيا مع جهلهم — فالمتتبع لحركات النزاع بين الطائفتين ومظاهر العدوان والتحدى يرى أن المتصوفة الذين نادوا بدراسة العلم وحتموا على الفقراء التبحر فى الدين قد نالهم من أذى الفقهاء وعدوانهم فوق ما نال دعاة الجهل وأنصاف الأميين من أهل التصوف ..! وإذا قارنا موقف العلماء من المناوى والشعرانى بموقفهم من محمد كريم الدين الخلوتى + ٩٨٦، وعلى البيومى +١١٨٣ هـ عرفنا مبلغ الصدق فيما نقول.

كان الخلوتى يمثل دعاة الجهل من أهل التصوف خير تمثيل. وقد كان حريصاً على جهله وفراره من معرفة الدين وأحكامه واعتقاد مريديه الذين تضج بهم زاويته فى سلامة مبدئه وسخريتهم من شيوخ الطريق المتبحرين فى فهم الدين. ولكن كل ما نعرفه عن أذى الفقهاء له لا يتجاوز ما رواه المناوى فى ترجمته حين قال إنه لم يسلم من مناوأة طائفة من الفقهاء سنة الله فى الدين، وأن فقيه الشافعية شمس الدين الخطيب الشربينى قد أنكر عليه فى حياته الابتداء بالجلالة فى الذكر وقال إنه مبتدأ ولا بد لكل مبتدأ من خبر فوضع الخلوتى فى الرد عليه رسالة صغيرة حاصلها أن القوم ما زالوا على هذا المنوال وأن الخبر محذوف تقديره المعبود والمطلوب أو الموجود [٢] وقال فيها إن الذكر على هذه الطريقة يؤدى إلى الفتح فى باطن الذاكر ويؤتيه من نور الكشف مالا تنتجه عبر [٣].

---

(١) مثل الجواهر والدرر ص ١٧٢ — ١٧٣، قواعد الصوفية ص ١٧٧ و ٢٣٤، درر الغواص ص ٥٦، البحر المورود ص ٣٤٧، ارشاد الطالبين ص ٦٧، لطائف المنن جـ ١ ص ٢٤٢، اليواقيت والجواهر جـ ١ ص ٢ و ٣ و ٢٣، جـ ٢ ص ١١٥، وفى غير هذه الكتب.

(٢) الكواكب الدرية ص ٥٢٠ (٣) رد المتوقف بلا محالة.

ويمثل على البيومى أنصاف الأميين ، رغم أن الجبرتى يروى فى الدلالة على علمه موقفا شبيها كل الشبه بالموقف الذى يرويه «المحبى» للدلالة على سعة العلم عند المناوى فان الفقهاء قد ثاروا عليه وعلى جماعته ، كما سنوضح ذلك الآن ، فلما قام بالتدريس فى الطيبرسية أفحمهم ودهشهم وألجم الثائرين منهم — كما فعل المناوى تماما — ولكن الفارق بينهما فيما يبدو أن كتب المناوى تنبىء عن سعة علم وغزارة مادة ، وكتب البيومى تنطق بالجهل وضيق النظر ، ولعل قدرته على إقناع العلماء فى دروسه مردها إلى طلاقة فى اللسان ومهارة فى التعبير ووضوح فى الشخصية — والظاهر أنه قد أوتى هذه المواهب كلها وإنما هى التى جعلت المجرمين والعصاة وقطاع الطرق يتهافتون عليه ويترامون على قدميه ويطلبون المغفرة على يديه ويحتملون ما يسومهم به من عذاب كما أشرنا من قبل .

وكان من عادة هذا الرجل ، أن يعقد مجلسا للذكر كل ثلاثاء فى صحن المشهد الحسينى . وكان أكثر أتباعه يدخلون المسجد حفاة الأقدام فيلوثونه ، وكانوا يرفعون بالذكر أصواتهم فيزعجون المصلين وغيرهم . ولكنا لا نعرف من ضروب العدوان الذى أوقعه به العلماء إلا ما رواه الجبرتى من أمر المقاومة التى أرادوا بها منع جماعته من تلويث المسجد والتشويش على المصلين [1] .

فالأذى الذى أصاب دعاة الجهل وأنصاف الأميين من أهل التصوف ، قد اتخذ صورة المقاومة ولم يرتفع قط إلى مرتبة العدوان الذى ينتهى بالقتل والنفى والتنكيل كما كان الحال مع العلماء من أهل التصوف.

وليس ينفى هذا الظن الذى رجحناه ماسببه العلماء لجهلة الفقراء من أذى على يد نابليون ، فقد روى الجبرتى أن نابليون بعد دخوله مصر سأل العلماء فى شعبان من سنة ١٢١٥ عن الفقراء الذين يدورون فى الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصرخون ويدعون الولاية ويعتقدهم العوام ولا يصلون صلاة

(١) الجبرتى ج ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٠

المسلمين ولا يصومون صيامهم واستفسر عن جواز مسلكهم فى الدين الاسلامى أو حرمته . فأجاب الفقهاء قائلين إن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا وسنتنا ، فشكرهم نابليون على ذلك وأمر رجال الإدارة بمنع هؤلاء الفقراء والقبض على من يلتزم مسلكهم فإن كان مجنونا ربط بالمارستان وإن كان كامل الرشد نفى من البلد إن أبى تغيير مسلكه[١].

والظن الذى رجحناه لا تنفيه هذه الفتوى التى رد بها الفقهاء على سؤال نابليون ، لأننا لم ننف المقاومة من جانب العلماء إذا توفر الجهل فى أرباب الطريق ، وإنما قلنا إن العدوان كان يتناسب فى عنفه طرديا مع علم المتصوفة عكسيا مع جهلهم .

وسنعرف أن المقاومة النظرية كانت تظهر فى صورة الكتب والرسائل يضعها الفقهاء فى مهاجمة الجهلة من الفقراء . ولم يعن العلماء — فيما نعلم — بوضع كتب وتأليف رسائل يردون بها على التعاليم التى كان ينشرها المستنيرون من أهل التصوف وإنما اهتموا بتدبير المؤامرات التى تفقدهم السمعة الطيبة وتفض الناس من حولهم إذا لم تنته بقتلهم وإراحة البلاد من شرهم . .

ولعل السر فى هذا التناسب الطردى بين علم المتصوفة وكراهية العلماء أن الفقهاء قد لاحظوا أن العلماء من أهل التصوف أكثر خطرا على نفوذهم عند الناس والحكام من جهلة أرباب الطريق ، لأنهم يتساوون مع العلماء أمام الجمهور فى سعة العلم وفهم الدين ثم يزيدون عليهم هذا التصوف الحبيب إلى نفوس الناس ، وفى هذا الامتياز ما يمهد لهم سبيل الانتصار على الفقهاء فى اكتساب النفوذ عند طبقات الشعب وهيئات الحكام ..

أو لعل السر فى هذا التناسب الطردى أن العارفين بالدين من أهل التصوف أخطر على عقائد الناس من جهالهم وسنوضح هذا بعد .

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٤٨ — ١٤٩

بعض مظاهر الحقد النظرية :

قلنا فى مقدمة هذا الكتاب إن هذا العصر كان عصر الشروح والحواشى وإن العلماء كانوا يتناولون المتن الذى وضع من قبل فيضعون له الشروح والتعليقات ثم يأتى بعدهم من يتولى شروحهم بالشرح والتعليق , فبـــدا ركود فى الحركة الفكرية وقلة فى المؤلفات مع كثرة الحواشى والشروح ، وكان طبيعيا بعد هذا أن تقل الكتب التى يضعها الفقهاء فى الرد على ما يرونه فى سلوك المتصوفة من خروج على قواعد الدين وتعاليمه ، وأن تكون هذه الكتب — فى الأغلب والأعم — رسائل صغيرة حافلة بضروب السباب وألوان الشتائم محشوة بأقوال فى الدين يقتبسها المؤلفون من كتب السلف ، وقل منها ما دل على فكر مبتكر أو سداد نظر لم يستعره صاحبه من الأغيار .

والظاهر أن واضعى هذه الرسائل كانوا أصنافا ثلاثة : أولها الفقهاء الخلص وقد كانت رسائلهم تنضح بالحقد وتفيض بالضغينة وتنهال على الخصوم بالسباب والتهم ، ويمثل هؤلاء الشيخ على الصعيدى العدوى وغيره من العلماء الذين نالوا من المتصوفة كل منال وأخفوا عن القراء أسماءهم كما سنعرف بعد قليل .

وثانى الصنفين : العلماء الذين أشربوا بروح التصوف — فيما يلوح لنا — وقد كانوا فى الأغلب والأعم أميل إلى نصرة المتصوفة ورد التهم التى كانت توجه إليهم فكانت رسائلهم مشبعة بروح اللين والعطف .

وثالث الأصناف المتصوفة الذين كانوا متفقهين فى الدين . وقد كانوا فريقين : قام أحدهما بالدفاع عن أهل التصوف ورد التهم التى كانت تنهال على رءوسهم ويمثل هذا الفريق : السيد محمد البكرى + ٩٤٤ — وتولى الفريق الثانى الفقراء بالطعن واشتد فى حسابهم وكان أقسى عليهم من خلص العلماء القساة — كما سنعرف بعد — ويمثل هؤلاء الشعرانى + ٩٧٣ . ولا بأس من أن نزيد هذا الكلام وضوحا .

(١) كتب الشيخ الصعيدى سنة ١١٩٧ للهجرة فتوى على سؤال وجه إليه بصدد طريقة الذكر عند طائفة المطاوعة التى عرفنا عن فقرائها أنهم يتخذون المغنين والأعلام والطبول والنقباء والسبح الكبيرة والملاحف والسراويل يضعها الغلمان الذين يجلسون خلف الذاكرين فوق رءوسهم أو يمسكون بها ظهورهم . . وغير ذلك من ضروب البدع عند فقراء المطاوعة[١].

فاستهل الشيخ الصعيدى فتواه باقتباس فقرة من رد المشايخ يوسف الزرقانى (المالكى) وعامر الشبراوى (الشافعى) وأمين الدين (الحنفى) على مثل هذا السؤال إذ قالوا « رقصهم نقص وسماعهم سفاهة وتواجدهم خفة من الرأس والقائل منهم هذا عن رسول الله كاذب فى ذلك ويتبوأ مقعده من النار ويعزر على إفتائه بغير علم . ويمنعون من الاختلاء بالمرد ومن مسهم ، ويثاب ولى الأمر على زجرهم ، وعقب على ذلك بذكر ما رواه مالك فى تحريم الغناء ، والجنيد فى كره السماع ووصف اتخاذ الغلمان بأنه ضلال مبين وقال إن مسهم دبر الولد وإباحتهم ذلك ودعواهم بألا جناح عليهم فى غير فعل الفاحشة كفر لا ريب فيه ، وحرم اتخاذ الرايات من الحرير وغيره لأنهم يخدعون به الناس ويوهمونهم بأنهم فقراء ليتمكنوا من أكل أموالهم بالباطل والاستمرار فى أخذ « العوائد » من البلاد ومرضاة الناس عن مبيتهم فى بيوتهم وتحمل نفقات ذلك ولو أدى بهم الأمر إلى الاستدانة من غير المعوزين ، ووصف هذا بأنه ظلم مبين ، وحرم الضرب على الكأس . . إلى أن قال لهم فى لهجة المغيظ المحنق « وأنتم معشر المطاوعة احتوى عليكم الجهل واستولى الشيطان على قلوبكم وزيف لكم ما أنتم عليه من القبائح التى لا يقول بها إمام من الأئمة . . » ثم حمل عليهم فى اتخاذ الأولاد الملاحف والسراويل وقال إنه سفاهة وقلة أدب وطلب شهرة والنبى يقول « ومن لبس ثوب شهرة كساه الله يوم القيامة ثوب ذل وصغار ثم أشعل عليه نارا » ، وأدخل فى ثوب الشهرة اتخاذهم السيوف

---

(١) فتوى الشيخ على الصعيدى فى فقراء المطاوعة .

من الخشب والمزاريق من الجريد والطواقى من السعف والطراطير التى يضعون عليها أنواع الريش والخرق الملونة والأباريق الملأى بالماء والسبح الكبيرة... ووصف دوران الغلمان على الذاكرين واحتضانهم من الخلف بأنه ضلال يسوله لهم الشيطان ، وأورد من الفضائح ما ينبىء عن بغضه الدفين لهم ورغبته الملحة فى التشهير بهم والانتقام منهم على نحو ما نرى فى فتواه (١) .

ومن الرسائل التى هاجم بها العلماء أهل التصوف هجوما لا رفق فيه ولا هوادة — دون أن يعلنوا للقارىء أسماءهم — رسالة باسم الصاعقة المحرقة كتبها أحد العلماء سنة ١١٠٥ هـ فى الفقراء الذين اتخذوا الرقص واللعب دينا وخلطوهما بالعبادة ، وراحوا فى حلقات الذكر يدورون مركبين أيديهم إلى وراء وقدام رءوسهم بالتصعيد والتسفيل والتلوى ، على هيئة معروفة فى لعبه (ركض الديك) عند النصارى كما يقول المؤلف . والرسالة فياضة بالحقد والضغينة والموجدة . ولعل الذى حمل هذا الصنف من العلماء على إخفاء اسمه ، الخوف من أذى أرباب الطريق وأتباعهم (٢) .

وهذان مثلان للمقاومة النظرية عند العلماء الخلص ، نرى منهما بعض مظاهر البغض الرابض فى الصدور والحقد الجاثم فى القلوب .

(٢) ويمثل طائفة العلماء الذين يكتبون عن المتصوفة بروح مشبعة بالعطف واللين ، أحمد بن عبد العزيز بن على الفتوح الشهير بابن النجار (الحنبلى) وناصر الدين اللقانى (المالكى) وشهاب الدين أحمد بن يونس (الحنفى) وشهاب الدين الرملى (الشافعى) وقد كان هؤلاء الأربعة الذين يمثلون المذاهب الأربعة خير من انتصر للشعرانى فى محنته التى عرضنا لها من

---

(١) فتوى الشيخ على الصعيدى فى فقراء المطاوعة وأحوالهم (مخطوط) .

(٢) وقعت فى يدى نسخة أخرى لهذه الرسالة — بعد كتابة هذا — ذكر فيها اسم المؤلف وهو محمد صفى الدين الحنفى وقد وجدت بين النسختين خلافا فى بعض الفقرات .

قبل . ونرى شيئا من الدفاع الحماسى الذى قاموا به مع غيرهم من العلماء فى إجازاتهم المنشورة فى «البحر المورود» ولطائف المنن[١] .

ونرى صورة أخرى لهذا الدفاع الذى تولاه هذا الصنف من العلماء فى استفتاء وجهه مصطفى الرومى بقناطر السباع فى أواخر القرن الحادى عشر الى اثنى عشر عالما عن (١) ذكر الله بطريقة الدمرداشية والخلوتية والشناوية ومصطفى الرومى بقناطر السباع (٢) الهوية عندهم وهى دورانهم فى حلقة الذكر وقد وضعوا أيديهم بعضها فى بعض وراحوا يقولون . هو هو هو ...

فأجاب عن السؤال الأول المشايخ أبو الخير احمد المرحومى الشافعى ومحمد الأحمدى الشافعى ومحمد المهلهل المالكى وأحمد الأزهرى وعبد ربه البربرى الشافعى وأبو الصفا الشنوانى وعلى بن عامر الانبابى المالكى — وأجاب عن الفتوى الثانية المشايخ أبو العزيز بن احمد العجمى الشافعى الوفائى والشهاب الرملى وعبد الحى الشرنبلالى وسليمان السراخيى المالكى ومحمد الخليل الشافعى . ولما كانت إجاباتهم انتصارا لأهل التصوف وتأييدا لوجهات نظرهم فقد حمل الشيخ مصطفى الرومى هذه الإجابات إلى عبد الغنى النابلسى وأطلعه عليها ونشرها هذا فى رحلته[٢] .

وثمة رسائل كثيرة من هذا النوع .

(٣) وثالث الأنواع دفاع المتصوفة المتبحرين فى الدين عن طوائف الفقراء وأعمالهم ، ويمثل هؤلاء السيد أبو بكر محمد زين العابدين البكرى (+٩٩٤ هـ)[٣] الذى كتب رسالة ينتصر فيها لفقراء الطائفة السعدية الذين يكثرون من ذكر الله حتى إذا طاب لهم الوقت تواجدوا واضطربوا وتساقطوا على الأرض وافتقدوا الحس وزايلتهم الحركة حتى أضحوا كالخشب المسندة لايقوون على النهوض حتى يسارع اليهم نقيب الشيخ فيكبس أيديهم وأرجلهم

---

(١) البحر المورود ص ٣٦٨ الى ص ٣٧٦ ، لطائف المنن ج ١ ص ٤٢ — ٤٥

(٢) الحقيقة والمجاز ١٣٣ إلى ١٣٧ ب

(٣) بيت الصديق ص ٧٣ .

ويقيمهم على بركة شيخهم . ويذود عن بعض فقراء هذه الطائفة ممن يخرجون من أجسادهم شيئا ملونا بالأحمر أو الأبيض أو الأصفر يسيل منهم كالعرق من غير جرح أو منفذ له على سبيل الكرامة — فتولى الدفاع عنهم والذود عن مسلكهم والانتصار لطريقتهم بما نراه فى رسالته — حتى السائل الذى يخرج من أجسادهم ملونا دون جرح ولا منفذ قد زعم بأنه كرامة فقال « فيها كرامة طاهرة وآية ظاهرة حيث كانت أنوارها مشرقة من سماء نفوس لا تعدل عن اتباع الشريعة ولا تأوى إلا إلى حصونها المنيعة، وكأنه أحس بأن دعواه فى التزام هؤلاء الفقراء للشريعة سافرة البطلان فعقب على هذا قائلا « وإذا ظهرت على من يخلط بالعصيان بعض الأحيان ، فالكرامة لأستاذه الذى ينتسب اليه ، ولكن لطهارة قلبه فى ذلك الوقت ظهرت عليه .. ! » [1] .

تصوف الفقهاء الذين انتصروا لمشايخ الطرق :

قلنا فيما أسلفنا أن العلماء الذين تولوا الدفاع عن مسالك المتصوفة كانوا فى الأغلب والأعم يجمعون بين عنصرى الفقه والتصوف ، وإن عرفوا بين الناس بأنهم فقهاء لغلبة العنصر الأول على الثانى فى مسلكهم . فهل ثمة دليل يشهد بصحة هذا الزعم .. ؟

كان بين العلماء الذين انتصروا للشعرانى فى محنته وذادوا عنه فى فتنة الأزهر وكتبوا له الأجازات التى تشهد بتدينه : ناصر الدين اللقانى وشهاب الدين المالكى والفتوحى الحنبلى .. وقد ترجم لهم فى كتاب له فكانت تراجمهم الشاهد العدل على صحة ما نقول [2] .

وكذلك نقول فى عبد الله الشبراوى الذى انتصر للبيومى فى ثورة العلماء عليه وسعيهم لإلغاء مجالس الذكر التى كان يعقدها لجماعته بالمشهد الحسينى ،

---

(١) النصرة الالهية للطائفة السعدية وملحق الرسالة ص ٣٨٥—٣٨٨ .

(٢) انظر كتابنا « الشعرانى » إمام التصوف فى عصره ص ٨

فقد كان الشبراوى شديد الحب للمجاذيب كما يقول الجبرتى [١] فسعى له عند الباشا والأمراء حتى منع عنه ما كان وشيكا أن ينزل به من حيف .

وكذلك يقال فى كثير من العلماء الذين انتصروا لأهل التصوف ودافعوا عن طريقتهم .

بعض مظاهر حب الفقهاء لأهل التصوف :

ولكن تصوير التصوف فى أذهان الفقهاء على هذا الوجه من الكراهية غير صحيح ، فقد كان بعض المتصوفة فى رأى الكثيرين من العلماء موضع حب وتقدير ، وكثيراً ما احتفى الأزهر بعلمائه وطلبته بأهل التصوف الذين يفدون لزيارة مصر من أمثال مصطفى البكرى وعبد الغنى النابلسى — وقد أشار هذا فى رحلته إلى مظاهر الحفاوة التى كان يستقبل بها بين العلماء وطلاب الأزهر ، وكثيراً ما كانوا يتوافدون على دار زين العابدين للتيمن به ويرحبون بزيارته لهم [٢]. وإنه ليصف موقفاً رائعاً ينطق بهذا الحب فيقول إنه زار الجامع الأزهر ، فأقبل عليه العلماء والمدرسون وطلبوا إليه درساً تبركا منه وتيمناً فاعتذر لهم عن ذلك ، وقال يصف مبارحته للأزهر « انكبت علينا جميع الطلبة والمجاورين هناك يقبلون يدنا ويطلبون الدعاء مع زيادة الاعتقاد فأخذتنا هيبة ذلك الحال فصرنا نبكى وهم يبكون وندعو لهم حتى خرجنا من الجامع . . ! ! » [٣] .

ولكن لماذا لم يلق هذه الحفاوة البالغة فى رحاب الأزهر كبار المتصوفة من المصريين ونزلاء مصر المقيمين بها . . ؟ أليس يدل هذا على أن الفقهاء قد احتفوا بالنابلسى لأنهم لا ينفون عليه نفوذه ولا يضيقون بسلطانه

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٣٢٩ .

(٢) الحقيقة والمجاز ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ — وفى مواضع أخرى من هذه الرحلة .

(٣) الحقيقة والمجاز ١١٣ .

لأن بقاءه فى مصر محدود الأجل . . ؟ ألا تكون هذه الخصومة التى ثارت بين العلماء المتصوفة مردها إلى النزاع على حيازة السلطة عند الناس والحكام معاً ؟

الواقع أن الكثيرين من الفقهاء كانوا يحسنون الظن بأرباب الطريق — روى الجبرتى (فى حوادث سنة ١١٩١ هـ) عن مفتى الشافعية الشيخ الكفراوى أنه كان يعتقد أن الشيخ صادومه من كبار الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات ، فأخذ يعلى من شأنه عند الأمراء (وخصوصاً أمام أبى الذهب) حتى راج حاله وطار صيته ، واختلى أبو الذهب ذات يوم بمحظيته فإذا على سوأتها كتابة . !! واعترفت له بعد أن هددها بالقتل أن الشيخ صادومه هو الذى كتبها ليدنيها من قلب سيدها ، فأمر الأمير بقتله وإلقائه فى النهر . فألقوه فى النهر وصادروا داره فوجدوا فيها تمثالا من القطيفة على هيئة الذكر ..!![1]. وذكر « المحبى » عن « فايت المصرى » (من أهل القرن الحادى عشر) أنه كان يقيم بباب الجامع الأزهر وكان كبار العلماء يحترمونه ويعتقدون فى ولايته ، وكان إذا أقبل لزيارته أحد هؤلاء العلماء وقف بين يديه ، فإن أشار إليه الشيخ بالجلوس جلس وإلا لبث واقفاً حتى يأمره بالانصراف أو ينصرف هو من نفسه ..!! [2] .

وقد لاحظ الأستاذ «فولرز» أن من مظاهر النزاع بين الفقهاء والمتصوفة أن الشعرانى لم يكن له مكان فى الأزهر رغم نباهة ذكره وشيوع اسمه وكونه ممثلا لرجال التصوف فى عصره[3] ورغم أن الكثيرين من الأزهريين — علماء وطلبة — كانوا يبغضون الشعرانى ولا يحبونه على نحو ما أشرنا ، إلا أن السبب فى بعده عن الأزهر ربما يرجع إلى رغبته فى الاستقلال بمريديه الذين بلغوا فى زاويته المائتين على ما عرفناه ، فان الكثيرين من المتصوفة

---

(١) الجبرتى جـ ٢ ص ١٨ .

(٢) خلاصة الأثر جـ ٣ ص ٢٠٤ .

(٣) مادة الأزهر فى دائرة المعارف الاسلامية .

كانوا يقيمون في المساجد أو يتخذونها مقراً لتلاوة الأوراد وذكر الله — وقد كان محمد المنير + ٩٣١ يعتكف كل سنة في رمضان بالجامع الأزهر ويجتمع عنده الفقراء يقرءون كل يوم ختمة بالنهار وأخرى بالليل [١]. وقد تعبد الشعراني في بدء حياته بالجامع الغمري فلما كبر شأنه وكثر مريدوه انتقل إلى زاوية خوند[٢].

موقف المتصوفة من الفقهاء:

كل ما أسلفناه من مظاهر المقاومة النظرية والفعلية منصب على تصوير الموقف الذي التزمه الفقهاء من أرباب الطريق، ولم نشر فيما ذكرناه إلى موقف المتصوفة من العلماء — والذي يلاحظه الباحث عند النظر في أدوار هذا النزاع أن المتصوفة قد قاموا فيه بدور سلبي بحت، وأن الفقهاء هم الذين قاوموا أرباب الطريق واشتدوا في حسابهم وأغلظوا في معاملتهم وتعقبوا آثارهم ورصدوا حركاتهم وطاردوا مريديهم ونالوهم بالأذى في كل فرصة حانت لهم. ولعل السر في هذا: (١) أن أرباب الطريق هم الذين خرجوا على ظاهر الشرع وأعلنوا هذا دون مداراة فاحتاجوا إلى من ينصرهم من أهل الفقه ويؤيد مسلكهم في كل مالا يلتئم مع ظاهر الكتاب والسنة، فاستعانوا بالعلماء في أخذ الأجازات التي تشهد بالتزامهم قواعد الدين كما فعل الشعراني في كتابه «البحر المورود في المواثيق والعهود» وفي غيره من الكتب. وقد تغنى بذلك في غير موضع من مؤلفاته [٣]. (ب) أن أرباب الطريق في الجملة يدعون إلى السلام ويبشرون بالحب والصفاء ويطالبون مريديهم باحتمال الأذى والصبر على الاضطهاد أملا في نيل الثواب ورغبة في اكتساب الصفاء النفسي الذي يؤدي إلى حضرة الله. فساعدتهم هذه الدعوة على موقفهم السلبي من هجمات العلماء

---

(١) تكميل النور السافر ص ٢١٤.

(٢) أنظر كتابنا الشعراني في الفصل الذي عقدناه على سيرته.

(٣) اليواقيت والجواهر جـ ٢ ص ١٨١ — ١٨٤ وخاتمة اليواقيت وخاتمة البحر المورود ولطائف المنن جـ ١ ص ٤٢ — ٤٥.

والظاهر أن هذا هو الذى حمل الأستاذ « فولرز » على القول بأن الغلبة كانت على الدوام للفقهاء على أرباب الطريق (١) ولكن إن صح هذا الرأى فى القدم فإنه غير صحيح فيما نظن فى العصر العثمانى . فقد كان الشعب فى صف الفقراء وكان إيمانه بهم أشد بكثير من إيمانه بالعلماء . وما عرفنا عالماً كان له من الأتباع الذين يستجيبون لمطالبه وينصاعون لآرائه ويستحيلون أدوات مسخرة لتنفيذ مآربه ، ما كان لكبار أرباب الطريق — ولا بأس من أن نزيد هذه الدعوة وضوحاً .

أسرفوا فى الدعوة إلى احتمال الأذى حتى طالبوا المظلوم بالرضا عن ظلمه وشكر الله على ما أصابه وعذر من أقدم على إهانته ، لأنه لم يفعل ذلك إلا لأنه غافل لا يذكر أن المعتدى عليه واحد من عباد الله ، وأنه وهو يعتدى عليه قائم فى حضرة ربه الذى نهاه عن ذلك . وقد كان احتمال الأذى ظاهرة تميز الأولياء (٣) عن غيرهم من سائر الناس . وقد كان الشعرانى يتظاهر بأنه مغتبط لإنكار العلماء عليـــه ، لأنهم لم يفعلوا ذلك إلا حرصا على ظاهر الشريعة (٤) . ونزعم أن من نعم الله عليه محبته لطلبـة العلم الذين بادروا بالإنكار عليه وانضموا مع الحسدة فى تشويه سمعته بنشر مادسوه فى كتبه (٥) .

وكان الشعرانى إذا تناول العلماء بنقد عدد مظاهر خروجهم على قواعد الدين وأنكر عليهم التهافت على الدنيا وغفلتهم عن تكاليف دينهم ، وقلما كان يعرض لهم بالسباب أو يتهجم عليهم بالشتائم (٦) ، بل لقد كان يدعو إلى

---

(١) مادة الأزهر (V. Vollers) فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) انظر كتابنا الشعرانى فى الفصل الذى عقدناه على سيرته .

(٣) لطائف المنن جـ ٢ ص ١٨٢ — ١٨٦

(٤) بهجة النفوس ص ٩٤ (مخطوط) .

(٥) لطائف المنن جـ ٢ ص ٢٩٩ .

(٦) فى البحر المورود أمثلة تؤيد هذا ص ٥٤ و ٥٥ و ٢٦٧ و ٢٦٨ .

احترامهم وتوقيرهم ولو لم يعملوا بالشريعة التى كلفوا بنشرها بين الناس [١]..
ولا نظن إلا أن سائر أرباب الطريق قد ساروا سيرته واقتدوا به أو تابعوه
— غير عامدين — فى موقفه من العلماء ، وكتب المتصوفة تقول إنهم كانوا
يلبسون مسوح الراهب الوديع ويحملون غصن الزيتون ويطوفون داعين إلى
الوئام بين الطوائف ، وقد وضع الشعرانى كتبا للوصول إلى هذه الغاية —
ككتابى اليواقيت والجواهر . الميزان وغيرهما .

على أن ذلك كله لا يمنع من القول بأنهم كانوا يردون هجمات الفقهاء
بتأليف الرسائل والتعرض لنقد آرائهم فيما يصنفون من كتب ، فأما الرسائل
فحسبنا الإشارة إلى رسالة محمد كريم الخلوتى [٢] التى رد بها على الشربينى الذى
انتقد طريقته فى الذكر بالجلالة وقال إنها مبتدأ وكل مبتدأ محتاج إلى خبر [٣]
على أن الرسالة هادئة لينة — فأما رد النقد فى كتبهم فإن مصنفات الشعرانى
حافلة بذلك كما أشرنا الآن .

وما كان لين المتصوفة فى نقد العلماء وليد العجز عن رميهم بالتهم وصب
الشتائم فوق رءوسهم فسنرى شيئاً من قسوتهم حين يهاجم بعضهم بعضا.

استمرار النزاع الى اليوم

وقد استمر النزاع قائما بين الفقهاء ومشايخ الطرق إلى يومنا الحاضر ،
ترثه الطائفتان جيلا بعد جيل ، فبعد انقضاء العصر العثمانى بأربعين عاما
استفتى الشيخ ابراهيم باشا أحد العلماء من تلامذة الشيخ الصعيدى (هو الشيخ
الأمير) عن الغناء والتواجد والرقص فى حلقات الذكر فأفتى بمثل ما أفتى به
شيخه من قبل [٤] وقد هدأ هذا النزاع فى الأيام الأخيرة ولكنه ما زال

---

(١) العهود المحمدية ص ١٣٧ .
(٢) رد المتوقف بلا محالة فى الابتداء بالذكر بالجلالة (مخطوط) .
(٣) الكواكب الدرية ٢٠٥ وتكميل النور السافر ص ٧٥٢ .
(٤) استفتاء الشيخ ابراهيم باشا إلى العلماء سنة ١٢٥٢ هـ (مخطوط) .

كامنا فى صدور الطائفتين وقد ثار منذ بضعة أعوام ثورة رددت الصحافة صداها ، إذ كتب وزير الأوقاف عبدالعزيز باشا محمد كتابا إلى شيخ الجامع الأزهر الأستاذ المراغى فى شأن البدع الشائعة ومافشى مما لا يتفق مع قواعد الإسلام ، واقترح تأليف لجنة يشرف عليها الأزهر وتكون مهمتها تمحيص هذه البدع الشائعة بين الطبقات الدنيا فى مصر ووضع قواعد تستند إليها الحكومة فى مصادرة كل ما لا يتفق مع تعاليم الدين ، وبعد تبادل الرأى بين الوزير ومشيخة الأزهر ، اتفق الرأى على تكوين لجنة يرأسها مفتى الديار المصرية الشيخ عبد المجيد سليم ، وصدر قرار بتأليفها لوضع كتاب جامع عن البدع الفاشية والمنافية للاسلام .

وما فرغوا من تكوين اللجنة حتى ثارت ثائرة الصوفية وأرسلت مشيختهم بيانا إلى الوزير تعلن فيه الاحتجاج اللين على معاليه ، لأنه تخطى بكتابه هذا سلطة لها بحق القانون الإشراف والهيمنة على كل ما يتعلق بشئون الصوفية دون غيرها من السلطات ، ثم ختمت بيانها بتوجيه كلمة فيها شىء من العنف إلى شيخ الجامع الأزهر (١) .

أرباب الطريق

قلنا فيما أسلفنا إن أرباب الطريق أنفسهم كانوا بين الذين حملوا معاول الهدم فى أيديهم وسعوا بنا إلى تحطيم دولة الفقراء — عامدين كانوا أو غير عامدين — ذلك لأن دولتهم كانت تقوم على الإيمان بها والتسليم لأهلها ورفعهم فوق كل نقد أو عتاب ، فكل إنكار يوجه إليهم أو نقد ينصب على رءوسهم يزلزل هذا الإيمان الذى لا قيام لدولتهم بدونه — وقد ثارت الضغينة فى نفوس أرباب الطريق حتى كره بعضهم بعضا وحمل بعضهم على بعض حملات تنضح قسوة وتفيض عنفا . وقد اتخذ النزاع بين المتصوفة بعضهم

---

(١) جريدة روزاليوسف (اليومية) ٢١ و٢٠ يناير سنة ١٩٣٦ وجريدة البلاغ ١٦ و ٢٤ يناير سنة ١٩٣٦ .

مع بعض مظهرين عنيفين شبيهين بمظهرى المقاومة التى أثارها الفقهاء فى وجه أرباب الطريق — مظهر المقاومة الفعلية التى اتخذت صورة الضغينة والضرب وما يشبهه ومظهر المقاومة النظرية — بوضع الرسائل فى التشنيع على مسالك بعض الطرق — فلنتناول المظهرين بشىء من التوضيح :

بعض مظاهر المقاومة الفعلية

روى المناوى فى ترجمة عبدالله محمد الصبان + ١٠٠٨ هـ أنه أخذ مكان شيخه بعد موته فضاق بذلك جماعة من مريدى شيخه ، وقالوا إن حفيد الشيخ (وكان ابن بنته) أحق وأولى بإرث المشيخة من تلميذه ، وانطلق بعضهم إلى زاوية دمرداش وانهالوا على الشيخ الصبان وجماعته الذين قبلوا مشيخته وأثخنوهم ضربا ثم أخرجوهم من المنظرة ، ولولا تدخل بعض العلماء وتهديد المعتدين بالحاكم لنال « الصبان » شر مستطير [١] .

وكذلك نقول فى النزاع العنيف الذى قام بعد ممات الشعرانى (+٩٧٣) على زاويته بين ابنه وأولاد عمه — وفى طليعتهم عبد اللطيف — فقد بلغ من أمر هذا النزاع أن ترافعوا إلى الحكام أكثر من مرة ، ولم يقض عليه إلا ممات أحد المتنازعين [٢] .

وقد روى الشعرانى عن نفسه أن جماعة من مدعى التصوف قد اجتمعوا بجامع الغمرى — حيث كان يتعبد — وأوقدوا كثيرا من القناديل وجلسوا تجاهه وأخذوا يرفعون بالذكر أصواتهم ويشوشون عليه فانتقل إليهم وجلس فى مجلسهم وقال لهم كلنا فى الخير سواء فمنعوه من الذكر معهم . فلما طلب إليهم أن يخفضوا أصواتهم أبوا عليه ذلك . ولكن الله أنقذه من شرهم وسلط

---

(١) الكواكب الدرية ٢٥٧ .

(٢) خلاصة الأثر ج ٢ ص ٣٦٤ ، الكواكب الدرية ٤٩٦ ، تكميل النور السافر ص ٦٦٥ وانظر فى كتابنا عن الشعرانى تفصيل ذلك .

عليهم النوم فناموا حتى الصباح . ثم ذهبوا إلى عبد الدايم بن بقر وطلبوا اليه أن يقيم لهم مولداً فى الجامع ليلة الجمعة ، رغبة فى التشويش على الشعرانى وجماعته ، وجاء المقرئون والوعاظ فخفض الشعرانى وجماعته أصواتهم بالصلاة على النبي دون أن يبطلوا مجلسهم ، فجاء عبد الدايم ووقف على رأس الشعرانى وقال له فى لهجة المحنق المغيظ : « أنت يا عبد الجعاص ما تسكت » فسمى الله بالجعاص ، فثار جماعة الشعرانى لذلك وهجموا عليه وأثخنوه ضربا وطعنا قائلين له : كفرت .. ثم اجتمعوا وعقدوا النية على أن يضربوا رقبته صباح الغد ، ثم أجمعوا رأيهم على أن يمضوا به إلى القاضى ليحقن دمه ، وبطل مولدهم تلك الليلة [١] .

وهل نريد شاهداً أدل على هذه الضغينة من قول الشعرانى : « وقد رأيت أنا جماعة أخذوا عن الشيخ فصاروا مع إخوانهم كأنهم فى دين وهم فى دين ، فتنافروا وتشاحنوا وترافعوا إلى الحكام وامتلأت قلوبهم بالشحناء والبغضاء .. » [٢] وقوله للمريدين الذين يتصلون بشيخ ويبغضون إخوانهم فى الطريق لأنهم ليسوا من مريدى شيخهم : « وإياكم بعد الاجتماع عليه أن تقبضوا وجوهكم عن إخوانكم وتقرمطوا أنوفكم وتطأطئوا رقابكم بل كونوا كما كنتم قبل اجتماعكم عليه .. » [٣] .

ولقد أكثر كتاب التراجم من الاشارة إلى أن بعضهم كان يؤذى إخوانه فى الطريق ، روى الشعرانى عن المنير + ٩٣١ أنه قتل محمد بن عراق لأنه أنكر عليه ، وذلك أنه أراد الاجتماع به فأبى ابن عراق فشكاه إلى النبي فمات بعد عشرين يوما ، وإن كان الشبلى يشك فى وقوع هذه الحادثة لأن المنير مات سنة ٩٣١ وابن عراق سنة ٩٣٣ [٤] — وذلك لا ينفى إيذاؤهم لمن أنكر

---

(١) المناقب الكبرى ص ١٤٠ — ١٤١ .

(٢) و(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٢ .

(٤) تكميل النور السافر ص ٢٩٥ (مخطوط) .

عليهم — كما يدعى المؤمنون بقدرتهم على الإيذاء — والكتب حافلة بما يؤيد ذلك . والغريب أنهم كانوا أحيانا يؤذى بعضهم بعضا رغبة فى التسلى ، روى الشعرانى عن على أبى خوده أنه رآه مرة بباب الشعرية يقول لخادمه « إيش قلت من يخلى هذا الرجل (عبد القادر الدشطوطى) هراره فى رجليه ..! فلما مر به كركبت بطن عبد القادر ، وصاح هراره على المصطبة التى كان قاعداً عليها » كما يزعم الشعرانى [1] وقد كان الكثيرون منهم معروفين بأن دعاءهم مستجاب كمحمد بن عز المصرى + ٩٣٠ [2] وغيره .

وينبغى أن نشير الآن إلى أن الفتنة التى ثارت من أجل اتهام الشعرانى بالخروج على الدين قد اشترك بعض خصومه من المتصوفة فى إثارتها كما نص على ذلك المناوى والشبلى فى ترجمته [3].

بعض مظاهر المقاومة النظرية :

تصادفنا فيما كتبه أهل التصوف رسائل يهاجمون بها بعض الطوائف ، وفقرات ذهبت أشتاتا فى بطون كتبهم نفثوا فيها مرارة نقدهم وسموم حقدهم ، فمن الرسائل التى وضعت فى الهجوم على الطوائف رسالة كتبها محمد الغمرى فى فرقة المطاوعة التى أسلفنا الحديث عن فقرائها وطريقتهم فى الذكر وقد نتقده الشعرانى على قدوته فى الهجوم عليهم والتشنيع على مسلكهم بهذا العنف ، قائلا إن الطائفة الواحدة تجمع بين الشرير والخير فلا ينبغى أن نعمم أحكامنا أو نأخذ بظاهر ما نرى [4] .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٢ ص ١١٧ — ١١٨ ، مناقب العلماء والصوفية ٢٤٣ (مخطوط) .

(٢) تكميل النور السافر ص٣٤٨ .

(٣) الكواكب الدرية ٤٩٦ وتكميل النور السافر ص ٦٦٢ .

(٤) لطائف المنن جـ ١ ص ٢٣٤ .

والغريب أن الشعرانى الذى يعيب على الغمرى قسوته فى نقد المطاوعة برسالته ، قد وضع رسالة سنة ٩٣٣ هـ يهاجم بها طائفة من الفقراء فى عصره ادعت الولاية الكبرى زوراً وبهتاناً ، وضمن هذه الرسالة شتى ضروب السباب ومختلف ألوان التهم حتى كانت الضغينة تطل من ثنايا سطورها [١] ، قال فيها إن هؤلاء الفقراء أضل من الأنعام واتهمهم بالجهل والكفر وسوء الأدب [٢] وقال إن الفلاحين أقرب إلى الله من هؤلاء المضللين ، لأنهم يقضون العمر فى نفع العباد وأما هؤلاء فيقضونه فى ضرر الناس [٣] ، وقال إن المشيخة على يدهم قد أصبحت بابا من أبواب التسول والشحاذة [٤] وأن إبليس لما اجتمع به (الشعرانى) وبخه على قبول هؤلاء المغرورين تعظيم الناس لهم ، وقال للشعرانى إنه يأبى ذلك لنفسه مع أنه إبليس ..!! [٥] .

وتعقبهم بمثل هذه المطاعن فى غير هذه الرسالة فرماهم فى بعض كتبه بالكفر والتضليل والكذب والافتراء وخفة العقل ورمى الفرق التى تتلمذ لمشايخ قد طوتهم القبور بالمروق من الدين ، فقال عن فقراء الأحمدية والرفاعية والبسطامية والأدهمية والدسوقية والمسلمية والبرهامية إنهم خارجون عن الشريعة [٦] ، واتهمهم بالجهالة فقال إنهم يقنعون بلبس الزى فإن سألت شيخا منهم عن قواعد الإيمان قال لا أدرى أو فرائض الوضوء قال لا أدرى . . !! مع أنه شيخ فى زاويته يأخذ العهد على الناس ومثل هذا ليس شيخا بإجماع المسلمين [٧] .

فالشعرانى الذى كان مع الفقهاء لينا وديعا رغم قسوتهم عليه وإهاناتهم له ، نراه مع إخوانه فى الطريق شديدا يتابع لطماته لهم دون رفق ولا هوادة .

---

(١) اسم الرسالة ردع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى ولها أربعة أسماء أخرى ذكرناها فى ملاحظاتنا على مصادر كتابنا عن الشعرانى .

(٢) ردع الفقراء ص ١ .
(٣) نفس المصدر ص ٢ .
(٤) نفس المصدر ص ٩ .
(٥) » » ص ١٣ .
(٦) قواعد الصوفية ص ١٧٥ .
(٧) قواعد الصوفية ص ١٧٦ .

وشبيه بهجومه مازراه فى كتاب السيوف الحداد فى أعناق أهل الزندقة والالحاد ، وقد وضعه السيد مصطفى البكرى الذى لقن الطريقة الخلوتية للحفناوى + ١١٨١ قطب رحى الديار المصرية كما عرفنا — والكتاب نقد لاذع ينصب على رءوس أرباب الطريق الذين حرروا أنفسهم من قيود الدين وتمردوا على قواعده وخرجوا على تعاليمه (١)

* * *

هذه هى بعض معاول الهدم فى دولة الفقراء ، حملها حتى أهلها ، ولم يبق فى الشعب طائفة إلا قام فيها المنكرون لأرباب الطريق الراغبون فى تحطيم سلطانهم والانتقام من دجلهم ، ولكن هذه القوى التى تعاونت على هدمهم كانت — كما قلنا من قبل — كسيحة تنقصها الحركة ويعوزها النشاط مريضة لاتقوى على الاضطلاع بهذا العمل الشاق ، فعاشت دولة الفقراء على كره من هؤلاء المنكرين جميعا مبسوطة السلطان ممدودة الرحاب يرفرف عليها فى شتى الأنحاء — والزمان وحده هو الذى تمكن بتطوره السريع من تقليم أظافرها وقص أجنحتها وإلزامها الحدود التى لاينبغى أن تتخطاها .

ولكن ما السبب الذى أدى إلى قيام هذا النزاع ؟ ذلك مانعرفه بشىء من التفصيل فيما يلى من حديث :

٢ — أسباب الانكار على أرباب الطريق

أسباب الانكار عند الناس والجنود وأرباب الطريق — أسباب النزاع بين الفقهاء ومشايخ الطرق : الخلاف فى وجهة النظر — اعتبار الولى أعظم من الله ورسوله — التنافس من أجل الدنيا .

أسباب عند الناس والحكام وأرباب الطريق :

محاولة الكشف عن الأسباب التى أدت إلى قيام النزاع بين أهل الفقه

---

(١) السيوف الحداد فى أعناق أهل الزندقة والالحاد للسيد مصطفى البكرى مخطوط

وأرباب الطرق ، تنير السبيل إلى فهم الأسباب التى أثارت الإنكار فى نفوس الناس والحكام ، وبعث الضغينة عند أرباب الطريق ، لأن أسباب الظاهرة الأولى أعم وأشمل ، وفى بيانها مايغنينا عن الكلام على أسباب الانكار عند غير الفقهاء . ويمكننا أن نجمل أسباب الانكار عند الناس والجنود فى ظهور الشعوذة سافرة من غير حجاب ، مع عدم اقتناع المنكرين بولاية المشعوذين ، فقد قلنا فيما أسلفنا إن مدعى الولاية كانوا إذا جهروا بامتهان الدين والخروج على قواعده وتعاليمه ، سر الناس لهذا الشذوذ سرورا عظيما . واستخفهم الرضا بما يرون من مظاهر التمرد على ماألفوا من قديم الزمان ، ولكن هذا الرضا كان مرده إلى إيمان الناس بولاية هؤلاء الأدعياء . وكان بعض الدجالين والمشعوذين لايقوى على إقناع بعض الناس والحكام بصدق ولايته ، فكان ذلك يثير السخرية ويبعث الانكار فى نفوس المنكرين .

أما إنكار مشايخ الطرق بعضهم على بعض ، فرده إلى ضيقهم بعجز العاجزين من إخوانهم عن إقناع الناس بولايتهم ، مما كان يؤدى إلى الانكار على أرباب الطريق جميعا ، وكان مرجع هذا الانكار بين أهل التصوف إلى التنافس الذى كان بينهم ، وأدى إلى إثارة الحفيظة وقيام الضغينة فى نفوسهم ، فكان شيوخ الطريق الذين يفشلون فى إقناع الناس والحكام باحترامهم وتقديس ولايتهم ، يتساوون مع الذين يلقون النجاح ويصادفون الرواج عند الناس من حيث إنكار اخوانهم فى الطريق عليهم — وإن اختلف السبب الذى أدى إلى هذا الانكار — ولهذا كثرت حملات أهل الطريق بعضهم على بعض كما عرفنا من قبل. والآن ننتقل إلى الأسباب التى أدت إلى النزاع بين أرباب الطريق وأهل النظر :

الخلاف فى وجهة النظر :

يقول تاريخ العلم إن الخلاف بين أهله لايثير الضغائن إلا إذا اتصل بالعقائد الدينية أو المنافع الشخصية أو المصالح القومية ، لأن الخلاف فى النظر العلمى قائم على العقل وحده ، ومن شأن العقل التسامح . أما تاريخ

الأديان والعقائد فيقول إن الخلاف بين أهلها مثار الأحقاد والضغائن دواما ، لأنه قائم على العاطفة أو الغريزة ، وذلك مما يثير فى النفس الضغينة والحقد ، ويدفع صاحبه إلى الانكار — وقد يحمله على الانتقام — ولهذا كان رجل كالغزالى — وهو حجة الاسلام — مثار النزاع العنيف بين أنصاره وخصومه رغم الجهود التى بذلها فى الدعوة إلى الدين والتبشير بطاعة الله — وفى الزبيدى تصوير طريف للخصومة التى قامت بين مؤيديه والمنكرين عليه [١] — وما قيل فى الغزالى خليق بأن يقال فى غيره من رجال الدين .

كان طبيعيا إذن أن يقوم النزاع بين الطائفتين : أهل التصوف وحملة الشريعة ، فقد كانتا على خلاف فى وجهة النظر ، إذ كان الفقهاء على اعتقاد بأن الدين إنما يستقى من الكتاب والسنة ، وقلّ منهم من كان يميل إلى تيه العلم اللدنى الذى آمن به أهل التصوُف . وقد انقسم هؤلاء المتصوفة فى هذا العصر إزاء العلم بالدين معسكرين : يبشر أحدهما بالعلم ويدعو ثانيهما إلى الجهالة من غير مداراة ، ولكن المعسكرين قد اتفقا على أن استقاء الدين من ظاهر الشرع عجز ونقص ، وأن المعين الذى ينبغى أن ينهل منه الانسان معرفته بالدين — وغير الدين — هو الله ، ويكون ذلك بإخلاص العبد فى عبادة الله والتفانى فى طاعته حتى يصل إلى حضرته ، ويأخذ عنه العلم رأسا من غير وساطة ، وشتان بين من يستقى العلم من ميت عن ميت ، ومن يستقيه عن الحى الذى لا يموت [٢] .

اباحة التأويل لأهل الله :

وقد أدت بهم هذه الدعوى إلى إباحة التأويل لأنفسهم ، مدعين أنهم يعرفون بالكشف باطن الشريعة ، وأعلنوا احتقارهم لطريقة الفقهاء الذين

---

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ج ١ .

(٢) انظر تفصيل هذا فى كتابنا « الشعرانى » فى الفصل .

يقفون عند ظاهر النصوص ولا يبيحون التاويل لأحد من الناس ، وتمادوا فى هذا الاحتقار حتى بلغ الأمر بأحد زعماء الطريق من دعاة الجهل ، أن يسخر من صوفى متبحر فى الدين قد تبرع بتعليمه مبادىء الدين ، فيقول عنه مع مريديه فى زاويته ، إنه يريد « أن يعملنا فقهاء كما هو فقيه . !! » .

ونرى — من مظاهر هذا الاحتقار ، امتناع « عبد الغنى النابلسى » عن إلقاء درس فى الحديث على طلبة الأزهر وعلمائه عندما زار الجامع واحتفوا به ، فاعتذر إليهم بسفره إلى بلاد الحجاز ، وانصرافه إلى زيارة الصالحين والتيمن بمقاماتهم ، وعدم الفراغ إلى الطائفة وحبس النفس فى تقرير العلوم الظاهرة ، وعقب على هذا الاعتذار الذى قاله لهم بذكر السبب الصحيح لاعتذاره فقال « لأنا رأينا ذلك ينقص علينا مانحن فيه من ممارسة علوم الحقائق ويعكر علينا صفاء الروح لتلقى المواجيد العرفانية »[1] .

احتقروا الفقه وأهله ، وقبحوا طريقة العلماء فى فهم الكتاب والسنة ، وتشاهموا مع الفقهاء فى استهجان التأويل ، ولكنهم أباحوه لأنفسهم ، وقالوا إن المذموم من التأويل ما كان عن فكر وتخمين ، أما خواص العباد من الأولياء الذين فنوا عن بشريتهم ، فقد أطلعهم الله على ما أخفاه عن كافة البشر ، فكان لهم وحدهم حق التأويل . أما الفقهاء وغيرهم فمن واجبهم أن يقفوا عند ظاهر الشرع دون أن يزيدوا عليه حكما واحدا « فما حرمه الحق حرمه ، وما أحله أحله ، وما أباحه أباحه ، وماندب إليه ندب إليه ، وما أوجبه أوجبه ، وما سكت عنه سكت عنه ، فمن فعل ذلك صحت له موافقة الحق تعالى ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم »[2] .

وتمادوا فى زعمهم فقالوا إن ألفاظ كبار الأولياء خليقة بالتأويل ، شأنها فى ذلك شأن ألفاظ الأنبياء ، لأنها جميعا من بحر واحد ، بل إنها أحق وأولى

---

(١) رحلة النابلسى ص ١١٣ .

(٢) الجواهر والدرر ص ١٣٤ — ١٣٦ .

بذلك من كلمات الأنبياء ، لقصور الأولياء عن الافصاح عما يقصدون، قال الرسول أتانى الليلة آت من ربى — وفى رواية أتانى ربى عز وجل فوضع أصابعه بين ثديى حتى أحسست برد أنامله فعلمت علم الأولين والآخرين . فلو قال ذلك ولى من أولياء الله لأجمع العلماء على قتله . وغاب عنهم أن الأولياء لهم الإشراف على حضرات الوحى ، وربما هبت على قلوبهم من تلك الحضرة نفحات تكشف لهم عن حقائق الأمور الالهية ، فمن الأدب قبول تلك النفحات بالايمان كما قبلت من الأنبياء (١) .

وكان علماء العصر لايسلمون بأن للشريعة باطنا وظاهرا ، ولا يجيزون تأويل آية ولا حديث ، والمطلع على الكتب الدينية التى كتبها أهل هذا العصر ، يعرف مبلغ تقيدهم باللفظ ومدى ضيق التفكير عندهم ، ومؤرخو الآداب المصرية يسمون هذا العصر — عصر الحواشى والشروح ، والكتب التى وضعت فيه تبرر هذه التسمية ، وكانت الحواشى على المتون قائمة على التقيد بظاهر الكلام واللف والدوران حول الألفاظ ، هذا النوع من التفسير شائع فى الكتب ، فكان طبيعيا أن يلتزمه الفقهاء فى الكتاب والسنة ، فنادوا بتحريم التأويل ودعوا إلى الوقوف عند ظاهر الشرع وضاقوا بالمتصوفة الذين خرجوا على دعواهم وتمردوا على ضيق حدودهم ، وخرجوا من تأويل الآية أو الحديث بما يناقض الواضح من معانيه ، زاعمين أن من عباد الله من تهب على قلوبهم نفحات إلهية لو نطقوا بها كفرهم المؤمن وجهلهم صاحب الدليل (٢) وهم من الكفر والجهل أبرياء فى عرف أهل الطريق .

كان طبيعيا أن يضيق الفقهاء بمسلك الفقراء ، فان إباحة التأويل لأهل الله قد مهدت السبيل لشعوذة الدجالين — وما كان أكثرهم فى هذا العصر — فقالوا كل ماخطر لهم ، وفعلوا كل مااشتهوا فعله ، وخرجوا من الآيات والأحاديث بما يبرر سلوكهم ، واستغلوا مذهبهم فى التأويل والقدرة على

---

(١) الشعرانى : درر الغواص ص ١٠٩ — ١١٠

(٢) الشعرانى : الجواهر والدرر ص ١٧٧

معرفة باطن الشريعة فى ابتكار آراء ليس للكثير منها أصل من الدين ، ثم اعتنقوا هذه الآراء التى حاربها الدين وروجوا لها بين المتصلين بهم ، كالقول بالغاء الملكية اعتمادا على أن مالك الدنيا والآخرة هو الله وحده ، والانحدار من هذا الرأى إلى القول بالعفو عن السارق واستنكار القصاص من الجناة والمذنبين والتبرم بعقاب المجرمين ، وشتان بين هذا وبين موقف الدين من القصاص كقوله تعالى « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » وغير هذا كثير .

اعتبار الولى أعظم من الله ورسوله :

وقد ذكرنا فى مستهل هذا الكتاب ماانتهى إليه الكثيرون من الخروج على قواعد الدين ومقتضيات العرف ، بارتكاب المعاصى على ملأ من الناس، والتقصير فى القيام بتكاليف الدين . وقد مهدوا لذلك برفع أنفسهم فوق كل نقد وملامة ، فأحاطوا أنفسهم بهالة من التقديس والإكبار ، وبالغوا فى ذلك مبالغة لايقرها دين ولا يسيغها عقل ، فزعموا أن الله يخلع على المقربين من عباده مواهب تخرجهم عن كافة الناس ، وترفعهم عن عجز البشر إلى مرتبة الأنبياء ، بل إن مرتبتهم لتعلو على مرتبة الأنبياء والرسل . قال الخواص «إن الأولياء قد أوتوا القدرة على الاطلاع على علوم الأنبياء من غير وساطة ، ولولا أن الله طالبهم بألا يدعوا ماليس لهم لادعوا النبوة » ومن هنا قال عبد القادر الجيلانى : أوتيتم معاشر الأنبياء اللقب وأوتينا مالم تؤتوا — أى حرم علينا اسم النبي مع اطلاعنا على علمه من طريق الكشف كما يقول الخواص [١] .

بل تمادوا فى شططهم فتركوا الكلام فى وجوه الشبه بين الولى والنبى وأخذوا يعددون وجوه الشبه بين الله والولى ، قال تعالى « وإنما أمره إذا

---

(١) الجواهر والدرر ص ٢٧٨

أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » فادعوا أن الأولياء قد أوتوا مايشبه هذه المقدرة ، فان الله يعطيهم لفظ « كن » فتسير الدنيا فى ركابهم ، تستجيب لأمرهم وتنصاع لاشارتهم [١] .

وتواضع بعضهم فقال إن القدرة التى يؤتاها الولى ليست قدرة مطلقة كقدرة الله ، فليس فى وسع الولى أن يخلق شيئا أو ينزل مطراً أو ينبت زرعا إلا أن يشاء الله ، على أن الاستثناء بمشيئة الله يبرر تقيد القاعدة فى كل حين ، لأن مدعى الولاية كثيرون ، بل قال بعضهم إن الفقير مهما ارتفعت درجة معرفته فى الطريق لا يستطيع أن يجعل الشوك تفاحا لأن الحقائق لاتبدل [٢] ولكنهم كانوا مع هذا يعتقدون أن الولى يستطيع أن يبول على الرصاص فيستحيل ذهبا ، وعلى الصفيح فيتحول ماسا بإذن الله . ! ! على أن اعترافهم بأن قدرة الولى مستمدة من قدرة الله ، لم يمنعهم من القول بأنهم يمنازون بها على الملائكة « لما انطوى عليه الإنسان من الخلافة والنيابة على العالم .. ! »[٣] .

وقد وصف الله تعالى نفسه بنوع من اليقظة الأزلية والأبدية فقال « لا تأخذه سنة ولا نوم » فرأى بعضهم أن الأولياء قد أوتوا هذه الموهبة ، وتواضعوا فقالوا إن الفرق قائم فى أن الله لاتأخذه سنة ولا نوم أبدا ، أما الولى فانه يستطيع البقاء على هذه الحال أمدا طويلا ، فقد كان « عيسى بن نجم » بساحل البحر المالح بشواحى البرلس على هذه الحال ، وقد مكث سبعة عشر عاما لم يغمض له جفن فى ليل أو نهار . . ! ! [٤] .

والله تعالى مطلع على الخواطر ماظهر منها وما بطن ، عارف بعباده لا يستره عنهم حجاب وقد أدعوا أن المقربين من عباده المخلصين قد أوتوا ما يشبه هذه الصفات . . ! ! [٥] .

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٦ ، لطائف المنن ج ١ ص ٥٥ ، بيت الوفائية عن المناوى ص ٣٩

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٤٦

(٣) الجواهر والدرر ص ١٢١ — ١٢٢

(٤) « « ص ١٤١

(٥) « « ص ١٧٩

بل لقد بلغ بهم الشطط فى ادعاءاتهم أن شبهوا الله بالولى فى بعض الأمور ..!! فقالوا فى معرض الحديث عن التجلى إن الولى يستطيع أن يعرف بالكشف مايجهله غيره ، وأن الحق تعالى كذلك . !! يتجلى فى الثلث الأول من الليل للأبصار ، والثلث الأوسط للاجسام الشفافة ، وفى الثلث الأخير للأجسام الكثيفة ، ولولا هذا التجلى ماصحت معرفته تعالى لأحد من الخلق ، فاعلم ذلك فأنه من علم الأسرار ، - أى العلم اللدنى - كما يقول الشعرانى (١)، وقد أشرنا من قبل إلى أنهم أوجبوا على المريد أن يذكر شيخه فى كل أوقاته ، أما ربه فحسبه أن يذكره فى غالب أوقاته .

وكان أصحاب هذه الدعاوى على يقين من أنهم سيتهمون بالزندقة ، فقالوا إن هذا الاتهام إذا وجه إلى الأولياء كان الشاهد العدل على التزامهم للشرع على أكمل وجه وأتم صورة ، لأن الولى إذا بلغ درجة الحقيقة ، زال الوجود فى حسه ، وأصبح لايرى إلا الله ، ومن لا يرى غير الله لايختص كلامه بدين ولا ملة ، فلا يسع الصديق إلا أن يرميه بالكفر والالحاد غيرة على شريعة محمد ، ولا بد لكل سالك (٢) من الوقوع فيما وقع فيه الحلاج إلا أن يشاء الله (٣).

وبهذا فقد أضحى الولى فى عرفهم إلها صغيرا ..!! بل كان أعظم من الله — والعياذ بالله . وقد حملهم هذا التصور الجامح على أن يكفلوا له من الحقوق على أتباعه ما لله على عباده ، فكما أن الدين يطالب المؤمنين بطاعة الله وامتثال أوامره فى شتى الصور والألوان دون اعتراض ولا إنكار ، فكذلك حتم أرباب الطريق على المريدين أن ينصاعوا لأوامر شيخهم بالغا مابلغ الشطط فيها ، فحرموا عليهم التردد فى طاعة أمر ، أو التفكير فى مبرراته أو

(١) الجواهر والدرر ص ٨٥ .

(٢) فى رسالة زكريا الأنصارى فى بيان الألفاظ التى يتداولها الصوفية أن السالك موقعه فوق المريد ودون العارف .

(٣) الجواهر والدرر ص ٣٠٩

النتائج التى تترتب عليه ، وقالوا فى تعبير يلائم تصورهم ، كما أن الله لايقبل فى محبته شريكا له ، فكذلك الشيخ لاينبغى أن يقبل من مريده أن يشرك به أحداً من الأشياخ أو غيرهم . . ! وكما أن الانسان ليس له إلهان ولا للمرأة زوجان ، فكذلك المريد لايجوز أن يكون له شيخان ، بل ساروا فى شططهم حتى قالوا إن أوامر الشيخ إذا تعارضت مع أوامر الله ، وجب على المريد أن يطيع شيخه ويهمل أوامر ربه ، فإن الشيخ لايريد من وراء أوامره إلا مصلحة مريده ، والمريد الذى يتردد فى طاعة شيخه إذا أمره باهمال الصلاة أو الكف عن الصيام أو تطليق زوجته وفراق أولاده . . . لغير ماسبب معروف ، لايفلح فى الطريق أبدا ولو كان على عباده الثقلين . . . إلى آخر ماعرفنا من قبل .

ومن هذا نرى أن الولى لم يكن فى عرفهم إلها صغيرا ، بل كان أعظم من الله الذى يدعون الفناء فى حبه والحياة من أجله ، وما كان هذا الهذر ليرضى الكثيرين من العلماء .

فلما هيأوا لأنفسهم هذه القداسة كلها ، واطمأنوا على ما أوجبوه على المريدين والناس من رفع الأولياء فوق كل نقد وملامة — بالغا مابلغ شذوذ سلوكهم واعوجاج تفكيرهم ، أعلنوا أن التكاليف الدينية قد سقطت عن الأولياء ، فجاز لهم أن يحرروا أنفسهم من تبعات الدين وفروضه ، ويتمردوا على أوامره ونواهيه ، وقد أدت بهم هذه النظرة التى فشت فى هذا العصر إلى إهمال الصلاة والصيام والتقصير فى سائر فروض الدين ، ثم الخروج على نواهيه بالزنا فى النساء والفسق بالغلمان وتعاطى الحشيش والأفيون وشتى ضروب المخدرات جهارا أمام الناس دون تورع ولا استحياء — كما عرفنا من قبل — وقالوا إن العبد إنما يتقيد بأوامر الدين ونواهيه رغبة فى الوصول إلى الله ، فإذا وصل جاز له التحرر منها جميعا . . !! وما كان هذا الجهر بارتكاب

المعاصى والتقصير فى القيام بالطاعات ليرضى كافة الفقهاء — ولو كانوا لايلتزمون فى حياتهم العمل بأوامر الدين ونواهيه .

التنافس من أجل الدنيا :

يضاف إلى هذا كله سبب لايقل فى خطورته عما أسلفناه — إن لم يكن أعظمها جميعا — ذلك هو التنافس على الزعامة ، فقد كانت الصدارة بين الناس فى هذا العصر موزعة بين الفقهاء وأرباب الطريق ، وكانت ذات مكان مرموق من الأمراء والأثرياء والناس عامة ، فكان طبيعيا أن يثور الحسد فى نفوس المتنافسين على الظفر بهذه الزعامة ، وأن تشتعل الضغينة فى قلوبهم ، وقد أشار إلى ذلك الشعرانى نفسه (١) ، وقد عرفنا أن العلماء كانوا يكثرون من التردد على بيوت الأمراء ، وقل منهم من لم يعرف عنه ذلك كما روينا عن الجبرتى فى أكثر من موضع ، وأن مشايخ الطرق كانوا على اختلاف نزعاتهم يتصلون بالأمراء ويأخذون منهم الهدايا والأموال — حتى الذين كانوا يعلنون احتقار الظلمة من الحكام — وقد كان الأمراء يعلنون مرضاتهم عن ذلك ، وإن كانوا يبطنون احتقارهم ويضمرون السخرية بهم ، وليس من شك فى أن هذا التهافت على دور الحكام كان يثير فى نفوس الطائفتين أعمق ضروب الحقد والضغينة .

هذه هى أهم الأسباب التى أدت إلى الإنكار على الفقراء ، عرضناها موجزين بعد أن عرفنا مظاهر نفوذهم عن شتى الطبقات ومختلف الهيئات ، ونريد الآن أن نعرف أثر التصوف فى توجيه الحياة المصرية ، وليس يتهيأ لنا ذلك ، من غير أن نعرف نظرة هؤلاء الشيوخ للحياة فى شتى صورها وألوانها .

---

(١) اليواقيت والجواهر ج ١ ص ١٤ وقال فى ج ٢ ص ٨٢ نفس المصدر أن سبب الإنكار دقة المدارك ، وفى الكبريت الأحمر ص ١١ ، ١٢ أن أصل الانكار ابليس .

فصل ختامى

عن
أثر التصوف فى توجيه الحياة المصرية

تمهيد — نفوذ أرباب الطريق عند المصريين : مجاورين كانوا أو أتباعا ومحبين ومنكرين — أثر تعاليمهم فى توجيه الحياة المصرية فى العصر العثمانى وما بعده — موقف الاسلام من هذا التوجيه ، والهوة التى تفصل بين تعاليمه ومختلف آرائهم فى الحياة العلمية والعقلية والعملية والخلقية — خاتمة

تمهيد :

أبنا فيما أسلفنا عن نظرة أرباب الطرق إلى الحياة فى شتى الصور ومختلف الألوان[1] ، ولاحظنا مدى اتصال هذه النظرة بسلوكهم ، ومبلغ توجيهها لحياتهم ، ونحاول الآن أن نربط أطراف الموضوع الذي انصبت الرسالة على دراسته بكلمة موجزة ، نصل بها ما انقطع من أوصاله ، أو نكشف فيها عما استتر من أجزائه ، لنتبين منها أثر التصوف فى توجيه الحياة المصرية ، مستعينين بترداد بعض ما أسلفناه وتكرار ما أسهبنا الحديث فيه ، لنثير فى الذاكرة ما يعنينا مما شرحناه ، ونستغله فى إثبات ما ادعيناه فى مقدمة الرسالة حين قلنا إن الحياة المصرية لا تفهم على وجهها الصحيح إلا بعد دراسة دقيقة مفصلة تتناول بالإيضاح ما مر بأهلها من حركات الدين ، وما استغرق عواطفهم

---

(1) فصلنا الحديث عن هذه الموضوعات فى عدة فصول عن « نظرتهم الى الحياة العلمية — العقلية — العملية — الخلقية » وخلاصتها فى الباب الثالث من كتابنا عن الشعرانى — لأنه كان يمثل مذاهب المتصوفة فى هذا العصر فى هذه الميادين كلها ، فليرجع الى كتابنا عنه من شاء التوسع فى فهم ذلك .

من تياراته، واستوعب أذهانهم من موجاته، لأن الأفكار التى تذاع باسم الدين تفشو بين الشعوب — فى عصور الاضمحلال خصوصا — وتتخذ صورة العقائد عند الناس، ومن شأن العقائد أن تستعبد معتنقيها. وتستبد بهواهم وتهيمن على توجيه حياتهم وتحديد تصرفاتهم والتحكم فى وجود — كما يقول المحدثون من علماء النفس والاجتماع، ولهذا لم نكن مبالغين حين قلنا إن الذين يدرسون الحركات الدينية التى مرت بالشعب المصرى يقدمون لمؤرخ الحياة المصرية تفسيرا جديدا لظواهرها، وفهما واسعا لمختلف جوانبها، ويعينونه على أن « يفلسف » التاريخ كما أشرنا فى مقدمة الكتاب.

وينبغى أن نقول فى التمهيد لهذه المحاولة إن التصوف الذى قام بين المصريين كان — فيما يرجح على الظن — أقوى الحركات الدينية توجيها لهم وأعظمها أثرا فى حياتهم؛ لأنه كان فى عرف الناس زبدة الدين وخلاصته، وأنا تناولناه فى المرحلة التى استفحل فيها أمره واستشرى فيها داؤه — ولكن هذا الترجيح لا ينسينا التصريح بأن الاقتصار على دراسة التصوف قد أعجزنا عن تفسير القليل من ظواهر الحياة المصرية على ضوئه، وإن كان يقدم لنا حلولا للكثير من المعقد فى ظواهرها، بل لعله ينهض بتفسير المجهول منها أو يضطلع بإزالة نواح من الغموض الذى يحوطها وإن عجزنا عن بيان ذلك فى هذا الفصل، فان المصريين كانوا فى هذا العصر — على ما عرفنا — أسرى شيوخه وعبيد تعاليمه.

وتصادفنا عقبة أخرى عند الإقدام على هذه المحاولة، هى أن الحياة المصرية فى العصر العثمانى لم تؤرخ إلى يومنا الحاضر تأريخا مفصلا دقيقا، فكيف يمكننا أن نحدد الصلات التى تقوم بين تعاليم المتصوفة وهذه الحياة التى لا يزال الكثير من جوانبها غامضا مجهولا؟ لقد عرفنا خلال دراستنا بعض نواحيها وبقى بعضها الآخر فى خفاء وغموض، فهل من حقنا أن

نستعين على معرفة الغامض منها بفهمنا للحياة المصرية فى وقتنا الحاضر . . ؟
إن مصر قد اتصلت بالغرب بعد انقضاء العصر العثمانى واحتك أهلها بمدنيته، فبعث فيهم هذا الاتصال روح التمرد على تقاليدهم والثورة على المألوف من عرفهم، والاتجاه إلى السير فى طريق المدنية الغربية، ومن ذلك بدأت الحياة المصرية تأخذ اتجاها يباعد بين المصريين وروح التصوف، ويجعل تفسير حياتهم الراهنة على ضوء التصوف وحده شططا فى الكثير من مواضعه . . .

ولكن لماذا نسمى هذا شططا .. ؟ إن فى الشعب المصرى طبقة تمثل إلى يومنا الراهن سواده الأعظم — هى قطعة من الماضى السحيق تخلفت عنه والزمان ماض فى طريقه لا يبطىء فى مسيره ولا يثقل رجله ليدركه المتخلفون عنه والراغبون فى اللحاق به، فظلت هذه الطبقة تحيا على تراث هذا الماضى وتقاليده . . إنها توشك أن تثبت أن التطور الذى يشمل الحيوان والجماد، لا سلطان له على هذا الصنف من الناس، فهو صنف يمتاز بالوفاء المطلق لتراث الماضى والحرص الشديد على نقله إلى الجيل الذى يليه دون زيادة ولا نقص . . !!

نحن مضطرون لمعرفة الأثر الذى كان للتصوف فى توجيه الحياة المصرية إلى الاستعانة على فهم الغامض من ظواهرها، بحياة الريفيين ومن فى حكمهم فى وقتنا الحاضر، لأن الحياة تنحدر إليهم تركة يرثها جيل بعد جيل .

على أن ذلك كله لا يمنعنا من التصريح بأن تفسير الحياة المصرية فى شتى ظواهرها على ضوء التصوف وحده، محاولة جريئة تنذر بالخطر وتغرى بالشطط وتقود إلى مهاوى الزلل، والمنهج العلمى يحب الحذر ويوجب الحرص ولا يميل إلى الإقدام على المخاطرات، ولكنا نرى الإقدام على هذه المجازفة فى ختام الرسالة « شراً لا بد منه » ولهذا أقدمنا عليها بعد التزود بما تسمح

الطاقة من الحيطة والحذر — والآن إلى إثبات ما ادعيناه :

نفوذهم عند المصريين :

كان المصريون إزاء شيوخ الطريق بين مجاورين يقيمون فى الزوايا طاعمين كاسين من أحباسها وأموال الأغيار وهدايا المحسنين متفرغين لعبادة الله ، وأتباع يحترفون العمل فى ميادين الزراعة والتجارة والصناعة ولكنهم يقضون فراغهم — وما كان أوسعه — مع أرباب الطريق يستقون منهم العلم بالدين والدنيا ، ومحبين يلتقون بالشيوخ بين الحين والحين تيمنا ببركتهم والتماسا للعلم والدين واعتقادا فى صحة ولايتهم ، ومنكرين كانوا — فيما يرجح على الظن — لا يؤمنون بولاية شيوخ بعينهم ، ولكنهم شديدو الايمان بغيرهم من أرباب الطريق ، وبين هذه الفئات التى أسلفناها وجد أرباب الإحسان وأولو الحكم وأهل الفقه .

ينبىء هذا التصنيف بأن المصريين — فى الجملة — كانوا على اختلاف طبقاتهم وتباين هيئاتهم يؤمنون بالتصوف ، وإن أنكر بعضهم على شيخ آمن بغيره ، ولذلك تساووا جميعا فى التأثر بتياراته والسير فى ركابه ، وهذا كلام موجز يعوزه التفصيل فلنتناوله بالإيضاح :

المجاورون :

حفلت مصر — على ماعرفنا — بالزوايا التى يقيم فيها ألوف المريدين يعبدون الله على طريقة شيوخهم يستقون العلم والدين من معينهم ، ويحملون لهم من القداسة مالم يحملوه لله ورسله وملائكته ، فقد كان من لزم آداب المريدين نحو شيخهم أن يؤثروا طاعته ولو كان فيها عصيان لأوامر الدين وتمرد على نواهيه ، ويخفوا إلى تنفيذها ولو أدت إلى طلاق الزوجة وفراق الأولاد ، وإن جهلوا العلة فى أوامر الشيخ والحكمة التى أدت إليها ، فان تردد

المريد فى الاستجابة لهذه الأوامر — بالغا ما بلغ الإجحاف فيها وجب على الشيخ أن يخرجه من زاويته ويطرده من رحمته ورضوانه .

ولما كان سلطان الشيوخ على المجاور ليقف عند الدين أو يقتصر على ما تتطلبه الآخرى فقد تجاوز ذلك — باسم الدين — إلى الدنيا وشئونها ، فحرموا عليه الاقدام على عمل أو الشروع فى أمر منهم دون استشارة الشيخ والانقياد لمشورته — وإن وضح له فسادها فان اقترف فى دنياه اثما وجب عليه أن يبادر إلى شيخه ليعترف ، على يديه ويلتمس منه العمل على تطهيره من ذنوبه ، وبذلك أضحى لشيوخ الطريق سلطان على مريديهم لا يقره الاسلام وإن أباحته المسيحية — أو أحله القسس لأنفسهم [١] على ما عرفنا من قبل .

على أنا قد أشرنا إلى أن المريدين كانوا لا يلتزمون العمل بتعاليم الشيوخ إذا انصبت على مقاومة الغرائز رأسا — كمقاومة الملكية وإلغاء الأنانية ونحوها ، ولكنهم كانوا فى سائر نواحى الحياة متاعا للشيوخ ، أو أدوات فى أيديهم يسخرونها كما يشاءون . بل أحقر من الأدوات إذ كانت الحقوق تعوزهم والواجبات تثقلهم فكانوا فى زواجهم وتربية عقولهم وتنمية أجسامهم وتهذيب نفوسهم ومعاملة بعضهم لبعض ، وسائر جوانب الحياة خاضعين لأوامر الشيوخ — مالم تتصل بالغرائز اتصالا مباشرا وثيقا .

ولكن لماذا نحاول الكشف عن أثر التصوف فى توجيه الحياة عند هذا الصنف من المريدين . . . ؟ إن حياته موت يتخلله الكلام والحركة ، كان المجاورون فى حاجة إلى الشعور بالعزة والكرامة — وكانت الواجبات تحرج صدورهم وتنقض ظهورهم دون أن يكون لهم حقوق معروفة ، فكانوا بذلك أحط من الحيوان والجماد على ما عرفنا — ولكننا عنينا بالاشارة إلى

---

(١) أنظر كتابنا عن الشعرانى إمام التصوف فى عصره عن صلة تعاليمهم بالمسيحية ، وعن نموذج من علاقتهم بالمريدين .

حياتهم فى هذا الفصل لأنها كانت « إيحاءاً قوياً » للمتصلين بهم والمتيمنين ببركتهم من زوار الزوايا والمتصلين بهم فى المساجد والمحتكين لأى سبب من الأسباب ، وعلماء الاجتماع يعرفون أثر الإيحاء فى حياة الشعوب .

الأتباع والمحبون :

ونريد بهم أهل العلم والأدب وأولى الحكم والسياسة وأصحاب الحرف وغيرهم ممن كانوا إذا فرغوا من أعمالهم سارعوا إلى الشيوخ ومجاوريهم وسعدوا بالجلوس إليهم والاستماع إلى أحاديثهم ، والتأثر بتعاليمهم ، وقضوا فى ذلك فراغ وقتهم — وما كان أوسعه — وكانوا لا يرون فى الطريق أحد مدعى الولاية إلا تهافتوا عليه وتزاحموا حوله وتسابقوا إلى تقبيل يديه والترامى على قدميه .

وقد عرفنا أن الشيوخ قد قسموا مصر إلى مناطق نفوذ ، وأن صاحب المنطقة كان يمنح نفسه الحق فى امتلاك أرضها واستغلال غلاتها والاستيلاء على أهلها وكان الناس يسلمون له بهذا الحق راضين مغتبطين ، كما يقول الشيخ الصعيدى والشعرانى وغيرهما — والناس من فرط الخضوع لسلطان الشيوخ يسارعون إلى المساهمة فى كل ما ينظمه الشيخ معلنين الرضا به والاغتباط له — ولو كره بعضهم ذلك لعجزه عن الاضطلاع به ، فقد كان التقصير فى ذلك — أياً ما كانت أسبابه — « فضيحة » فى عرف الناس كما يقول مؤرخو العصر .

لقد كان السفاكون والمجرمون وقطاع الطرق ينقادون للشيوخ ، بل يبادرون إلى الاتصال بهم وطلب المغفرة على يدهم ويحتملون منهم كثيرا من ضروب العذاب وألوان العقاب ، ويسيرون فى مواكبهم فى الشوارع مقيدين فى السلاسل والأغلال غير شاكين ولا برمين ، كان الشيخ إذا نظر فى طريقه إلى أحد المجرمين تبعه المجرم من تلقاء نفسه مستسلما مستغفرا . . !! فأية حكومة من حكومات الأرض قد تهيأ لها هذا السلطان . . ؟ لا نكاد نعرف

نبياولا رسولا تهيأ له نفوذاً أعظم من هذا النفوذ الذى توافر لهؤلاء الأدعياء..!

بل ماذا يقول المؤرخ فى وصف المحبة التى انطوت عليها الجماهير لأعظم الرسل والأنبياء الذين عرفتهم الدنيا فى قديم الزمان أكثر من قول صاحب النور السافر فى السيد محمد البكرى : « وكان إذا قام من كل مجلس جلس فيه للتدريس فى الجامع الأزهر أوغيره يتقدم إليه الناس لتقبيل يده والتبرك بدعائه إلى ذاك والقرب من موضعه الشريف الذى هو موضع الرحمة ، ويقع بينهم ازدحام عظيم وربما سقط بعضهم تحت أقدام الناس وحوله إذ ذاك جماعة من جند السلطان الروم (الترك) وغيرهم وقد حلقوا بأيديهم خشية عليه من الايذاء بالازدحام وربما أخذ واحد منهم يده الشريفة وهى ممدودة لتقبيل الناس لطول مدها لهم إذ كان يقف بعد درسه نحواً من ساعة زمانية ثم يسير الى جهة دابته والناس على الغاية فى الازدحام عليه الى أن يصل اليها » .

ولا ينبغى قط أن نقول إن هذا شبيه بحب الجماهير لزعماء السياسة فى وقتنا الحاضر ، فان أكثر استقبالاتهم التى نراها فى السينما أو نقرأ عنها فى الصحف مدبرة قد نظمها أتباعهم قبل وصولهم إلى مكان الاستقبال ، وأعدل شاهد على ما نقول أننا كثيرا ما نرى هؤلاء الزعماء أنفسهم يسيرون فى الشوارع وحدهم والناس ينظرون إليهم متهامسين مشيرين إليهم قائلين : فلان باشا ... ولا ازدحام هناك ولا حفاوة ..! وذلك فوق أنهم لا يتصلون بالجماهير — فى الأغلب والأعم — اتصال هؤلاء المتواضعين ، ولذلك أثره البين فى تهافت الشعب عليهم وشوقه إلى التطلع إليهم .

بل لقد كان الشيخ يمضى إلى المكان القفر فيقيم فيه زاوية فسرعان ما يتهافت عليه الناس ويبادر إليه الفقراء وتقام حوله المساكن تبركا به وتيمنا بمجاورته فاذا المكان القفر عامر ..! روى صاحب تكميل النور السافر[1] عن

---

(١) تكميل النور السافر ص ٢٩٣

محمد المنير أنه تسامع بنبأ ولد كان فى صحبة أمه ومات عطشا جهة بلبيس ، فمضى إلى هذا المكان القفر الذى مات فيه الولد وحفر فيه بئراً وأقام على كثب منها زاوية له ، فسرعان ما أقيمت المساكن حوله وكثر الفقراء عنده فإذا المكان القفر قرية عامرة وإذا الزاوية ملتقى المعجبين بالشيخ المؤمنين به ، ومحط الراحلين إلى الفرس والشام وغزه أو العائدين من هذه البلاد إلى مصر ..!

فالنفوذ الذى تهيأ لشيوخ الطريق عنـــد المصريين إبان العصر العثمانى لم يتوافر نفوذ أعظم منه — من قبل ولا من بعد — لزعيم ولانبي ولا رسول .!!

ولقد كان بين المحتفين بهؤلاء الشيوخ الشعراء الذى تعقبوهم فى قصائدهم المتعددة بالمديح والثناء ، والأغنياء الذين اشتد بهم الحب والايمان فتجردوا عن أموالهم وما يملكون وحبسوه على الشيخ وذريته ومجاوريه حتى عاشوا فى الترف الذى أسلفنا الحديث عنه ، وحكام البلد الذين يتعالون على الشعب ولكنهم يخرون سجداً أمام أرباب الطريق ويقومون أثناء زياراتهم للزوايا بأقل الخدمات لأقذر الفقراء ، وعلماء البلد الذين كانوا يتسامعون بنبأ فقير يقيم على أبواب المساجد أو فى الخرائب المهجورة فيبادرون إلى زيارته ويقفون أمامه خاشعين حتى يأذن لهم بالجلوس إلى جواره ، فان ضن عليهم بذلك وبخل بالالتفات إليهم فترة من الزمن انصرفوا عنه آسفين . . . !!
والمنكرون من هذه الفئات كانوا — فيما يرجع — على إيمان صادق بالتصوف والمخلصين — فى عرفهم — من رجاله ، فكان إنكارهم منصبا على أفراد بعينهم ، وقلما كان يصادفنا فى دراستنا منكر يثير العثير فى وجوه المتصوفة جميعا ويعلن سخريته بالتصوف وأهله إطلاقا . . .

كان المصريون — خاصة وعامة أسرى الشيوخ وعبيد الإيمان بولايتهم ،

وكانوا على اتصال مباشر أو غير مباشر — بتعاليمهم ، يتلقونها منهم عقائد تستعبدهم وتسير دفة الأمور فى دنياهم ، ولهذا وجب أن نعرف الأثر الذى خلفه التصوف فى نفوسهم ومدى توجيهه لحياتهم ، وذلك بأن نعرض بعض جوانب نظرتهم إلى الحياة ونحاول الكشف عن علاقتها بحياة المصريين فى العصر العثمانى وما تلاه من عصور .

أثر تعاليمهم فى توجيه الحياة المصرية فى العصر العثمانى وما بعده :

تساوت فى نظرهم شتى العلوم المعروفة فى عهدهم — من دينية ولسانية وعقلية وغريبة — فاعتبروا الاشتغال بها انصرافا عن أقدس واجب يقف عليه الإنسان حياته وهو العبادة والذكر والتهجد ، فهاجموها علما علما (1) فكان من أثر هذا الهجوم عند الفقهاء وحملة الشريعة — لا عند عامة الناس فحسب — أن ذهب طالب علم إلى شيخ الإسلام الفتوحي الحنبلى وطلب إليه أن يدرس المنطق على يديه — فقال له الشيخ : ياولدى قد صار الفقه ثقيلا على قلبي ، فكيف يعلم أفتى بعض العلماء بتحريم الاشتغال به ؟ ، فقال له الطالب ، يامولانا إن العلم عبادة فقال له الشيخ : صحيح ذلك ، ولكن ما وجدنا فى العلم رقة قلب بخلاف الذكر والاستغفار ، مع أن فضل العلم على غيره مشروط بحصول الإخلاص فيه وما أظن ان عندى اخلاصا . ! » .

ولاشك أن حملاتهم على العلوم كانت ذات أثر كبير فى ثورة الناس على السياسة العلمية التى رسمها محمد على باشا بعد انقضاء العصر العثمانى — ومقاومتهم لمدارسه التى انصرفت عنايتها إلى دراسة العلوم الحديثة ، ولاشك أيضا أن هذه الحملات كانت ذات أثر كبير فى مقاومة الأزهر لإدخال العلوم غير

---

(1) أنظر ذلك فى الفصل الذى عقدناه عن مذهب الشعرانى فى الحياة العلمية فى كتابنا عنه (الفصل الأول من الكتاب الثالث)

الحديثة(١) ، ولاشك أيضا أن هذه الحملات كانت ذات أثر كبير فى مقاومة الأزهر لإدخال العلوم غير الدينية فى برنامج دراسته ، وقد أحس أولو الأمر بما سليقونه فى هذا السبيل من تعصب وضيق فمهدوا لذلك بفتوى وضع صيغتها السيد محمد بيرم بعد أخذ وعطاء بينه وبين شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الإنبابى ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد البنا ، فقال بعد الديباجة « ماقولكم رضى الله عنكم هل يجوز تعلم المسلمين العلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات ...؟ » فأجاب الإنبابى بجواز تعلم هذه العلوم وضرورة العلم بما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وتحريم الاشتغال ببعضها إذا كان على طريقة الفلاسفة . !! ووافق البنا على ما كتب الانبابى ، وكان ذلك عام ١٣٠٥ هولم يعمل بهذه الفتوى إلا بعد مضى تسع سنوات أخرى ..! (٢) ولهذا أيضا دلالته .

والناحية العلمية كانت فيما نرى أقل نواحى الحياة المصرية تأثرا بالتصوف ، إذ كان بين القائمين عليها المهيمنين على شئونها ألد من عرف المتصوفة من أعداء ، وكانوا أصحاب نفوذ على طلبة العلم أدى إلى ازدحام حلقات دروسهم بمئات الطلاب ، وكان بعض المتصوفة يلقون دروسا فى رحاب المساجد على طريقة الفقهاء كمحمد البكرى فى القرن العاشر ، والمناوى فى القرن الحادى عشر والبيومى والدردير والشبراوى والحفناوى فى القرن الثانى عشر ، فأضعف هذا من أثر الداعين للجهالة من أهل التصوف الخلص ، وقد ساعد على هذا ماكان يشيعه أعداء المتصوفة من الفقهاء عن زندقة أرباب الطريق وتمردهم على قواعد الدين . على أن ذلك كله لم يمنع من انتصار مشايخ الطريق على الفقهاء فى أكثر مراحل النزاع القائم بينهم ، وهل أدل على ذلك من انتصارهم

---

(١) تاريخ الأزهر ص ٢٥ — ٢٨ ، وقد أشار اليها جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة ج ٤ ص ٣٢

(٢) وصلتنى تجارب الملازم الثلاث السابقة وأنا بالمستشفى فتفضل بتصحيح هذه التجارب صديقى الأستاذ جمال الدين الشيال وتلميذى الآنسه صفية الصحن فلهما الشكر الجزيل

على العلماء فى أقوى حصونهم وأمنع قلاعهم فى الأزهر..! لقد تولى مشيخته بعض من كانوا علماء ومتصوفة معا كالشبراوى + ١١٧١ ه والعروسى + ١٣٠٨ ه والحفناوى + ١١٨١ ه ، فكان لذلك دلالته ومغزاه .

كان هؤلاء الأدعياء — على ماعرفنا — منقسمين إلى معسكرين ، لم يتورع أحدهما عن الدعوة للجهالة جهارا ، ولم يستح ثانيهما من الاتفاق مع الأول فى الجهر باحتقار العلوم الشائعة والدعوة إلى العلم اللدنى وحده ، واتفق المعسكران كذلك على تحريم التأويل واحتقار التفكير وإيثار الظاهر على الباطن — لغير أولياء الله — ولاشك أن هذه الدعوة كانت ذات أثر كبير فى ركود الحياة العقلية عند المصريين فى العصر العثمانى ، فتعاون الفقهاء مع أرباب الطريق على إذاعة الدعوة الخطرة وقد ورثتها الأجيال التى أعقبتهم ، فما نزال إلى اليوم نرى الذين يحرمون تأويل الآيات والأحاديث ويتهمون بالزندقة كل من أقدم على ذلك ولو كان من كبار حملة الشريعة ، وقد قاسى الشيخ محمد عبده وغيره من أساطين الدين كثيرا من جراء ذلك .

لا نريد أن نبالغ فنقول إن أرباب الطريق كانوا مبعث الركود الذى شمل العقل وطغى على العلم فى العصر العثمانى ، فان الشلل العقلى كان قد أصاب العالم الإسلامى كله منذ عام ١٢٠٠ للميلاد حين انتصر حزب السنة وقضى بتعصبه على حرية العقل وعمل جادا على خنق الحرية الفكرية كما يقول الأستاذ نيكلسون فى الفصل الأخير من كتابه «تاريخ الأدب عند العرب» (١) ولو أن الحياة العقلية فى مصر كانت ناضجة ما استطاع هؤلاء الأدعياء العيش فى رحابها والتنفس من نسيمها ، على أن ذلك لايمنع من القول بأن المتصوفة قد استغلوا الركود الجاثم على صدر الأمة ، وعملوا على تقويته بتعاليمهم المريضة ، فساهموا بنصيب وافر فى الانحلال الذى أصاب العقل المصرى إبان العصر

---

(١) A. Litt. Hist. of the Arabs

العثمانى . ولاسيما إذا عرفنا أن مصر كانت زعيمة العالم الإسلامى كله أيام سلاطين المماليك .

فإذا تركنا أثرهم فى الحياتين العلمية والعقلية وتتبعناه فى الحياة الاجتماعية ، عرفنا أنهم فى الأغلب والاعم قد صوروا الدنيا فى صورة جسر يعبر عليه الانسان إلى أخراه — إلى المقام الأبدى والدار الباقية — والعاقل من استغل وجوده بها ووقف حياته على التزام الطاعات ومواصلة العبادة والاخلاص فى الذكر حتى تفنى بشريته وتتصل نفسه بحضرة الله وتنعم فى رحابها بما لم ينعم به إنسان ، وتستمد من معينها شتى الهبات التى لايظفر بها إنس ولا جان ، فأدى بهم هذا التصوير القبيح للدنيا وقيمتها إلى القول بالغاء الملكية واحترام البطالة وإباحة التسول وتحقير ماتنطوى عليه الحياة من لذات وإغراء الناس بتكلف الحزن واصطناع الضيق والسعى إلى مواطن الذل والاغتباط بالهوان والاطمئنان للمستقبل الغامض والقناعة بالتافه من شئون العيش والاستهانة بالمادة والاستهتار بالمال والاكتفاء برحمة السماء .. ألغوا الملكية اعتمادا على أن الله وحده مالك الدنيا والآخرة وصاحب السموات والأراضين ، هو الباقى وسائر العباد قد وجدوا فى الدنيا ليتأهبوا للأخرى ويستعدوا لاستقبال أهوالها .. ! وحصروا سعادة الدارين فى العبادة والذكر فانتهى بهم ذلك إلى تحقير مطالب الحياة ورغبات النفس وشهوات الجسم ، فكان من أثر ذلك أن هان فى نظرهم السعى فى الدنيا لاكتساب المال والكد فى ميادين العمل من أجل الربح للظفر من لذات الحياة بأوفى نصيب ، وساروا فى تصورهم إلى نهايته فأباحوا التسول بعد أن استهجنوا السعى وقبحوا العمل ، قائلين إن الشحاذين الذين يطوفون بالأبواب يحملون عن المحسنين ذنوبهم ، فان هدية الله للمؤمن وقوف السائل على بابه ، وإذا كان التسول مباحا محبوبا فذلك لأن الدنيا دار فناء ولاقيمة لما تنطوى عليه من لذات ،

والإنسان فيها يشبه المريض الذى حانت ساعته ، فكما أن المريض لايفكر فى هذه الساعة إلا فى الحساب العسير الذى ينتظره ، فكذلك العاقل فى دنياه لايفكر فى تعليم نفسه أو تحسين معيشته وترقية مستوى حياته لأن ذلك انصراف لأتفه المطالب واهتمام برغبات دنيوية تافهة ، والانسان الذى يعرف مكانته وصلته هو الذى لايبيت على دينار أبدا ، وحسبه من دنياه التوكل على الله ، وما أخيب التاجر الذى يصرف وقته فى تجارته والزارع الذى ينفق جهده فى زراعته ، والصانع الذى يبذل نشاطه فى صناعته ، وما أفشل من سافر منهم طلبا لكسب أو رغبة فى مال فان الرزق فى طلب صاحبه دائر ، والمرزوق فى طلب رزقه حائر ، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر ، فالله يرزق عباده من حيث لايحتسبون ، وصير فى القدرة الإلهية يمر بالفقراء فيسدعنهم ديونهم ويمدهم بالمال الذى يحتاجون ، والاخلاص فى العبادة كفيل باكتساب شتى الهبات والظفر بمختلف المطالب ، وإن العبد ليدخل الخلوة جاهلا فقيرا ضعيفا ويخرج منها عالما واسع العلم ، ثريا طائل الثراء ، قويا موفور القوة . . ! ! فحسب الانسان من حياته العبادة ، والعبادة من مستلزماتها التى لاتستقيم بغيرها الإسراف فى التواضع حتى لتهون على الانسان كرامته ، وتسقط فى عينه عزة نفسه ، ويسهل عليه التمرغ تحت أقدام الناس والرضا بظلم الظالمين وبغى المعتدين ، والاغتباط بالذل والهوان ، فان احتمال الظلم رضاء بقضاء الله وعقابه للمظلوم على سوء ماقدمت يداه ، ولماذا يثور المظلوم فى وجه ظالم . ؟ لماذا الخصومة والانسان لايملك فى دنياه كثيرا ولا قليلا . . ؟ ثم إن الظالم لايقدم على ظلم أحد من الناس إلا وهو فى غفلة عن ربه ، ولو أنه كان فى يقظه لعرف أن الله يراه ، وأنه يظلم أحد عباد الله ، ولو عرف ذلك لاستحى من ظلمه وكفّ عنه آسفا ، ومثل هذا أحوج إلى عطف المظلوم ومرثاته منه

إلى سخطه وغضبه [١] .

بهذه العين الكليلة نظروا إلى الحياة ، فأحالوا الدنيا إلى مقبرة واسعة النطاق تضم ملايين المخلوقات ، وحولوا الحياة إلى موت تتخلله الحركة ويشوبه الكلام ووضعوا هذه التعاليم التى لا تلائم غير الضعفاء والجبناء والكسالى وفقراء النفوس ومرضى العقول وساقطى الهمة ، وكانوا يستغلون نفوذهم عند الناس وينفثون فى المتصلين بهم هذه التعاليم المريضة ، وتلقى المصريون عنهم هذه الآراء كما يتلقى المؤمن المخلص عقائده الدينية فلا يتردد فى اعتناقها ولا يبطىء فى العمل بها ، فان ألحت على المصرى حياته بالحيدة عن بعض هذه التعاليم حاد عنها آسفا على عجزه عن التزام العمل بها ، وكان هذا الأسف كفيلا بأن يشيع الفتور فى عزيمته ، وكذلك كان أصحاب الحرف الذين أقاموا على أعمالهم رغم اتصالهم بشيوخ الطريق ، بل لعلهم كانوا متأثرين فى ذلك بدعوة بعض هؤلاء الشيوخ لاحترام العمل والتنفير من البطالة .

على أساس هذه التعاليم التى أسلفنا الآن إجمالها قامت الحياة الخلقية والعملية والسياسية فى مصر ، خف ألوف الدراويش إلى الزوايا عاطلين من كل عمل إلا دعوى العبادة والذكر ، يحترفونها ويقتاتون من ورائها ، ويشبههم فى هذا ألوف الدراويش الذين كانوا يتجولون فى الشوارع والطرقات ويفهمون الدنيا هذا الفهم المريض الذى لا يكلف الإنسان مشقة ولا نصباً ، وألوف غيرهم يحترفون العمل — ولكنه عمل يحوطه الاعتقاد فى تفاهته ، والاحتقار لثمرته ، وإيمان بأن القناعة بالتافه من شئون العيش ثروة ليس بعدها ثروة ، ولاشك أن هذا كله قد ساهم بأوفر نصيب فى ركود الحياة العملية إبان العصر

---

(١) اقرأ تفصيل هذه الآراء فى كتابنا عن الشعرانى فى بيان موقفه من الحياة السياسية والعملية والخلقية وهى فصول تعبر عن روح العصر كله ولهذا آثرنا أن نهمل تفصيل هذه الآراء اعتمادا على أن ما كتبناه بصددها فى كتابنا عن الشعرانى فيه الكفاية .

العثمانى ، فقد كان الذى يتظاهر بالتزام هذه التعاليم موضع احترام وتقدير من كافة الناس ، فكان هذا إيحاءً ذا أثر قوى فى الركود الذى شمل العصر كله . .

فاذا تخطينا الزمان وتلمسنا أثر التصوف فى حياة الريفيين الحاليين ومن هو فى حكمهم من أهل العصر الحاضر ممن تخلفوا عن الزمن الماضى فأخذوا عنه عقولهم واستعاروا منه نفوسهم وعاشوا بها بين ظهرانينا ، وجدنا أنهم لا يزالون يعيشون فى الدنيا كما يعيش الحيوان الأعجم ، يقنعون ما وجدوا اللقمة التى تسد الرمق ، والرقعة التى تستر العورة ، بمردهم على الحاكم — بالغا ما بلغت قسوته بهم — لا يتجاوز اغتيابه وتركه إلى الله العادل المنتقم الجبار .! وسوادهم الأعظم على اعتقاد بان الشعوب لا يصيبها ظلم ولا يدركها ضنك إلا كان من غضب الله على كثرة ذنوبها وتعدد آثامها .. !! فهو تعالى يعاقبها بهذا الذى تقاسيه فى حياتها من مظالم وفظائع . . . أجل لا يزال فى الريف من يرون أن تشاحن زعماء السياسة فى يومنا الحاضر مظهر من مظاهر غضب الله على المصريين الذين استهانوا بالدين فأهملوا القيام بفروضه ..! وتمردوا على نواهيه ومساهمتهم فى الثورة المصرية عام ١٩١٩ لم تكن عن إيمان بضرورتها واعتقاد بحكمة القيام بها — بل كانت عن إيحاء قوى أو تقليد لبعض المستنيرين الذين زايلهم التأثر بتعاليم الصوفية فى هذا الصدد . . . فهى ثورة ولدتها غريزة التقاليد وحدها . . (وإن جاز أن يقال إن هذا هذا كان أثراً من آثار الركود والجهل الذى سبق العصر العثمانى ، وجب أن يقال إن تصوف هذا العصر قد قواه ومناه) .

والقناعة عند الفلاحين والتجار وأصحاب الحرف مرض قد استشرى داؤه واستفحل أمره ووجب العمل على علاجه ، فان الزمن قد تطور بالناس حتى أصبح التكالب على المادة والضرب فى زحمة الحياة لا كتساب المال والظفر بالثراء مفخرة لصاحبه ، تعلى بين الناس قدره وترفع فى عيونهم مكانته ، ولا يزال أهل الريف فى مصر ومن فى حكمهم يعتقدون أن القناعة كنز لا يفنى ، وأن الزهد فى طلب الدنيا من مفاخر أصحابه ، والتجار فى الريف

والأحياء الوطنية بالمدن يقيمون فى حى من الأحياء ويفتحون متجراً يضعون فيه أصنافا معروفة يتجرون بها ، وكثيرا ما تنصرم حياتهم الطويلة دون أن يفكروا فى تغيير الحى أو المحل أو زيادة الأصناف التى يتجرون بها، ولايزال باعة الكتب فى الحى الحسينى بالقاهرة — لا يبكرون فى فتح مكاتبهم ويهتمون باغلاقها قبل غروب الشمس ، ولعل ذلك أثر من آثار التعاليم الصوفية التى أعلنها الغزالى وأتباعه حين نصحوا التاجر بالا يكون أول داخل إلى السوق ولا آخر خارج منه ، وكذلك نقول فى بقية الباعة بهذا الحى وغيره . وإن جاز أن يقال إن هذا من تقاليد الإسلام السابقة على تصوف العصر العثمانى .

وقد تغلغلت هذه النظرة فى هذه البيئات وأثرت فى الجاهل منها والمتعلم ، وكان من أثرها البليغ فى المتعلمين من أهل الثقافة الصوفية القديمة مانراه عند شيخ من شيوخ الأزهر يدرس لطلبته « الجغرافيا الاقتصادية » منذ بضعة أعوام فيقول لهم فى مذكرات مطبوعة : إن من نعم الله على المصريين أن سخر لهم الأجانب يقومون عنهم بالأعمال الاقتصادية والمالية حتى يتفرغوا هم (المصريون) لعبادة الله . ! ! فهذا الشيخ — عفى الله عنه — يعتبر من نعم الله على المصريين قيام الأجانب عنهم بالشئون المالية فى بلدهم واستحواذهم على شركات المياه والنور والمواصلات ومختلف مرافق الحياة الاقتصادية ، وذلك لكى ينقطع المصريون لعبادة الله فى عصر بلغت فيه زحمة الحياة والتكالب حدهما الأقصى . . ! ! ولست أدرى ماذا تكون لعنة الله ونقمته من الشعوب اذا كانت سيطرة الأجنبى على مرافق الحياة الاقتصادية فى عصر تستعبده المادة ، يعتبر نعمة يحمد الانسان ربه من أجلها — الا اذا كان المراد أن يحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه . . !

والذين يستسلمون للحياة هذا الاستسلام المعيب ، لا ينتظر منهم التفكير فى رد ظلم أو دفع بغى أو ثورة من أجل كرامة ، وقد انحدرت إليهم — فيما يرجح على الظن — نظرة صوفية العصر العثمانى فتغيرت فى مظهرها أو تفاصيلها

ولكنها بقيت فى جوهرها كما كانت أيام العثمانيين [١] لأن تعاليم التصوف تنحدر إلى الناس مع التقاليد التى يرثونها جيلا بعد جيل .

حسبنا الآن هذا فقد طال الحديث ، حسبنا هذا لا لأن معين الكلام قد نضب ، فان فى هذا الميدان متسعا للحديث المستفيض ، ولكن لأن الحديث كلما طال وجب الخوف من الشطط فى التقدير والجموح فى الاستنتاج ، ولنذكر ما قلناه فى مستهل هذا الفصل ، من أن هذه المحاولة التى أقدمنا عليها تغرى بالخطأ وتقود إلى مهاوى الزلل ، فان الذكرى تنفع المؤمنين .

إن الحكم على الحياة الاجتماعية عند الشعوب وتعليل ظواهرها ليس أمرا هينا ميسورا ، فربما تبدو الظاهرة بسيطة تحمل تفسيرها لكل من وقف قليلا للتفكير فى أمرها ، ومع ذلك فقد تكون معقدة إلى أقصى حدود التعقيد ، وتعليلها الصحيح قد يبلغ مكان الاستحالة عند هذا الباحث ، وأكثر الظواهر الاجتماعية — إذا لم نقل كلها — وليد علل كثيرة تتضافر على وجودها وتتعاون على إظهارها ، ولهذا كان رد الظواهر التى أسلفناها فى حياة المصريين إلى التصوف وحده وجعله العلة الوحيدة فى قيامها ، أمرا محفوفا بالخطر ، على أنا لا نملك بعد هذه الدراسة الآن نقول إنه كان أعظم العوامل أثراً فى قيام هذه الظواهر . .

ولكن لماذا نسينا الدين .. ؟ ألم يكن للاسلام نصيبه فى توجيه الحياة المصرية إلى هذا الاتجاه الذى عرضناه ؟ ذلك ما ينبغى أن نطيل الحديث فيه ، فان الحياة المصرية كانت إبان العصر العثمانى مسوقة بالحضارة الدينية وحدها ، وأريد بها تعاليم الدين وما نسب إليه من آراء ، ولم تساهم فى هذا التوجيه المدنية الغربية ولا غيرها من المدنيات ، فقد كانت مصر على ما عرفنا فى عزلة إلا عن العالم الإسلامى ، وكان هذا العالم قد أدركه الاضمحلال

---

(١) تفصيل هذا فى الفصل الذى عقدناه على الحياة الخلقية فى كتابنا عن الشعرانى .

وطبع حضارته فى شتى شعوبه ودوله بطابع واحد ، فلم تنفع رحلات العلماء وأرباب الطريق التى انتشرت فى هذا العصر كثيرا ، إذ أنعشت الحياة فى دائرتها الضيقة ، ولم تخرجها من نطاقها أو تعدل من ظواهرها وتعمل على توجيهها إلى اتجاه جديد . . والآن إلى الإسلام نشرح موقفه من مختلف مظاهر الحياة الدنيوية :

موقف الاسلام من هذا التوجيه

نتناول الآن نظرة الإسلام إلى الحياة فى شتى النواحى التى فصلنا الحديث فيها ، لنعرف أن الدين برىء من أكثر هذه الدعاوى التى بشروا بها وطالبوا الناس بالتزامها ، فكان من أثر ذلك ، هذا الركود الذى شمل الحياة المصرية واستبد بأهلها هذا الزمان الطويل .

الاسلام والحياة العلمية عند أهله :

دعا الاسلام إلى نصب المعلم الذى يقوم بتعليم الناس وإقامة المؤدب الذى يهذب نفوسهم[1] ، فكان فى ذلك احترام للعلم ، قال رسول الله من قال ان للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه فى غير منزلته التى وضعه الله فيها حيث يقول « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وقد قال تعالى « انظروا ماذا فى السموات والأرض » وبكت المقصرين فى النظر فقال « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » وأنذر الذين عميت عيونهم عن تدبير بدائع الكون فقال « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » وقال تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ومن الأحاديث النبوية التى تنطق بتقدير العلم والدعوة

---

(١) جمال الدين الأفغانى : الاسلام والرد على منتقديه ص ٨٩

له : أفضل العبادة طلب العلم — من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم — الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا عالما أو متعلماً — لاخير في العيش الا لعالم ناطق أو لسامع واع — وهل تنفع القرآن الا بالعلم — طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة — طلب العلم من المهد الى اللحد — . . . وقد نادى الاسلام بحرية العلم فلم يحصره فى بلد من بلاد الأرض ولا فى طائفة من بنى الانسان ، وأمر أهله باصطياد شوارده حيثما كانت وأنى وجدت فقال النبى : أطلب العلم ولو بالصين — الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها — خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت . . الى غير ذلك [١] .

وتاريخ العلم يقول إن الخلفاء قد أحاطوا بعطفهم العلماء من كل ملة وقد فصل ذلك الأستاذ محمد عبده وأيده بسرد أسماء طائفة من رجال العلم الذين صادفوا فى رحاب الخلفاء عطفا ورعاية [٢] وما كان ذلك الا لأن العقل العربى منذ انطلاقة من قيود الوثنية ودخوله فى التوحيد المحمدى قد أصبح على غاية من الاستعداد للجولان فى ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع كما يقول الأستاذ الامام [٣] بل إن العلوم العصرية والحقائق الفلسفية تزيد الدين تمكينا وتضاعف ايمان أهله به كما يقول فريد وجدى [٤] .

وقد سار بعض العلماء فى هذا الظن الى نهايته ، فقالوا ليس من قاعدة دلت عليها التجارب ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر وكان لها أثر فى ترقية الانسان وتحسين بناء العمران الا وكانت صدى آية قرآنية أو حديث نبوى

---

(١) محمد فريد وجدى : المدنية والاسلام من ص ٦٦ — ٦٩ وغيرها من صفحات الكتاب .
(٢) الاسلام والنصرانية من ص ٩ — ١٧
(٣) الاسلام والنصرانية ص ٨٣
(٤) المدنية والاسلام ص ٦

كما أوضح هذا الكواكبي [١] وفريد وجدى [٢] ومصطفى الغلاييني [٣] وبذلك أحالوا القرآن الى كتاب جغرافيا وتاريخ . . كما يقول عبد العزيز جاويش [٤] وعرضوا نصوص الدين الى اضطراب العلم وتناقضه كما يقول الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين [٥] .

على أن العلماء كانوا على اتفاق فى أن الاسلام ينفر من الجهل ويدعو الى العلم ، وما عادى المسلمون العلم ولا العلم عاداهم ، إلا من يوم انحرافهم عن دينهم ، وأخذهم فى الصد عن علمه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل ، وكانوا كلما توسعوا فى العلوم الدينية توسعوا فى العلوم الكونية وضربوا الزمان بسوط من العزة ، كما يقول محمد عبده [٦] وقد كانت العلوم الحديثة زاهرة إبان مجد الاسلام ولم يرم المسلمون من قرأها بزيغ العقيدة ولا من استمع اليها بالضلالة والكفر ومن كان فى شك من ذلك فما عليه الا أن يلقى نظرة على تاريخ القرون الأولى فى الاسلام ومحافظتها على الدين مشهورة فسيرى أن جيدها كان مزدانا بكثير من فحول العلماء الذين نبغوا فى العلوم الرياضية والعقلية والطبيعية ووضعوا فيها المؤلفات العظيمة وبثوا فيها التعاليم المفيدة ونشروها فى أطراف الأرض قاطبة كما يقول مصطفى بك بيرم مؤيدا كلامه بالأمثال [٧] وما ركدت ريح العلوم التى اخترعها المسلمون وبلغت التسعين بعد المائة كما يروى كشف الظنون الا بعد أن صارت السلطة فى يد الأعاجم من التتار والمغول الذين عرفوا أن انتشار العلم يعوق مطامعهم

---

(١) طبائع الاستبداد ص ٣٣
(٢) المدنية والاسلام ص ٤٠
(٣) الاسلام روح المدنية ص ١٩ — ٢٣
(٤) الاسلام دين الفطرة ص ٣٨ — ٣٩
(٥) من بعيد ص ٥٠
(٦) الاسلام والنصرانية ص ١٥٩
(٧) تاريخ الأزهر ص ٢١ — ٢٢

فى الاستبداد بالناس فافرغوا الوسع فى إطفاء نوره وحصر الرعية فى حالك الجهالة كما يقول الكواكبى (١) ومصطفى بيرم (٢) .

تلك آراء فئة من المحدثين من علماء الاسلام فى نظرة الدين إلى الحياة العلمية بسطناها مؤيدة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال التاريخية ، فأين هذا من حملات أرباب الطريق على العلوم المعروفة فى عصرهم علما علما ، وعدم تورعهم عن المفاخرة بالجهالة والسخرية حتى من العلم بأحكام الدين ، وغير ذلك مما فصلنا الحديث عنه من قبل .

والآن إلى موقف الاسلام من العقل عند أهله .

الاسلام والحياة العقلية عند أهله :

يقول الأستاذ الجليل أحمد بك أمين إن الاسلام قد سلك فى دعوته الى الايمان بالله وصفاته من علم وقدرة ووحدانية مسلكا يثير العقل ، وهو الدعوة الى النظر الى ما فى العالم من ظواهر ، « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » — « فلينظر الانسان مما خلق » « فلينظر الانسان الى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم » — « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » — « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك » — « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم

---

(١) طبائع الاستبداد ص ٣٧ و ٤٣

(٢) تاريخ الأزهر ص ٢١ — ٢٢

وألوا نسكم، الى كثير من أمثال هذا — وهذا الضرب من الآيات بعث العقل على النظر وكان له أثر فى نمو الحياة العقلية [١] وقد روى الأستاذ فريد وجدى عن النبي أحاديث نبوية منها : أن الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له — يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه . . — وقد أثنى قوم على رجل عند النبي وبالغوا فى الثناء فقال كيف عقل الرجل . . ؟ قالوا نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال ان الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرتفع العباد فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم [٢] .

وقد قال جمال الدين الأفغانى إن من الأمور التى تتم بها سعادة الأمم أن تبنى العقائد على البراهين القوية والأدلة الصحيحة ، وأن تتحامى العقول مطالعة الظنون فى عقائدها وتترفع عن الإكتفاء بتقليد الآباء وذلك ما دعا اليه الدين [٣] ومن دلائل هذه الدعوة ما نراه فى أصول الاسلام التى ذكرها محمد عبده وعبد العزيز جاويش والتى كان أخطرها شأنا اعتبار النظر العقلى وسيلة لتحصيل الإيمان [٤] فكان جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام قائما على ما أباحه لهم الشرع الشريف من الاجتهاد والقياس كما قدروه وعبروه بالأحكام العامة التى قررها الشرع [٥] وقد جعل الله لمن اجتهد فأخطأ أجرا واحدا ولمن اجتهد فأصاب أجرين كما يقول الأستاذ جاويش ، ولقد يسرنا — سهلنا — القرآن للذكر — للتذكير — فهل من مذكر — أى هل من طالب علم منه ومتفهم له . . ؟ وقد قبح الدين تقليد الآباء ومحاكاة الأجداد كما ذهب محمد عبده [٦]

---

(١) فجر الاسلام ص ١٦٩ — ١٧٠
(٢) المدنية والاسلام ص ٦٤ — ٦٥
(٣) الاسلام والرد على منتقديه ص ٨٧
(٤) الاسلام والنصرانية ص ٥٦
(٥) الاسلام دين الفطرة ص ٥٣
(٦) الاسلام والرد على منتقديه ص ٥ ، الاسلام والنصرانية ص ١٣٦

وعبد العزيز جاويش [١] وجمال الدين الأفغانى [٢] وغيرهم ، وقد ألبس القرآن الجامدين عار الجمود « ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون » — « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لايهدى القوم الظالمين » [٣] . .

ومن أصول الاسلام التى كان لها أكبر الأثر فى نشاط الحياة العقلية ، تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض كما يقول محمد عبده [٤] وعبد العزيز جاويش [٥] ثم عدم التقيد بما قاله رسول الله من معايش الدنيا على سبيل الرأى [٦] وما كان ذلك بغريب فان الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ويسبح به فى شعاب الأرض ويصعد به إلى طبقات السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف له سرا من أسراره فى خليقته أو يبسط حكما من أحكام شريعته فكانت جميع العلوم مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ماتشاء وتبلغ من التمتع ماتريد ، فلما وقف الدين وقعد طلاب اليقين وقف العلم وسكنت ريحه ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج [٧] وقد سلب الاسلام من رجال الدين كل مظاهر السلطان الذى يحد من طلاقة العقل ويقيد من سعة النظر ولم يخصهم بتأويل نصوص ولا غيره مما يؤدى إلى ركود الحياة العقلية عند الناس كما يقول محمد عبده [٨] والكواكبى [٩]

---

(١) الاسلام دين الفطرة ص ٥٤ ، ١٠٥
(٢) الاسلام والرد على منتقديه ص ٨٧
(٣) « « « « ص ٩٦
(٤) الاسلام والنصرانية ص ٥٦
(٥) الاسلام دين الفطرة ص ٥٨
(٦) نفس المصدر والصفحة
(٧) الاسلام والنصرانية ص ١١١٨
(٨) الاسلام والرد على منتقديه ص ٩٤ و ٩٥ ، الاسلام والنصرانية ص ٢٠ و ٦١ و ٦٣
(٩) طبائع الاستبداد ص ٢٩

وعبد العزيز جاويش[1] ومصطفى بيرم[2] وغيرهم ، حتى الرسول ، لاينبغى التقيد بما قال فى شئون الدنيا إذا كان من رأيه ، فى الحديث « . . وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فانما أنا بشر » وذلك لأن وظيفة الرسل قائمة على إرشاد العالم إلى طرق النجاح والاستقامة والعدل والأخلاق الفاضلة [3] ولهذا نرى القرآن يصرح فى وصف أهل الحق بأنهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين مايقال من غير فرق بين القائلين وجعل السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم بالأحوال الماضية واستعداد للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين » [4] فى الحق ليس فى طبيعة الإسلام مايدعو إلى الاضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ولا إلى مناهضة حرية الرأى ، ولك أن تقرأ القرآن وتمعن فى القراءة ، ولك أن تبحث وتمعن فى البحث فلن تجد نصا أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلى مناهضته أو يأخذ العقول بالجمود أو يحظر عليها حرية الرأى قليلا أو كثيرا — كما يقول أستاذنا الكبير طه حسين [5] .

تلك طبيعة الإسلام وهذه هى نظرته إلى تربية العقل وتنمية المدارك ، فأين هذا بالله من حملات أرباب الطريق على التفكير وتحريمهم التأويل ومهاجمتهم النظر فى ظواهر الأرض والسماء وتبشيرهم بقداسة الآباء والأجداد ودعواهم بان عام ٩٢٣ هـ (بداية الفتح العثمانى) كان نهاية العلم والنظر واعتبار الفلاح فى الطريق غاية لايبلغها المريد مالم يتحول إلى أداة مسخرة فى يد شيخه . إلى غير ذلك مما أسهبنا بيانه فيما سبق . والآن إلى موقف الاسلام من مقاومة الظلمة من الحكام والدعوة الى التزود بأخلاق الأقوياء والتبشير

(١) الاسلام دين الفطرة ص ١٠٥
(٢) تاريخ الأزهر ص ٥٦ — ٥٧
(٣) الاسلام دين الفطرة ص ٥٨
(٤) الاسلام والرد على منتقديه ص ٩٤ (٥) من بعيد ص ٢٢٠

بالكد فى ميادين العمل المشروع ، لنرى الهوة السحيقة بين تعاليمه وآراء هؤلاء الأدعياء .

الاسلام والحياة العملية

سارت الدعوة إلى الدنيا مع الدعوة إلى الأخرى جنبا إلى جنب فى الكتاب والسنة ، قال تعالى « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وعن النبى أنه قال : أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ولآخرتك كأنك تموت غدا — وفى حديث ثان : ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه — وفى حديث ثالث : أصلحوا دنياكم وأعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا — وغير ذلك مما رواه الأستاذ فريد وجدى [1] وقد ذهب الأستاذ محمد عبده إلى أن من أصول الاسلام الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة فان النبى لم يقل : بع ما تملك واتبعنى — بل قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله . (الثلث والثلث كثير انك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس) . فالحياة فى الاسلام مقدمة على الدين ولهذا جوز الاسلام للمؤمنين ترك الصيام إذا خيف منه المرض أو المشقة بل أوجب إهماله أن غلب على الظن الضرر فيه ، وكذلك أباح إهمال الوضوء والغسل إذا خشى الانسان منهما الضرر أو عرضت مشقة فى تحصيل المال ، كما أباح الصلاة قعودا إذا أصابت المصلى مشقة من قيامه ، وكما جوز صلاة الجمعة فى البيت إذا منع عن السعى إلى صلاة الجماعة فى المسجد وحل غزير أو مطر كثير أو مشقة .. وهكذا نجد القاعدة فى الاسلام : صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان وأباح الاسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود

---

(١) فى كتابه المدنية والاسلام

الشرعية والمحافظة على صفات الرجولية قال تعالى « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » ووضع الاسلام قانونا للانفاق وحفظ المال فى قوله « إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » ونهى الدين عن الغلو فى طلب الآخرة مخافة أن يهلك دنياه وينسى نفسه فذكرنا بأن الآخرة تنال مع التمتع بنعم الله فى الحياة الدنيا فقال « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولاتبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » وبذلك نرى أن الاسلام لم يبخس الحواس حقها كما هيأ الروح لبلوغ كمالها كما يقول محمد عبده [١] ، وقد قال عبدالعزيز جاويش أن الاسلام لايلزم الناس بما ذكره الرسول من معايش الدنيا على سبيل الرأى [٢] وروى الشيخ الغلاييني أن « الامام مالك » يرى أن تراعى المصلحة ولو خالفت النص لأن الله إنما شرع لمنفعة العباد[٣] وقال الأستاذ الجليل أحمد بك أمين « إن الشارع — كما قالوا — يدور فى تشريعه على حفظ أمور خمسة وهى الدين والنفس والعقل والنسل والمال ولو استقرينا أوامر الشرع ونواهيه لوجدناها تعدى هذه الأمور ولو وفقنا فى معرفة ما حلله الشرع أو حرمه لوجدنا علته كذلك ... [٤] وبهذا كانت الدعوة للعمل فرضا يلزم به الاسلام عنق كل مسلم قادر عليه كما يقول محمد عبده[٥] وأضحى للكد والعمل والمال نصيب موفور فى رسالة الاسلام قال النبي : أفضل

(١) الاسلام والنصرانية ص ٧٤ — ٧٧

(٢) الاسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٣) الاسلام روح المدنية ص ٣٩ — ٤٤

(٤) ضحى الاسلام ج ٢ ص١٥٦ — ١٥٧

(٥) رسالة التوحيد فى « الدين الاسلامى »

الأعمال الكسب الحلال — طلب الحلال فريضة على كل مسلم — من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء — سيأتى على أمتى زمان يحتاج الرجل فيه للدرهم والدينار يقيم بهأمر دينه ودنياه — نعم المال الصالح للرجل الصالح — إن الله يعطى العبد على قدر همته ونهمته — من جد وجد ولكل مجتهد نصيب — سافروا تصحوا وتغنموا — التاجر الجسور مرزوق والتاجر الجبان محروم — وقال عمر بن الخطاب لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة — ولقد كان الصحابة — والاسلام فى إبان مجده — يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى نخيلهم . . إلى آخر ما يرويه الأستاذ فريد وجدى فى تأييد هذه الدعوى (١) .

هذا هو موقف الاسلام من الدنيا وهذه هى نظرته إلى العمل والكد من أجلها والظفر منها بأوفى نصيب فى حدود شريعته ، فأين هذا بالله من الصورة الهزيلة التى رسمها للدنيا أرباب الطريق ؟ أين هذا من الدعوة لترك الدنيا والزهد فى نعيمها واحتقار لذاتها واصطناع الخوف وتكلف المتاعب والانقطاع للعبادة والتفرغ للتهجد والتبشير بالبطالة والعيش على إحسان الناس وإباحة التسول وإلغاء الملكية وكره المال والمفاخرة بدوام البعد عنه وسف التراب وضرب النفس بالسياط وقيام الليل وقضاء النهار كله فى ادعاء العبادة وتحريم السفر على التاجر متى وجد اللقمة التى يسد بها رمقه والخرقة التى يستر بها عورته . . إلى غير ذلك مما أسلفنا بيانه ؟ أين تعاليم الاسلام من هذه الآراء المريضة التى بشر بها هؤلاء الأدعياء باسم الدين . ؟

لقد انتبه الأستاذ الإمام إلى أن الدعوة للبطالة وفشو الكسل بين المسلمين كان من أثر الدعوة التى قام بها من فسد من المتصوفة (٢) — فكانت هذه ملاحظة قيمة لم يفطن إليها غيره من الكتاب الذين قرأنا لهم فى هذا الصدد .

(١) فى كتابه سالف الذكر

(٢) الاسلام والرد على منتقديه ص ٣٨

وقد صوروا الإسلام فى صورة دعوة إلى الفضائل السلبية التى تصلح للعيش فى جو كله دعة ورخاء وأمان ، وقبحوا الفضائل التى يتسم بها الأقوياء الراغبون فى كفاح الحياة الصالحون لنضال البقاء ، ولو كان الإسلام كما صوروه لما استطاع العرب فى إبان مجده أن يثبوا هذه الوثبة الجريئة التى أخرجتهم من جزيرتهم وهيأت لهم فى القليل من الزمن طريق السيادة على أعظم دولتين عرفهما التاريخ الوسيط هما الدولتان : البيزنطية والفارسية ، ولم تكن تعاليم الاسلام قد اهتدى الفساد اليها فأثبت الاسلام بذلك أنه دين الدنيا والآخرة معا ، وأنه دعوة جريئة إلى العمل والغزو والسيادة وليس دين الذلة والهوان الذى دعى اليه هؤلاء الدجالون حين قالوا إن احتمال الظلم رضاء بقضاء الله والتمرد عليه تمرد على حكم الله لأن الظالم أداة الله فى عقاب الناس . . إلى آخر هذا الهذر الذى عرفناه من قبل ، ولو كان الاسلام كما صوروه لما قبل عمر أن يقول له اعرابى جلف : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . . ! ولما رأينا المستنيرين من أئمة الدين أول من يتمرد على الظالمين من الحكام ويثيرون العثير فى وجوه الطغاة والمستبدين ، وما عهد جمال الدين الأفغانى والكواكبى ومحمد عبده والسيد توفيق البكرى عنا ببعيد ، بل لقد عرفنا فى أواخر العصر العثمانى من العلماء الذين يحسنون فهم دينهم ولا يتوانون عن الثورة على الحاكم متى قصر فى أداء مهمته ، وكان من هؤلاء الدردير والحفناوى وابن النقيب وغيرهم . . .

ولقد كان وجه الخطر فى دعوة هؤلاء الدجالين أنهم تواروا وراء الدين واستغلوا سذاجة الناس وأدخلوا فى وهمهم أن آراءهم صفوة الدين وخلاصته ، فآمن الناس بهم وتلقوا عنهم هذه التعاليم عقائد لا يأتيها الباطل فى حكم أو رأى فكان لها بالغ الأثر فى توجيه الحياة عندهم والانحدار بهم إلى هذا الاضمحلال الذى استغله المبشرون فى الهجوم على الدين الاسلامى .

ومن هذا الذى أفضنا فى بيانه نستطيع أن نقرر بأن تعلق المصريين بالاسلام فى العصر العثمانى لم يكن هو الذى انحدر بهم إلى هذا الركود الذى

استبد بهم وأفسد شتى نواحى حياتهم ، وإنما كان ذلك من أثر الدعوات الباطلة التى انطلقت فى المصريين وكان المتصوفة فيها أعظم قسط وأوفر نصيب .

وإنا لنحمد للنهضة الحديثة تهيئتها الجو للكشف عن بطلان هذه المزاعم وتحذيرنا من الخطر الذى يهددنا من وراء هذه التعاليم المريضة ، ومعرفة الهوة السحيقة التى تفصل بينها وبين تعاليم الاسلام الصحيحة ، فانا فى عصر لا يعرف الرحمة ولا يحترم إلا القوة والحديد والنار ، والشعوب تخطىء كثيرا حين تقتصر على الاعتماد فى جهادها على رحمة السماء فان السماء لا تحابى ضعيفا ولا قويا ، وانما تترك الخلائق فى صراعها ، والبقاء للأصلح والغلبة للأقوى ، وتواكل الشعوب لاينجيها من زحمة النضال وسباق الحياة وانما هو أبلغ حجة على استهانتها بمصيرها وتسليمها فى وجودها وقبولها للهلاك عن جدارة واستحقاق

. . .

هذا هو موقف الإسلام من تعاليم المتصوفة ، ومنه نرى أن الاسلام لم يساهم فى الانحدار بالحياة المصرية إلى هذا الاضمحلال ولم يشترك فى توجيهها إلى هذا الركود الذى رأيناه .

ومن الخير أن نقول الآن إن الشعوب فى تطورها إلى النضج والكمال وانحدارها إلى الركود والاضمحلال لا تخضع لعامل واحد وإنما تسير — فيما يلوح من تاريخ التطور — مسوقة بعدة تيارات وحركات لكل منها نصيبه فى هذا التوجيه ، ومثل هذه الدراسات شاق على أهله ، فليس فى وسع الباحث أن يحدد تحديدا رياضيا مدى ما كان للتصوف من أثر فى توجيه الحياة المصرية ، لأن ذلك لا يقاس بمقياس ولا يكال بمكيال ولا يوزن بميزان ، ولهذا كان الكلام فيه — بالغا ما بلغت قوته — عرضة للعجز عن مقاومة معاول الهدم إن سعت إلى هدمه واتجهت إلى تحطيمه . . .

كلمة عاطفة عمه :

مصادر الكتاب *

التصوف فى هذا العصر موضوع بكر لم يتعرض لدراسته أحد الباحثين من قبل ، وقد تساوى فى إهماله المستشرقون والشرقيون — قدماء ومحدثون ، ولهذا قلت استعانتى بالمستشرقين فيما سلف من فصول الكتاب، وان لم يمنعنى انصرافهم عن الموضوع الذى أدرسه من قراءة الكثير من أبحاثهم التى تناولت التصوف فى الإسلام ، فاطلعت على الكثير مما كتبه نيكلسون وماكدونالد وماسينيون وكوبولانى ولين وفولارز وكارادى فو وغيرهم ، كما عنيت بقراءة الكتب التى وضعها الشرقيون عن التصوف عامة فى غير العصر الذى أدرسه رغبة فى العلم بالتصوف عامة والافادة من ذلك فى تصور الموضوع الذى أدرسه وفهمه على أكمل وجه مستطاع .

أما المحدثون من الشرقيين الذين عرضوا للكتابة عن بعض نواحى التصوف فى هذا العصر فقد كانوا على قلتهم يستعينون بمصادر فى وسعى الرجوع اليها لأنها ما زالت تحت تصرف الباحث وفى متناول يده ، فاعتمادى على كتاباتهم لا يبرره البحث العلمى الصحيح ولا سيما اذا عرفنا أنهم يخطئون النقل والفهم والاستنتاج كما وضح لنا من كتابات جرجى زيدان وتوفيق البكرى ، وهذا فوق أنهم كانوا فى الجملة لا يتناولون ناحية فى التصوف بالدراسة المفصلة أو الموجزة ولكنهم كانوا يعرضون لأفكار تتصل به فيصدرون أحكاما سطحية لا يبررها الواقع ولا ترضى عنها الدراسة العلمية المنظمة .

وعلى هذا فالباحث فى موضوع التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى مضطر إلى الرجوع للمصادر الأولى ـ أى التى كتبها أهل العصر العثمانى وعالجوا

* من المفيد جدا الاطلاع على ماكتبناه عن المصادر فى كتابنا « الشعرانى إمام التصوف فى عصره » ص ١٠٥ وما بعدها لمعرفة أخطاء المستشرقين وفهارس دور الكتب بصددها

فيها شئونهم بالطريقة التى بدت لهم ، وقد كانت طريقتهم فى ذلك لا تخرج كثيرا ولا قليلا عن طريقة الفقهاء والكتاب من الشرقيين فى هذا العصر وما قبله ، وشر ما فيها سرد المعلومات التى لا تؤلف بينها وحدة فى الفكر ولا تلازمها دقة فى البحث وان كانت تمد القارىء بمادة قيمة وزاد دسم .

ولقد شاع بين الناشرين والمهتمين بالعلم من أهل الأجيال التى أعقبت العصر العثمانى أن مصر قد أصابها فى هذا العهد اضمحلال شاع فى كيانها وتغلغل فى شتى نواحى حياتها وشوه العلم فى رؤوس أهلها ، فأدى هذا الى انصراف أهل العلم عن نشر المؤلفات التى كتبت فى هذا العصر مؤثرين الاهتمام بنشر الكتب التى وضعت فى العصور السابقة حين كانت الحياة أدنى إلى الازدهار والحالة العلمية أقرب إلى النضج والنشاط ، وما علموا أنهم بذلك يزيدون العصر ظلاما .

فأما الكتب التى صادفتها العناية ووجدت من يقوم بطبعها فقد خرجت من المطابع حافلة بالأخطاء التى دلت على جهل الناشرين وكشفت عن مقصدهم من وراء طبعها ، ولم يكن شيئا آخر الا الربح — وقد حملنى هذا على ترك الكثير من هذه الكتب المطبوعة والرجوع إلى أصلها المخطوط رغم ما فى ذلك من مشقة تبدو فى رداءة الخط وصعوبة الاطلاع على المخطوطات داخل الدار .

فاما المصنفات التى بقيت مخطوطة فقد حفظتها لنا دار الكتب المصرية إلى يومنا الحاضر والكثير منها بخط أصحابها ولكن بقاءها إلى اليوم لا يبرر الاعتماد عليها من غير حذر ، فان الدقة كانت تعوز مؤلفيها فى كل فكرة تناولوها على وجه التقريب ومعرفة هذا ضرورية لمعرفة العصر على حقيقته .

على أن ذلك لا يحط من دار الكتب لأنها غير مسئولة عن أوزار غيرها وحسبها أنها قامت على حراسة هذه المخطوطات طوال هذه الأجيال ، ولشد ما يتولانى الروع ويشيع فى كيانى الجزع كلما تصورت ضررا حاق بهذه الدار وأتى على ما فيها من مخطوطات ـ لا قدر الله ـ وإنى لأرجو أن يكون هذا البحث المتواضع كفيلا بتوجيه نظر الناشرين إلى قيمة هذه المخطوطات التى حوتها الدار .

على أن الدار لم تقم بواجبها ازاء هذا العلم الذى تضمه بين جدرانها ، ومن دلالات تقصيرها الذى تحمل وحدها تبعته ، ما نراه فى نسخ الكتب ، فقد كلفت الناسخين بالإكثار من نسخ بعض المخطوطات ولكنها لم تشترط فيهم أن يكونوا على علم يمكنهم من أداء هذه المهمة بشيء من الدقة والمهارة ، فجاءت الكتب التى نسخوها نموذجا لرداءة الخط وقبح الأخطاء .

وفهارس الدار فى حاجة إلى نظام جديد يكفل للباحثين سهولة البحث ويخفف عنهم بعض مشقاته وذلك فوق أن الفهارس الحاضرة مليئة بالأخطاء والكتاب الواحد له فيها أسماء قد تبلغ الخمسة . وسبيل البحث فيها ملتو يستغرق الكثير من الوقت ولا يضمن العثور على المطلوب ، وقد وجدت فى أثناء بحثى فى هذه الفهارس و إعداد ثبت بعدد النسخ الموجودة لكل كتاب ، أن الكتاب الواحد قد تكون له نسخ فى فهرس للتصوف ونسخ أخرى ذكرت أرقامها فى فهرس ثان وثالث وبذلك لا يسهل على الباحث أن يعرف جميع نسخ الكتاب الواحد الا إذا تصفح فهارس الدار كلها . . !

على أن الدار مع هذا النقص كله تسد حاجة الباحث وتشبع نهمته متى أوتى الصبر واحتمال المشقات وكان بحثه منصبا على دراسات إسلامية — وقد كتبت عن التصوف فى هذا العصر الحالك فى ظلامه دون أن تصادفنى فيه حلقة مفقودة فقد وجدت فتراته كلها من يؤرخها ويسهب فى بيان الحياة فيها وإن كانت عصور الاضمحلال تجرى فى شتى مراحلها على نمط واحد ، والتمايز فيها ضعيف لا يكاد يحس وقد لاحظت أن كتاب هذا العصر فى كل مراحله كانوا يستقون علمهم عن الشعرانى أو يرجعون اليه ويأخذون عنه كثيرا فى كتبهم وان كان أكثرهم لا يشير الى ذلك .

ورغم هذا فقد اغتبطت بتعدد المصادر فى فترات العصر كلها اذ كان بعضها يمتاز بمادة لا تتوافر فى غيره وكان العلم بها ضروريا فى الكشف عن بعض آفاق المجهول من هذا العصر ، فى كتاب (تحفة السالكين ودلالة السائرين للسمنودى) مثلا أجزاء كاملة مسروقة من كتاب لواقح الأنوار

القدسية فى بيان قواعد الصوفية للشعرانى ، ورغم هذه السرقة التى لم يشر اليها السمنودى فى كتابه فقد زود القارىء ببيانات عن حياة الفقراء فى رحاب الزوايا وغير ذلك لم أعثر عليه فى كتاب آخر للشعرانى أو غيره .

ورحلة النابلسى (الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز) تضمنت معلومات عن الزوايا والأضرحة وغيرها تعوز المصادر الأخرى التى اطلعت عليها — فتعدد المصادر حتى فى عصور الاضمحلال — التى من شأنها أن تسير على نمط واحد ولا يكون بين مراحلها تمايز — خير عظيم ينبغى أن يغتبط له الباحث ويسر به .

وحسبى الآن أن أقول فى الدلالة على وفرة المصادر فى العصر كله ، أن الفترة التى سبقت العصر العثمانى فى مصر رجعت فيها الى المقريزى والقلقشندى و بعض المخضرمين كالشعرانى وابن أياس وأما القرن الأول من العصر العثمانى (العاشر الهجرى) فقد أوضح جوانب الحياة فيه الشعرانى بمؤلفاته المتعددة وابن إياس وصاحب الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة (٣ أجزاء) والنور السافر عن أخبار القرن العاشر والسنا الباهر بتكميل النور السافر ورسائل السيد محمد البكرى وغير ذلك كثير .

فأما القرن الحادى عشر الهجرى فقد كتب فيه عبد الرءوف المناوى مصنفات كثيرة خيرها طبقاته الكبرى والصغرى ثم عبد الغنى النابلسى الذى زار مصر عام ١١٠١ وترك لنا رحلته القيمة من بعض الوجوه والمحبى صاحب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر بأجزائه الأربعة وغير هؤلاء كثيرون .

فاما القرن الثانى عشر فحسبه الجبرتى والحفناوى والبيومى ومصطفى البكرى والمليجى والمرادى (صاحب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر) وغيرهم كثيرون

على أن الظاهرة التى سادت مؤلفى هذا العصر وشاعت فى مختلف كتبهم وشتى مصنفاتهم هى السذاجة ، وقد كان روح العصر يبرر وجودها ، وليس أدل على ذلك من أن تكون كتب المناقب خير زاد للطاعنين فى أهل هذه المناقب بل لانظن ظاهرة أدل على هذه السذاجة من العجز عن تعليل أبسط الظواهر وأتفهها — وقدمر بنا الكثير من الأمثلة التى تشهد بهذا فى مختلف فصول الكتاب

كتب المؤلف

ا — تأليفاً :

١ — التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى	: نشرته مكتبة الآداب فى أغسطس ١٩٤٦ .
٢ — التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام	: صدر فى سلسلة الجمعية الفلسفية فى اكتوبر ١٩٤٥ .
٣ — الاسلام (بحث مقارن)	: نشرته مكتبة الآداب فى سبتمبر ١٩٤٥ .
٤ — الشعرانى إمام التصوف فى عصره	: صدر فى سلسلة أعلام الاسلام فى أغسطس ١٩٤٥ .
٥ — قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة	: نشرته لجنة الجامعيين لنشر العلم فى نوفمبر ١٩٣٦ ، وأعادت مكتبة الآداب طبعه فى فبراير ١٩٤٦ .
٦ — قصة النزاع بين الدين والفلسفة	: تحت الطبع

ب — ترجمة :

٧ — تراث الاسلام	: نشرته لجنة الجامعيين لنشر العلم فى أكتوبر ١٩٣٦ (للمؤلف فيه ترجمة الجزء الذى وضعه ا . جيوم عن الفلسفة والالهيات — مع التعليق عليه) .
٨ — علم الغيب فى العالم القديم	: وضعه شيفرون ونشرت ترجمته العربية مكتبة الآداب فى فبراير ١٩٤٦ .
٩ — تاريخ علم الأخلاق	: وضعه سدجويك أستاذ الفلسفة الخلقية فى جامعة كامبردج وسيظهر فى جزءين بعد .

صدر من هذه السلسلة

١٣ ــ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان

١٤ ــ مصر فى عصر الولاه
د. سيد اسماعيل كاشف

١٥ ــ المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسن الخربوطلى

١٦ ــ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى

١٧ ــ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نصر فرحات

١٨ ــ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود

١٩ ــ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. أحمد محمود صابون

٢٠ ــ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى
د. محمد أنيس

العدد القادم
نظرات فى تاريخ مصر
تأليف : جمال بدوى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٨/٧٠٣٩

ISBN٩٧٧ - ٠١ - ١٩٣٦ - ٩

يعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التى صدرت فى تخصصه ، وأكثر من ذلك أنه فريد فى موضوعه ، فلم يسبقه أو يلحقه عمل علمى يعالج تلك الفترة بمثل هذا العمق ، ويعتبر الأساس الذى بنيت عليه كل الأعمال العلمية التى تناولت هذا الموضوع أوجانبا منه .

والأستاذ الدكتور توفيق الطويل هو أستاذ الفلسفه بكلية الآداب بجامعة القاهرة ،

كما أنه عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة وهو علم من أعلام حياتنا العلمية ، وقيمة من قيم حياتنا الفكرية وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية (فرع الفلسفة) فى عام ١٩٨٣ ، كما أنه عضو بالمجلس الأعلى للثقافة .



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠ قرشاً